الأعلام من الأدباء والشعراء



النابغة الذبياني

شاعر المدح والاعتذار

إعداد

د. علي نجيب عطوي

دكتوراه دولة في الآداب

أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية



الأعلام من الأدباء والشعراء

النابغة الذبياني

شاعر المدح والاعتذار

إعداد

د. علي نجيب عطوي

دكتوراه دولة في الآداب

أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

تمهيد

يتراود إلى أذهان الكثيرين من الناس أن العصر الجاهلي، كان عصر القبيلة، وأن المجتمع الجاهلي، لم يعرف الحياة الاجتماعية القائمة على التنظيم السياسي الدقيق، بخلاف الأمم التي كانت تحيط بهم، والتي بلغت نتيجة لتلك الحياة السياسية المنظمة درجة عالية من التقدم الحضاري كالفرس والروم، مما جعل هذه الأمم تتحكم بالعرب، وتجعلهم تحت سيطرتها السياسية. والواقع أن المجتمع القبلي الذي نتحدث عنه كان فيه كثيرا من الإيجابيات، إلى جانب السيئات، فإذا كان العرب بحكم طبيعة الأرض التي فرض عليهم أن يعيشوا عليها، والتي كانت شحيحة قليلة العطاء، وإذا أعطت، فإنما تعطي بالقدر الذي بالكاد يكفي حاجة بعض القبائل دون سائرها، من هنا كان على هذه القبائل أن تُعَوِّدَ نفسها على شظف العيش أولاً وأن تعمل جاهدة على بسط سيطرتها على بعض الأرض، التي تجود ببعض الكلأ والماء، لتتمكن من الاستمرار في العيش ثانياً. من هنا كانت القبائل مجبرة غير مخيرة على التقاتل فيما بينها تزاحماً على البقاء والاستمرار.

وإذا كانت الحياة القاسية قد أوجدت عندهم هذا الصراع الدامي للعيش، فإنها أعطتهم إلى جانب ذلك آراءً في التربية الأخلاقية اكتسبت عن طريق الفِطرة، أو واقع الحال الذي هم فيه. وهذه التربية تقوم على وجوب التحلي بصفات الكرم، والشجاعة، والوفاء.

فالكرم: لأن الصحراء لا تعطي المحتاج، وإذا أعطت أحداً فعليه أن يضحي ببعض هذا العطاء، لينقذ آخرين من الهلاك، ولا يتوقع أن يَهبَّ أحد غيره لقضاء حاجتهم.

والشجاعة: لأن الجبن معناه التخلي عن حق من حقوق صاحبه. والتخلي عن الحق معناه الخضوع للإذلال، وبالتالي للموت جوعاً.

وأما الوفاء: فلأن الوضع البدوي لم يكتسب في واقعه الحنكة السياسية، التي قد تدفع بالمرء إلى بعض الأمور التي يظهر فيها التقلب في المواقف، والتلاعب بالعواطف، كل ذلك تحت غطاء ما يسمى باللعبة السياسية، أو الذكاء السياسي، بل نجد البدوي صافي الفكر، رقيق الإحساس، مرهف العواطف، يتجاوب بسرعة مع كل مّا ينسجم مع المواقف الإنسانية.

وإذا كانت القبيلة في وحدتها وتماسكها من القيادة المتمثلة بشيخ القبيلة، إلى الفرد العادي، قد كونت وحدة

سياسية إذا لم تكن دولة، فهي أشبه ما تكون بها، إذ هي منظمة بجيش اختياري كل فرد يعرف واجباته، ومهيأ للدفاع عنها، أقله بدمه حفاظاً على شرفها واستمرارها، لأن باستمرارها استمرارهُ، وبعزتها عزته، وبقوتها احترامه بين القبائل.

وهذه القبيلة كما لها الجيش القوي، فيجب أن يكون لها الإعلام القوي أيضاً، الذي يذيع صيتها بين القبائل، فسلاح الإعلام لا يقل تأثيراً عن سلاح القتال. من هنا كان لكل قبيلة إعلامها والمتمثل هنا بالشاعر، أو الشعراء الذين يدافعون عن قبائلهم بألسنتهم، فيتحدثون عن بطولاتها العظيمة في المعارك ضد أعدائها، فيرهبون قلوب من تراودهم أنفسهم بالتآمر عليها. وعن مآثرها الحسنة، كالكرم، والوفاء بالعهد، والتسامح عند المقدرة والنجدة لإنقاذ الملهوف، أو المحتاج للعون، إلى غير ذلك من الأمور التي يتباهى بها العربي.

من هنا لا نعجب إذا سمعنا أن القبائل كانت تبتهج أعظم الابتهاج، إذا نبغ فيها شاعر فكانت تذبح الذبائح، وتولم الولائم، وتدعو القبائل الأخرى لتهنئها بهذا الحدث السعيد، ولا نعجب أيضاً أن نرى الشاعر مكرماً أعظم التكريم، ومسموع الكلمة، مرهوب الجانب، معززاً، موفور

الكرامة، لأنه هو الذي سيدافع عنها، وسيذيع محاسنها، فيرفعها بعد خمول، ويشهرها بعد نسيان. ألم نسمع بقصة الأعشى ميمون بن قيس مع المُحَلِّق الكلابي، وكان مئناثاً، مملقاً وكيف قالت له امرأته: يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر (يعني الأعشى)، فما رأيت، أحداً اقتطعه إلى نفسه إلا وأكسبه خيراً. قال: ويحك: ما عندي إلا ناقتي وعليها الحمْلُ. قالت: الله يخلفها عليك. قال: فهل له بد من الشراب والمسوح[1]. قالت: إن عندي ذخيرة لي ولعلي أن أجمعها. قال: فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحد وابنه يقوده فأخذ الخطام؛ فقال الأعشى: من هذا الذي غلبنا على خِطامنا؟ قال: المحلِّق. قال شريف كريم. ثم سلمه إليه فأناخه؛ فنحر له ناقته، وكشط له عن سنامها وكبدها، ثم سقاه. وأحاطت بناته به يغمرنه ويمسحنه. فقال: ما هذه الجواري حولي؟ قال: بنات أخيك وهن ثمان شريدتُهن قليلة. قال: وخرج من عنده، ولم يقل فيه شيئاً. فلما وافى سوق عكاظ إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها وإذا الأعشى ينشدهم:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
إلى ضوء نارٍ باليَفَاع تَحَرَّقُ

(١) المسوح: جمع مسح وهو كساء من شعر كثوب الرهبان.

تُشَبُّ لمقرورين يصطليانها
وبات على النار الندى والمحلِّقُ

رضيعي لبان ثدي أم تحالفا
بأسحم داج عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ

فسلم عليه المحلق؛ فقال له: مرحباً يا سيدي بسيد قومه. ونادى: يا معشر العرب، هل فيكم مذكار يزوج ابنه إلى الشريف الكريم! قال: فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها[1].

أرأينا كيف جعل الشعر الخامل شريفاً، والفقير غنياً، والمئناث وقد زوج بناته، بقصيدة واحدة من الشعر، أو قل بأبيات قليلة.

من هنا كانت أهمية الشعر والشعراء، وأية وسيلة من الدعاية أو الإعلام تستطيع أن تؤثر كما أثر الشعر. فلا بأس إذاً أن يكون الشاعر هو اللسان الناطق بصدق عما تريد أن تعبر عنه القبيلة، أو ما يجيش في صدور أبنائها، ولكنهم عاجزين من التعبير عنها.

وشاعرنا النابغة الذبياني، الذي نحن بصدد الحديث عنه أحد شعراء الجاهلية الأعلام، الذين لا يشق لهم غبار،

(١) الأغاني طبعة دار الكتب ج ٩ ص ١١٣ ـ ١١٤.

ولا ينازعهم مكانتهم منازع، وهو في الطبقة الأولى بين الشعراء الجاهليين، كان صاحب لون شعري مميز ابتكرته مخيلته المبدعة حتى اشتهر به، وقد أجمع النقاد القدماء على أسماء الشعراء الذين هم في الطبقة الأولى من الشعر في العصر الجاهلي.

فهذا أبو هلال العسكري في التصحيف يقول: أئمة الشعر أربعة: امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى.

وفي تاريخ النحويين للمرزباني قال أبو عمرو: اتفقوا على أن أشعر الشعراء امرؤ القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى؛ فامرؤ القيس من اليمن، والنابغة وزهير من مضر، والأعشى من ربيعة[1].

وقال الفراء: كان النابغة جزل الكلام، حسن الابتداء والمقطع، يعرف في شعره قدرته على الشعر، لم يخالطه ضعف الحداثة[2].

وفي التاريخ الكبير يذكر ابن عساكر أن النابغة الذبياني أحد شعراء الجاهلية المشهورين، ومن أعيان فحولهم

---

(١) نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ٢٦ - ٢٧.

(٢) شواهد المغني ج ١ ض ٢٢ وطبقات الشعراء الأصمعي ض ١٥.

المذكورين. وفد على عمرو بن الحارث بن أبي شمر الغساني، وكان قد وفد عليه حسان بن ثابت، وامتدح عمرو بقصيدته التي أولها:

كليني لهم يا أميمة ناصبِ
وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وهذه القصيدة من مختار شعره.

وفي كتاب طبقات شعراء الجاهلية للأصمعي يقول الأصمعي: في الطبقة الأولى منهم نابغة بني ذبيان، واسمه زياد بن معاوية، ويكنى بأبي أمامة. وكذا قال أبو عمر الشيباني، وأبو الحسن الدارقطني. وسمي بالنابغة لقوله:

وَحَلَّت في بني القَينِ بن جَسْرٍ
فقد نبغتْ لنا منهم شؤون

وقال الأصمعي أول ما تكلم به النابغة من الشعر أن حضر مع عمه عند رجل، وكان عمه يشاهر به الناس، ويخاف أن يكون عيبها. فوضع الرجل كأساً في يده وقال:

تطيب كؤوسنا لولا قذاها
وتحتمل الجليس على أذاها

فقال النابغة:

فـذاهـا أنَّ صـاحـبـهـا بـخـيـل
يـحـاسـب نـفـسـه بـكـم اشـتـراهـا[1]

وقال أبو عمرو بن العلاء: كان أوس بن حجر فحل العرب فلما نشأ النابغة طأطأ منه، وذكر عنده النابغة وزهير، فقال: ما كان زهير يصلح أن يكون أخيداً للنابغة.

وقال الأزدي: كان يقالُ: أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب. والنابغة إذا رهب[2].

وقال ابن سلام أخبرنا يونس بن حبيب: أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرىء القيس بن حجر، وأن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى، وأن أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً، والنابغة[3].

وذكر عند أبي بكر (رضي الله عنه) الشعراء فقال: أشعر الناس النابغة، أحسنهم شعراً، وأعذبهم بحراً، وأبعدهم غوراً[4].

بعد هذا الإجماع على النابغة في القدرة الشعرية، والنبوغ في الشعر، ألا يستحق أن يتقلد منصب الحكم بين

(1) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.
(2) المصدر نفسه ص ٤٢٦.
(3) طبقات الشعراء ص ١٥، ١٦.
(4) محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ص ٨٢.

الشعراء في سوق عكاظ فيحسن التمييز بينهم عن خبرة بالشعر، وطول باع فيه. فيضع من شأن من يريد، ويرفع من شأن من يريد أيضاً.

ذكر صاحب الأغاني: أنه كان يضرب للنابغة قبة من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، قال: وأول من أنشده الأعشى، ثم حسان بن ثابت، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد:

وإن صخراً لتأتم الهداة به
كأنه علم في رأسه نار

فقال: والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس. فقام حسان وقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك. فقال النابغة: يا ابن أخي، أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن في حبال متينة
تمد بها أيد إليك نوازع

قال: فخنس حسان لقوله[1].

---

(١) الأغاني طبعة دار الكتب ج ١١ ص ٦.

فإذا كان النابغة على هذا القدر من المستوى الشعري، ألا يحق له أن يكون شاعر بني ذبيان المطلق، وأن تتباهى به ذبيان وتعتز.

وإذا كان النابغة يحمل الذكر الطيب من قومه للناس، فإنه يحمل عنهم أيضاً همومهم. فنحن لا ننسى أن بني ذبيان هم قبيلة من القبائل، لها مشاكلها مع غيرها من القبائل، أو مع غيرها من الجيران المحيطين بها، فقد كانت تتحالف مع قبائل أخرى، وكانت هذه القبائل تغير على غيرها، ويغار عليها، مما يوقعها في هموم ومشاكل، كان لا يتوانى النابغة أن يكون الوسيط بين هذه القبائل المتحالفة مع قبيلته، ومع أعدائها، وذلك بأسلوب لبق، ومخاطبة مؤثرة تدل على حنكة في السياسة، وباع مجرب فيها.

ومن أهم المشاكل التي تعرض لها النابغة هي مشكلة (حرب البسوس) أو حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، وكادت تلك الحرب تقضي على القبيلتين لضراوتها، والفترة الزمنية الطويلة التي استغرقتها. من هنا نجد النابغة حريصاً كل الحرص على إبقاء قبيلته قوية بتحالفها مع غيرها من القبائل أولاً، والسعي للمصالحة مع عبس ثانياً.

فلنستمع إلى النابغة كيف يرد بقوة على زرعة بن عمرو

ابن خويلد، لأنه طلب منه أن يسعى لدى قومه بترك حلف بني أسد، فيصفه بالسفاهة، ويهدده بأشد العقاب إن هو استمر بفتنته:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها
يهدي إلى غرائب الأشعار
فحلفت يا زُرع بن عمرو إنني
مما يَشُقُّ على العدو ضراري

ثم يروح النابغة ويصف بطولات بني أسد وأحلافهم.

وللنظر إليه وهو يمدح النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبي ويستعطفه ليترك الأسرى الذين وقعوا بين يديه بعد إغارته على بني ذبيان، وقيل ان بنت النابغة (عقرباً) كانت من بين السبايا، وكيف استجاب هذا القائد لرغبة النابغة، فأطلق الأسرى بعد أن كرمهم:

أصاب بني غيظ فأضحوا عباده
وجللها نُعمى على غير واحدِ
علوت معداً نائلاً ونكاية
فأنت لغيث الحمد أول رائدِ

والنابغة لا يفرق في دفاعه بين بني ذبيان وأحلافهم، فها هو ذا يركب إلى الحارث بن أبي شمر ليكلمه في أسارى

بني أسد وبني فزارة الذين كانوا يتركون ماشيتهم ترعى في أراضي الغساسنة، وكان هؤلاء يحذرونهم دون جدوى، حتى عزم الحارث على تأديبهم فغزاهم، وحل بديارهم، فقتل من قتل وأسر من أسر حتى جاءه النابغة يستعطفه على هؤلاء بعد أن لامهم أشد الملامة على جهالتهم وطيشهم، فما كان من الحارث إلا أن أعطاه إياهم وأكرمه. فقال النابغة في ذلك:

لم يبق غيرُ طريد غير منفلت
ومُوثَق في حبال القد مسلوب
أوَ حرة كمهاة الرمل قد كبلتْ
فوق المعاصم منها والعراقيب

ولم يكن النابغة دائماً في موقف المستعطف في الدفاع عن قومه وأحلافهم، بل إننا نراه أيضاً في مواطن أخرى يقف موقف المدافع عنها، والمحذر من الاعتداء عليها، كما فعل مع النعمان بن الحارث الذي أراد أن يغزو بني حُنّ بن حرام وهم من عذرة فنهاه النابغة عن ذلك. ثم أرسل إلى قومه يخبرهم بغزو النعمان، ويأمرهم أن يمدوا بني حُنّ، ففعلوا، وهزموا غسان. فقال النابغة في ذلك:

لقد قلت للنعمان يوم لقيته
يريد بني حُنّ ببرقة صادرِ

تجنب بني حُنٍّ فإن لقاءهم
كريه وإن لم تلق إلا بصابرِ
عظام اللها أولاد عذرة إنهم
لهاميم يستلهونها بالحناجرِ

لقد نجح النابغة كما رأينا نجاحاً كبيراً في سياسته الدبلوماسية، فهو حافظ على قبيلته من شر الاعتداءات التي تعرضت لها من القبائل أو من الأمم المحيطة بها، أولاً، كما أنه استطاع أن يحتل المكانة المرموقة عند قادة الدول التي زارها، فحاز على احترامهم ومكافآتهم المالية.

هذا على الصعيد القبلي، أما على الصعيد الشخصي، فنحن نعلم أن مكانة النابغة العظيمة عند الملوك والأمراء العرب، قد أثارت حقد وحسد الكثيرين من الشعراء، وغيرهم فراح هؤلاء يتآمرون على النابغة، ويدسون عليه الدسائس، حتى نجحوا إلى حد ما في ذلك عن طريق وضع أشعار على لسان النابغة يهجو فيها، أو يتغزل، كما حدث مع النعمان بن المنذر، مما أسخط عليه هذا الملك، وأجبره على الفرار مؤقتاً إلى الغساسنة ليتمكن هناك من الدفاع عن نفسه. وهناك نظم اعتذارياته التي عززت من جانبه الشعري، وجعلته يفوز برضى النعمان وعفوه، ويعود معززاً مكرماً أكثر مما كان عليه.

وإذا كان النابغة قد هوجم من قبل النقاد، واتهم بأنه أضاع كرامته وماء وجهه أمام النعمان ليرضى عنه، وقد نسي هؤلاء أن الاتهام الموجه إليه كان خطيراً، ومن الحكمة أن يعالج بتعقل ومنطق ليرفع عنه ذلك الاتهام، وقد نجح النابغة في هذا الأمر نجاحاً عظيماً وما يهم النابغة لوم اللائمين، أو نقد النقاد، طالما أنه حقق مبتغاه، ونال مراده، وخرج منتصراً ليدل للناس أنه ليس الشاعر الناجح فحسب، بل المحامي البارع أيضاً.

مقدمة

العصر الجاهلي هو من العصور المحببة إلى القلب، بل قل هو أعزها على الإطلاق، فهو مهد حضارتنا اللغوية، والبيانية، والفكرية. وهذا العصر كان مجالاً لنقد الناقدين، ودرس الدارسين، وأقوال المجتهدين، ما لم ينله عصر آخر من العصور. فقد اختلف في سبب تسميته بهذا الاسم؛ فقيل انه بسبب جهل أهل ذلك العصر للوحدانية الإلهية، وقيل بسبب جهل الفترة الزمنية التي يبتدىء بها ذلك العصر، وينتهي بها أيضاً. وقيل هو مشتق من الجهالة بمعنى الحمق والغلظة إلى غير ذلك.

وهذا العصر، وإن تخللته عادات وتقاليد أساءت إليه، كعادة الأخذ بالثأر، أو وأد البنات، أو لعب الميسر أو غير ذلك، فإنه إلى جانب ذلك تخللته ميزات حسنة. أبقاها الإسلام وحافظ عليها لأنها من صلب دعوته، كعادة الكرم، والوفاء، والمروءة، والسماحة، وغيرها.

وقد شهد العصر الجاهلي في فترة من الزمن هجمة من الباحثين، جاءوا إليه ليتعرفوا على كنوزه الدفينة، ويزيلوا عنها

غبار السنين، فكان أن ظهـــر نتيجة لهـذه الحمـلات الاستكشافية كثير من العلوم كعلم النحو، وعلم اللغـة، ودواوين الشعراء، والتراجم. والدراسات النقدية التي ظهرت فيها علوم البيان

وإذا كان المرء في حيرة من أمره في كيفية المفاضلة والاختيار بين ذلك الحشد الهائل من الشعراء العظام الذين تنوعت أعطيتهم، فغدوا كالرياض الفواحة التي تضج بأنواع الرياحين، ولكل رياضه لونها الجميل، وعطرها الفواح.

فالمفاضلة إذاً أمر عسير، والانتقاء أمر أعسر، ولهذا بات المرء محكوماً عليه بأن يدرس ما تستهـويه نفسـه، ويتجاوب مع شعوره، فيكتسب ما استطاع من الاكتساب. والأمل يراوده، بأن ينتقل إلى منفعة جديدة، مع شخصية جديدة، فيكون أشبه ما يكون بالنحلة المتنقلة بين الأزهار، تأخذ من كل زهرة شذاها العطر، لتعود وتظهرها صنعاً جديداً فيه شفاء للناس، وطعاماً لذيذاً تستهويه الأنفس.

وكان النابغة الذبياني هو تلك الشخصية التي استهوتها نفسي، ورغبت أن أبدأ بها معرفتي للعصر الجاهلي، فأكون قد قرعت باب الرهبة، لألج منه بعدئذٍ لأبواب أخرى.

وشخصية النابغة شخصية محببة إلى القلوب، لما

انطوت عليه من أمور شهرتها في الآفاق ليس عبر العصر الجاهلي فحسب، بل عبر جميع العصور إلى يومنا هذا، فهو صاحب الحكمة والموعظة التي تتردد على الألسن دوام الدهر:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

★ ★ ★

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقي مربض المستنفر الحامي[1]

★ ★ ★

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهب

وهو صاحب المدح البارع:

فإنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وهو صاحب الاعتذاريات الرائعة والتي جعلته شاعراً فرداً في هذا النوع.

إن مثل هذه الشخصية التي على هذا القدر من الإبداع لجديرة بالدرس والعناية.

---

(١) انظر المزهر للسيوطي ج ١ ض ٢٥٠.

ورغم هذه الأهمية التي كان عليها الشاعر، فقد كانت الدراسات، أو البحوث التي أعطته حق قيمته قليلة.

ومن أهم الدراسات التي تناولت النابغة: دراسة لعمر الدسوقي، وفيها يتحدث عن بيئة النابغة، فيتناول القبيلة، والصحراء، والفلسفة، أو أثر الصحراء في الشعر، ثم حروب ذبيان مع غيرها، والشعر العربي، والملاحم.

ويتوسع في الحديث عن أيام ذبيان، داحس والغبراء، وغارات ذبيان على الغساسنة. ثم ديوان النابغة: شعره ورواة الديوان، ثم التعريف بالنابغة، وأهم موضوعات شعره وهي الاعتذاريات والوصف، والمديح، والرثاء، والنسيب، ثم فن النابغة.

ثم دراسة إيليا سليم الحاوي (النابغة الذبياني)، فيتناول في الباب الأول الحديث عن الحيرة، وفي الباب الثاني الغساسنة، وفي الباب الثالث نماذج من شعره. الباب الرابع عودته إلى المناذرة.

ثم دراسة للدكتور محمد زكي العشماوي وفيها يتحدث عن الحيرة وغسان والشعر والقبيلة، ثم دراسة النابغة الناقد ومنزلته بين معاصريه.

ثم هنـاك دراسـة لجميـل سلطان وأخرى لسليم الجندي، ولحنا نمر.

وقد رأيت أن هذه الدراسات هي أزهـار في حقل المعرفة العربية، وأن هذا الحقل واسع وهو بقدر ما نزيد فيه من الأزهار المختلفة الألوان والرائحة، بقدر ما نجعله حقلاً مثالياً في عالم الجمال والمعرفة.

وقد قسمت دراستي عن النابغة إلى أربعة فصـول وخاتمة.

في الفصل الأول تحدثت عن أصول النابغـة، وفي الفصل الثاني عن الفنون الشعرية عند النابغة، والفصـل الثالث جعلت عنوانه النابغة في ميزان النقد الأدبي والفصل الرابع دراسة تحليلية للعناصر الفنية في شعر النابغة.

والخاتمة كانت خلاصة لما قمت به من جهد آملاً أن يكون هذا الجهد حجراً في بناء صرح المعرفة العظيم.

د. علي نجيب عطوي

الفصل الأول

أصول النابغة

أصول النابغة الذبياني: اسمه، نسبه، قبيلته، حياته.

أولاً: نسب النابغة وقبيلته:

قبل التعرف على النابغة الذبياني، يجدر بنا أن نتعرف على قبيلة هذا الشاعر، والدور الذي لعبته على مسرح الأحداث في التاريخ الجاهلي، والمكانة التي احتلتها بين القبائل، لنتعرف بالتالي على الدور الذي لعبه النابغة في مسار حياة هذه القبيلة، وما قدمه من جهد لإثبات وجودها، وإعلاء شأنها بين القبائل، والمساعدة على حل الكثير من المشاكل التي اعترضتها من خلال علاقاتها مع القبائل الأخرى.

فنحن نعلم أن المجتمع القبلي قائم على سلطة الأقوى، وأن الضعيف لا وجود له إلا من خلال تحالفه مع غيره، من هنا نجد مدى الأهمية في التحالفات، وكيف ينظر إليها الجاهلي نظرة تقديس في أمانة العهد، وصدق المودة. فالقضية لا تتحمل المخاطر لأن الأمر يتعلق بوجود الإنسان، أو بعدم وجوده، فالأرض صحراء قاحلة، ليس فيها سوى

بعض المراعي، وقليل من الينابيع، والقبائل كثيرة، وكلها تتزاحم وتتقاتل على ما هو موجود.

من هنا نجد الصراعات القوية بين هذه القبائل، وكان في طليعة هذه الصراعات حرب داحس والغبراء التي وقعت بين ذبيان وحلفائها وعبس وحلفائها. وقد نعجب أشد العجب عندما نعلم مدى الصلة التي تربط بين ذبيان وعبس، ومع هذا وقع بينهم الخلاف ومن ثم الحرب. فقبيلة ذبيان الغطفانية القيسية، تنسب إلى بغيض بن رَيْث بن غطفان ـ منهم: فزارة ابن ذبيان بن بغيض، وفيهم الشرف؛ ومنهم حذيفة بن بدر؛ ومنهم: منظور بن زبـان بن سيار، وعمر بن هبيرة، وعدي بن أرْطأة، ومنهم مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ومنهم، هرم ابن سنان المُرّي الجواد الذي كان يمدحه زهير؛ ومنهم: زياد النابغة الشاعر.

أما قبيلة عبس فتنسب إلى عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان ـ هي إحدى جمرات العرب، منهم زهير بن جذيمة، كان سيد عبس كلها حتى قتله خالد بن جعفر الكلابي وابنه قيس بن زهير، فارس داحس، وعنترة الفوارس، والحُطيئة، وعروة بن الورد[1].

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٥١.

بعد هذا العرض لنسب قبيلتي ذبيان وعبس نلمس مدى قرب صلة الرحم بينها فهم أبناء عمومة ومع هذا أعملوا السيف كلٌ في رقاب الآخر فترة طويلة من الزمن كادت تؤدي لفناء الاثنين والسبب في ذلك يعود لأمر تافه هو التراهن على سباق جرى بين جواد يدعى داحس، وفرس تسمى الغبراء؛ فالجواد يعود لقيس بن زهير من أشراف بني عبس، والغبراء تعود لحمل بن بدر من أشراف بني فزارة، وهم فرع من ذبيان.

ولما كان العرب يعتزون بخيولهم، ويتباهون بها، لما طبعوا عليه من حب للفروسية، فقد تنافس رجلان أحدهما من عبس والآخر من فزارة حول الجوادين، أولهما يدعي الغلبة لداحس، والآخر يدعيها للغبراء، وانتقلت المنافسة إلى قيس بن زهير، وحمل بن بدر، فكان رهان بينهما، على عشرة من الإبل، تكون من حق الفائز؛ وبلغ من اعتداد كل فريق بجواده، أن ارتفع الرهان إلى مائة من الإبل.

وبدأ السباق بعد الاستعداد له، وكل من أفراد القبيلتين يلتهب حماسة. وكان حمل بن بدر صاحب الغبراء قد أعد كميناً في طريق السباق، قوامه فتيان من قومه، أوصاهم بأن يحولوا بين داحس وغايته إذا جاء في المقدمة.

وجرى السباق وتجاوز قيس بن زهير بجواده حمل بن

بدر بفرسه، وبات الفوز مرتقباً لداحس، لولا أن رده الكمين عن غايته، وتمكنت الغبراء بذلك أن تأتي في المقدمة، وأن تنال قصب السباق.

وكان من الطبيعي أن لا يقبل سيد بني عبس بالنتيجة، فغضب وقام النزاع بين القبيلتين حول صاحب الحق في نيل الرهان إلى أن غلت النفوس، وامتلأت حقداً، وبات الشر منتظراً، ولم يلبث قيس بن زهير أن قتل عوف بن بدر، فعمدت فزارة إلى الانتقام فقتلت أخا قيس مالك بن زهير، واستمر الثأر بين الحيين من غطفان فكانت حرب شديد بينهما، خاض غمارها الفرسان بسيوفهم، وقام الشعراء بدورهم فيها، فكان سجال بين شعراء كل فريق: فإذا عنترة شاعر بني عبس، وإذا النابغة شاعر بني ذبيان.

وهذه الحرب ما كانت لتقع لولا الغيرة القبلية، والرغبة في عدم الرضوخ للواقع، إذا كان ذلك الواقع يجرح الكبرياء الجاهلي؛ فقد كان من الممكن أن تربح الفرس الغبراء التي يمتلكها حمل بن بدر، أو الجواد داحس الذي يمتلكه قيس ابن زهير، فيربح أحدهما المائة من الإبل، أو يخسرها، لكن روح الخسارة، ووقعها على النفس الجاهلية مؤلم. ولهذا فضل كل من الرجلين السيدين أن يدخل قبيلته في حرب

تزهق فيها الأرواح، وتخرب البيوت من أن يقر بغلبة لا قيمة لها.

ولم تكن القبائل العربية في صراع مع بعضها تزاحماً على كلأ أو ماء، بل كانت الحاجة تدفعها للإغارة على ما حولها من البلاد طلباً للسلب، أو النهب، وأهم الدول التي كانت عرضة لذلك نتيجة قربها من البلاد العربية هي فارس وبيزنطية، ونتيجة لما كانت تلحقه تلك القبائل المغيرة على البلدان المغار عليها من خراب في الدور، أو ذعر في الأنفس، أرتأت تلك الدول أن تقيم حولها سوراً من الأجساد العربية، لتكون حامية لها، وذائدة عن حياضها، فكان أن أنشئت إمارتي اللخميين في الحيرة، والغساسنة في دمشق.

ولما كانت هذه الدول في صراع فيما بينها للسيطرة على بلاد الشرق، مدفوعة بعامل الطمع في خيرات تلك البلاد، كان من الطبيعي أن ينتقل ذلك الصراع بالعدوى إلى المناذرة والغساسنة، وأن يحاول كل فريق أن يستقطب حوله أكبر عدد ممكن من القبائل، يشد بها أزره، ويقوي عضده، مما أوجد مصلحة مشتركة بين القبائل والإمارات، فراحت القبائل بدورها تتزاحم فيما بينها لتقدم الولاء لهذه الإمارة أو لتلك.

من هنا نجد الذبيانيين يرسلون إلى الحيرة سفيراً منهم لدى البلاط، ليكون صلة الوصل بين الطرفين، فكان النابغة هو الشخصية الأجدر للقيام بمثل هذه المهمة.

اسمه ونسبه ولقبه:

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، وينتهي نسبه إلى قيس بن عيلان، ويكنى بأبي أمامة وأبي ثمامة[1] وهما ابنتاه على عادة العرب. وذكر أهل الرواية أنه إنما لقب بالنابغة لقوله:

وحلت في بني القين بن جسر
فقد (نبغت) لهم منا شؤون[2]

وقد اختلف الباحثون القدماء حول السبب الحقيقي الذي من أجله لقب بالنابغة؛ ففي حين نرى أبا الفرج الأصفهاني، وابن قتيبة يعيدون ذلك لقوله:

فقد نبغت لهم منا شؤون

(١) ذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء أن النابغة يكنى بأبي أمامة وقيل بأبي ثمامة، أما البغدادي في خزانة الأدب فيكنيه بأبي عقرب.
(٢) الأغاني ج ٩ ص ١٦٢ والشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٧.

نرى ابن قتيبة في موضع آخر يقول: ونبغ - أي الشاعر - بالشعر - بعدما احتنك وهلك قبل أن يهتر[١].

وأما البغدادي فيرى أن اللقب إنما لحقه لأنه لم ينظم الشعر حتى أصبح رجلاً، وأنه لقب كذلك، على حد قول العرب، نبغت الحمامة، إذا أرسلت صوتها في الغناء، ونبغ الماء إذا غزر، ونقول: نبغ الشاعر، والشاعر نابغة، إذا غزرت مادة شعره وكثرت[٢].

حياته:

لم يتحدث الباحثون القدماء عن النابغة الذبياني فيما يتعلق بحياته في شبابه، وبداية نشأته، وكل ما أتوا على ذكره، أنه كان من أشراف ذبيان، وأن بيته من أشرف بيوتاتهم، ولعل ما يقطع في هذا، هو مصاهرة يزيد أخو هرم بن سنان له، وهو من أشراف ذبيان، كما أن الباحثين هؤلاء، يجمعون على المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها النابغة بين قومه، فإبن قتيبة يرى «أنه كان شريفاً فغض منه الشعر»[٣] ولعل ابن قتيبة يشير في هذا إلى ما كان يحصل عليه النابغة من العطايا عند الملوك وأنه استهجن ذلك واعتبره إهانة للنابغة، وإنزالاً لقيمته المعنوية، ونحن لا نجد في كتب التاريخ الكثير من الأمثلة التي

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٧.
(٢) خزانة الأدب للبغدادي ج ١ ص ٢٨٧.
(٣) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٦٤.

لا تأخذ برأي ابن قتيبة، ونرى أن العطاء للشاعر لا يغض من شأنه والدليل على ذلك العطاء السمح الذي كان يعطيه هرم ابن سنان لزهير بن أبي سلمى حين كان يمدحه، وكان زهير يتقبل النوال، ولم يعير زهير بمثل ما عير به النابغة، وكذلك الحال بالنسبة لحسان بن ثابت الذي كان يطمع لأن ينال منزلة النابغة، فقد روى ابن قتيبة عن ابن الكلْبي قال: قال حسان بُن ثابت: رحلت إلى النعمان، فلقيت رجلاً فقال: أين تريد؟ فقلت: هذا الملك، قال: فإنك إذا جئته متروك شهراً، ثم يسأل عنك رأس الشهر، ثم أنت متروك شهراً آخر، ثم عسى أن يأذن لك، فإن أنت خلوت به وأعجبته فأنت مصيب منه، وإن رأيت أبا أمامة النابغة فاظعن، فإنه لا شيء لك قال: فقدمت عليه، ففعل بي ما قال، ثم خلوت به وأصبت منه مالاً كثيراً ونادمته، فبينما أنا معه في قُبّةٍ إذ جاء رجل يَرْجُز حول القبّة:

أنِمْتَ أمْ تَسْمَعُ رَبُّ القُبَّهْ
يا أوْهَبَ الناسِ لِعنسٍ صُلْبَهْ
ضرَّابةٍ بالمِشْفَرِ الأذِبَّهْ
ذاتِ هَبابٍ في يَدَيْها جُلْبَهْ[1]

---

(١) الهباب، بكسر الهاء. النشاط، الجلبة، بالجيم: الجلدة التي تغشى القميمة.

فقال النعمان: أبو أمامة: فاذنوا له، فدخل فحياه وشرب معه، ووردت النَّعَمُ السُّود، ولم يكن لأحد من العرب بعير أسود يعلم مكانه، ولا يفتحل أحد فحلاً أسود، فاستأذنه أن ينشده، فأنشده كلمته التي يقول فيها:

فإنك شمس والملوكُ كواكب
إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

فدفع إليه مائة ناقة من الإبل السود، فيها رعاؤها، فما حسدت أحداً حسدي النابغة، لما رأيت من جزيل عطيته، وسمعت من فضل شعره[1].

ويأخذ الدكتور طه حسين برأي الباحثين القدماء بأن النابغة كان منْ أشراف قومه وسادتهم، فيقول: «إن مكانة النابغة بين قومه كانت عظيمة، بعيدة الأثر»[2].

وأما الأستاذ فؤاد أفرام البستاني فيرى «أن النابغة كان في الوسط من قومه، لا هو في الذروة من الشرف، وأنه لا معنى لقول الرواة، انه أحد الأشراف الذين غض منهم الشعر»، فيكون البستاني في رأيه هذا مخالفاً لمن سبق واستشهدنا برأيهم.

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٦٤ - ١٦٥.
(٢) في الأدب الجاهلي طبعة دار المعارف ص ٣٠١.

ولما وقعت حرب السباق بين ذبيان وعبس وجدنا النابغة يلعب دوراً له شأنه. فنحن نعلم جيداً كم للشعر من منزلة في نفوس الناس، ومكانته في مواطن المنافرة، والخصومة، إذ من شأنه أن يكسب القبيلة من القوة ومنعة الجانب، ما لا تظفر به في قتال. من هنا رأينا النابغة الذبياني يهتم في هذه الحرب بأمور قومه، فيخوض غمارها بشعره، لا بسيفه، فيكشف لنا بذلك عن جانب حي من شاعريته، وناحية رئيسية من شخصيته، وكان كل همه أن يرجح كفة ذبيان على عبس، فاستهدف في شعره السياسي اصطناع الأحلاف لقبيلته من أحياء العرب، ومن بينها بنو أسد.

ولما كانت قبائل نجد تدين بالولاء للمناذرة منذ أن قضى هؤلاء على دولة كندة فقد كان بنو ذبيان يدخلون أيضاً بالولاء للمناذرة، فكان من الطبيعي أن يتصل النابغة بالمناذرة ليكسب قوتهم إلى جانب عشيرته.

نهاية النابغة:

عرفنا مما سبق أن النابغة استرجع مكانته عند ملك الحيرة، واستأنف مدائحه فيه. رغم جميع ما أحيط به من أقاويل حول عودته إلى النعمان. ولم تكن عودة النابغة قد أسقطت شيئاً من منزلته عند أبي قابوس، بل نجد العكس هو

الصحيح، فقد زادت منزلته، وعظم أمره، حتى بات غيره من الشعراء في بلاط الحيرة يشعرون بمعانتهم، وقلة شأنهم بعد عودة النابغة، لنستمع إلى حسان بن ثابت ماذا يقول في هذا الأمر حسب ما يرويه صاحب الأغاني: قال حسان بن ثابت عندما سمع النابغة ينشد أشعاره في مدح المنذر بعد أن عفا عنه لتوسط الفزاريين له: «فحسدته على ثلاث، لا أدري على أيتهن كنت له أشد حسداً على إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له، وإصغائه إليه؛ أم على جودة شعره، أم على مائة بعير من عصافيره أمر له بها»[1].

ولما كانت العلاقات بين المناذرة وبين الفرس بين هدوء واضطراب، فقد حدث أن ساءت العلاقة بين الطرفين في أيام النعمان بن المنذر وكسرى الثاني. وذلك لأن النعمان لم يكن سهل الانقياد للفرس، فضاق به كسرى واستدرجه إلى حاضرته بالمدائن، وألقاه في غيابة السجن، ثم قتله، ويقال إنه رمى به تحت أرجل الفيلة فمزقته إرباً سنة ٦٠٢ على ما هو راجح.

ولما قتل النعمان، لم يجد النابغة بداً من العودة إلى قومه، وقد أحيطت أخبار حياته الأخيرة ببعض الاضطراب.

---

(١) الأغاني طبعة بولاق ج ٩ ص ١٧٦.

فأبو زيد القرشي يذكر «أنه أسن جداً فترك قول الشعر، فمات وهو لا يقوله»[1]، وهناك من يقول بأن النابغة مات في السنة التي قتل فيها الملك النعمان، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني أن الشاعر هام في بلاد اليمن بعد أن خرف.

وفي كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة نص يذكر فيه سوء عيش النابغة في أخريات أيامه وحسد الناس له، وأنه مكث زماناً لا يقول الشعر، فأمر يوماً بغسل ثيابه، وعصب حاجبيه على عينيه، فلما نظر إلى الناس قال:

المَرْءُ يأمُلُ أن يعيـ
ـش، وطولُ عيشٍ قد نضُرُّهْ

تفنى بشاشتُهُ ويبـ
ـقى بَعْدَ حلو العيش مُرُّهْ

وتخونُهُ الأيام حـ
ـتى لا يرى شيئاً يَسُرُّهْ

كم شامت بي إن هلكـ
ـتُ وقائل: لله درُّهْ[2]

(١) جمهرة أشعار العرب طبعة دار بيروت ص ٦٦.
(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

الفصل الثاني

أغراضه الشعرية

قبل التحدث عن الأغراض الشعرية عند النابغة، ينبغي لنا أن نتعرف على ديوان النابغة والدراسات التي قامت حول نشره حتى توصل إلينا في حالته التي هو عليها.

ديوان النابغة:

لعل أقدم نشرة لديوان النابغة حسب ما يقول شوقي ضيف هي نشرة ديرنبورغ في المجلة الآسيوية (١٨٦٨ - ١٨٦٩)، وقد استخرجها من شرح الشنتمري للدواوين الستة، وهي دواوين امرىء القيس، والنابغة، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، وعنترة العبسي، وعلقمة بن عبدة، وقد اعتمد ديرنبورغ في نشرته لديوان النابغة الذبياني على مخطوطتين من شرح الشنتمري وجدهما في باريس، ومخطوطة ثالثة وجدها في (ڤينا) وهي بشرح البطليوسي[1] «الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب».

وهناك نسخة من رواية ابن السكيت بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية وهناك نسخة أخرى لشرح النابغة، لكن شرح الشنتمري هو أفضلها لأنه يحتفظ لنا

---

(١) العصر الجاهلي ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

برواية الأصمعي أوثق رواة الشعر الجاهلي، وفي عصرنا الحديث نجد ديوان النابغة يحقق على يدي محمد أبو الفضل ابراهيم الذي اعتمدناه في دراستنا هذه.

بعد اطلاعنا على ديوان النابغة بقي علينا أن نتعرف على أغراضه الشعرية، وحسبنا أن نبدأ بأهمها وهو المدح.

المدح عند النابغة:

تفوق النابغة في مدح الملوك ومخاطبتهم، فوفق إلى اكتساب ودهم، والحظوة عندهم، فنال أرفع جوائزهم، وكان له من قوة الشخصية، ما ساعده على تجاوز المدح إلى مصاحبة هؤلاء الملوك والجلوس إليهم والفوز بمودتهم ورعايتهم، فكان جديراً بلقب «شاعر البلاط».

وقد اتصل بنخبة من ملوك المناذرة والغساسنة، فأنشدهم روائع مديحه، وحفزته شاعريته على إطراء خصالهم والإشادة بفعالهم، وأغرى الشعراء - بما نال من عطف الملوك وعطائهم - في التسابق إلى البلاط، حتى اتهمه النقاد بالإساءة إلى الشعر العربي.

وحسبنا الآن أن نتعرف على النابغة في بلاط المناذرة لنرى منزلته عندهم، وما ناله من الحظوة والإكرام، وما تعرض إليه من كيد المكيدين وحسد الحساد، حتى تعرضت

حياته للخطر، مما جعله يعيش حياة القلق والحزن من المصير وعلى المستقبل.

أولاً - النابغة في بلاط المناذرة:

أقام الفرس دولة المناذرة في مدينة الحيرة التي أسسوها لهذه الغاية في مطلع القرن الثالث الميلادي، بالقرب من الكوفة، وكان السبب في إنشائها دفع غارات القبائل العربية عن حدودهم، وكان سكان الحيرة في بادىء الأمر من العباد، والراجح أنهم من العرب اعتنقوا النصرانية، وأدانوا بمذهبها النسطوري، ثم أناخت بها قبائل من عرب الجنوب، ومنها قضاعة ولخم والأزد، التي أُطلق عليها اسم قبائل (تنوخ) لاستقرارها في ذلك المكان بعد حياة الارتحال والتنقل، ومن نزلاء الحيرة «الأحلاف» وهم أقوام من العرب كذلك جاوروا العباد، وتحالفوا معهم على العيش.

ومن ملوك الحيرة الأوائل جذيمة الأبرش، وهو من قضاعة، وعمرو بن عدي وهو من بني لخم، وابنه من بعده امرؤ القيس بن عمرو.

ثانياً - النابغة في بلاط الحيرة:

يكاد يجمع الرواة على أن أول اتصال للنابغة ببلاط الحيرة، كان زمن المنذر الثالث ابن امرىء القيس الثالث،

الملقب بابن ماء السماء الذي ملك الحيرة ما بين ٥٠٥ و٥٥٤م وقد خلع عن العرش، ثم أعيد إليه؛ خلعه ملك الفرس قباذ حين رفض اعتناق ديانة المزدكية التي فرضها قباذ، ولكنه عاد إلى العرش، بعد أن تولى حكم فارس كسرى أنو شروان الذي قتل (مزدك) ونكل بأتباعه.

ومن يقرأ ديوان النابغة يجده خالياً من مدح هـذا الملك، مع أن أيامه كانت حافلة بأحداث كبار تدل على شجاعته وعظمة جيشه، إذ تمكن من اجتياح بلاد الروم حتى حدود انطاكية، وكانت بينه وبين الحارث بن جبلة الغساني مواقع عديدة، منها يوم (حليمة) أو معركة قنسرين الواقعة في جهات حلب، وهي المعركة المشهورة في المثل العربي «وما يوم حليمة بسرٍّ». وفيها قتل المنذر الثالث[١].

وحين ولي عمرو بن هند الملك بعد المنذر الثالث، مدحه النابغة بقصيدة ميمية، هنأه فيها بارتقاء العرش. وقد أثبتها الشراح في ديوانه.

وبانتقال الملك إلى النعمان الثالث نجد النابغة يعود إلى بلاط الحيرة.

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ١ ص ١٩٤.

والنعمان الثالث يعتبر من أبرز الشخصيات التي عرفها عرش الحيرة، وأكثرهم عناية بهيبة الملك، والاهتمام بشؤون البلاط. وقد استمر حكمه لعرش الحيرة نحواً من ربع قرن ابتداءً من سنة ٥٨٠ إلى موته سنة ٦٠٢ للميلاد، كان خلالها عظيم العناية بالشعر، شديد العطف على الشعراء، يتذوق مديحهم، ويجزل العطاء عليهم، ومن الشعراء الذين أموا قصره، حسان بن ثابت، ولبيد بن ربيعة، والربيع بن زياد، والأعشى، وعلى رأسهم جميعاً النابغة الذبياني، الذي انقطع عليه أمداً من الزمن، وبات شديد الصلة به، يمنحه صداقته ووده، لولا أن شوّه الوشاة سمعته عنده، كما هو مشهور.

والسؤال الذي يتراود في الذهن هو؟ كيف اتصل النابغة بالنعمان، وما هي المناسبة التي حصل فيها ذلك الاتصال.

وذكر عدة من الإخباريين أن النابغة استأذن على النعمان يوماً، فقال له الحاجب: إن الملك على شرابه، قال النابغة: فهو وقت المَلَقِ تقبله الأفئدة، وهو جَذِل للرحيق والسماع، فإن تلج تلق المجد عن غرر مواهبه، فأنت قسيم ما أفدت؛ قال له الحاجب: ما تفي عنايتي بدون شكرك، فكيف أرغب فيما وصفت ودون ما طلبت رهبة التعدي؟ فهل من سبب؟ قال النابغة: ومن عنده؟ قال الحاجب: خالد بن

جعفر الكلابي. نديمه. فقال النابغة: هل لك إلى أن تؤدي إلى خالد عني ما أقول لك؟ قال: وما هو؟ قال: تقول إن من قدرك وفاء الدرك بك وناحيتي من الشكر ما قد علمت، فلما صار خالد إلى بعض ما تبعثه موارد الشراب عليه نهض، فاعترضه الحاجب، فقال: ليهنك أبا البسام حادث النعيم، قال: وما ذاك؟ فأخبره الخبر، وكان خالد رقيقاً، يأتي الأشياء بلطف وحسن بصيرة، فدخل مبتسماً، وهو يقول:

الا لـمثـلك أو مـن أنـت سـابـقـه
سَبْقَ الجـواد إذا استـولى على الأمـدِ

والـلات لكأني أنظر إلى أملاك ذي رُعَيْـن، وقد مدت لهم قضبان المجد إلى معالم أحسابكم، ومناقب أنسابكم، في حَلْبة أنت ـ أبيت اللعن ـ غُرَّتها فجئت سابقاً متمهلاً، وجاءوا لم يلم لهم سعي، قال النعمان: لأنت في وصفك أبلغ إحساناً من النابغة في نظام قافيته. فقال خالد: ما أبلغ فيك حسناً، إلا وهو دون قدرك استحقاقاً للشرف الباهر، ولو كان النابغة حاضراً لقال وقلنا، فأمر النعمان بإدخاله، فخرج إليه الحاجب، فقال النابغة: ما وراءك فقال: قد أذن بفتح الباب، ورفع الحجاب، أدخل، فدخل ثم انتصب بين يديه، وحياه بتحية الملك، وقال: أبيت اللعن؛ تفاخر وأنت سائس

العرب، وغرة الحسب، واللات لأمُسك أيمن من يومه، ولقفاك أحسن من وجهه، وليسارك أسمح من يمينه، ولَوَعْدُك أصلح من رِفدِه، ولعبيدك أكثر من قومه، ولأسمك أشهر من قدره ولنفسك أكبر من جده، وليومك أشرف من دهره، ثم قال:

أخـلاق مجـدك جلت مـا لـهـا خطـر
في الجـود والبـأس بين العلم والخبـر
مُتَـوَّج بـالـمـعـالي فـوقَ مَـفْـرِقِـهِ
وفي الـوغي ضيْغَمٌ في صـورة القمـر

فتهلل وجه النعمان بـالسرور، ثم أمـر فحشي فوه جوهراً، ثم قال: بمثل هذا فلتمدح الملوك[1].

ومن أخبار النابغة مع النعمان ما رواه ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد فقال:

دخل حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر قال: فلقيت رجلاً ببعض الطريق، فقال لي: أين تريد؟ قلت: هذا الملك؛ قال: فإنك إذا جئته متروك شهراً، ثم تترك شهراً آخر، ثم عسى أن يأذن لك، فإن أنت خلوت به وأعجبته فأنت

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٠٠.

مصيب منه خيراً، وإن رأيت أبا أمامة النابغة فاظعن، فإنه لا شيء لك. قال: فَقَدِمْت عليه ففعل بي ما قال. ثم خلوت به وأصبت مالاً كثيراً ونادمته. فبينما أنا معه إذا رجل يرتجز حول القُبَّة ويقول:[1]

أنــام أم يَــسْــمــع ربُّ الــقــبَّــة
يــا أوْهــب الــنــاس لــعُــنْــس صُــلْــبَــهْ[2]
ضَــرَّابــةٍ بــالــمِــشْــفــرِ الأذِبــه
ذات نــجــاء فــي يــديــهــا جَــذْبــه[3]

فقال النعمان: أبو أمامة! اِئذنوا له. فدخل فحياه وشرب معه، ووردت النِّعم السود؛ ولم يكن لأحد من العرب بعير أسودُ غيره، ولا يفتحل أحد فحلاً أسود، فاستأذنه النابغة في الانشاد فأذن له، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

فــإنــك شــمــس والــمــلــوك كــواكــب
إذا طــلــعْــتْ لــم يِــبْــدُ مــنــهــن كــوكــب

---

(١) كذا في الشعر والشعراء ج ١ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ والعقد الفريد ج ٢ ص ٢٢.

(٢) العنس (بالضم) جمع عنس (بالفتح) وهي الناقة القوية شبهت بالصخرة لصلابتها.

(٣) المشفر: من البعير بمنزلة الشفة للإنسان. والأذبة: الذبان.

(٤) النجاء: السرعة في السير. والخلبة: الحلقة أو الحبل من الليف.

فأمر له بمائة ناقة من الإبل السُّود برعاتها. فما حسدتُ أحداً قط حسدي له في شعره وجزيل عطائه.

لم تكن هذه الإبل هي وحدها عطايا النعمان بن المنذر للنابغة، فقد كان يعطيه القطيع من الخيل، غير الجواري المنعمات، من هنا نجد أن النابغة بات شاعر النعمان المفضل في حين كان بلاطه يموج بالشعراء من أمثال أوس ابن حجر التميمي، والمثقب العبدي، ولبيد العامري، وحسان بن ثابت. ولكن أحداً منهم لم يُكرَّم إكرام النابغة.

وطالما ابتدأنا أغراض النابغة الشعرية بالمدح، فحسبنا أن نختار بعض القصائد المدحية لنبين مقدرة النابغة في هذا المجال، مما جعله يستحق ما ناله من التعظيم والإكرام.

ذكر للنابغة أن النعمان عليل، فانتهز الفرصة ليتحدث عن صفاته ومآثره فيقول:

كتمتُك ليلاً بالجَمُومَيْنِ ساهراً
وَهَمَّيْنِ همّاً مُستكناً وظاهرا
أحاديث نفسي تشتكي ما يُريبُها
ووِرْدَ هُمُومٍ لم يجدْن مصادِرا
تكلفني أن يَفْعَلَ الدَّهرُ همَّها
وهل وجَدَت قبلي على الدهر قادِرا

فالشاعر أجاد أحسن الإجادة في مطلع قصيدته، حيث راح يصف نفسه مما يعانيه من الألم بعد أن سمع نبأ مرض النعمان، فإذا هو ساهر الليل يترقب الأخبار، ويسائل صاحبه ويظهر خوفه على النعمان، والهم الذي ينتاب الشاعر همان: هم يبوح به ويظهر خوفه على النعمان، وخوف يستره ولا يقدر أن يبوح به وهو خوفه على نفسه.

والشاعر في البيت الثاني يحادث نفسه، ويسائلها عما تشتكي منه من هموم وردت عليه ولا يجد لها مصدراً وفي البيت الثالث يتعجب من نفسه التي تطلب منه أن يغفل الدهر عينه عنه، ويسألها هل هناك من الناس قد سبقه وأغفل الدهر عينه عنه.

ويقول:

ألم تر خير الناس أصبح نَعشُهُ
على فتية قد جاوز الحيَّ سائرا
ونحن لديه نسأل الله خلدَهُ
يَرُدُّ لنا ملكاً وللأرض عامرا
ونحن نُرَجِّي الخُلْدَ إن فاز قِدْحُنَا
ونرهبُ قِدْحَ الموت إن جاء قامِرا

لـك الخـيرُ إن وارثْ بـك الأرض واحـدا
وأصـبـح جَـدُّ النـاس يـظلعُ عـاثِـرا
وردت مـطايـا الـراغـبـيـن وعُـزِّيـت
جيـادُك لا يُحْفي لهـا الـدَّهْـرُ حـافـرا
رأيتـك تـرعـاني بـعَيْـن بـصـيـرةٍ
وتـبـعـثُ حُـراسـاً عـليَّ ونـاظـرا

في البيت الرابع يصف النابغة حالة النعمان الصحية السيئة، مما استدعى من محبيه ورعيته أن يطوفوا به على الناس ليدعوا له بالشفاء، ولما كان النابغة غير حاضر مع هؤلاء، فقد راح بدوره يدعو الله لا أن يشفى النعمـان فحسب، بل طلب منه أن يخلده أيضاً، في البيت الخامس يشير النابغة إلى عادة جاهلية هي قضية الرهان بالقداح، والمتراهنين اثنان هما الموت ومحبـو النعمان. والنابغة يتمنى ويرجو أن يفوز رهانه بشفاء النعمان وزوال خطر الموت عنه هذا في البيت السادس أما في البيت السابع فيبين مدى الخطورة التي ستصيب الناس لـو توفي النعمـان، وكيف سيكون مصير الأرض الاختلال كما اختلت بموت جده، وفي البيت الثامن يبين الشاعر أيضاً كيف سيصاب المحتاجون بخيبة الأمل بالعطاء، إذا مات النعمان، وكيف تغدو الجياد عارية بعد إنزال السروج عنها حزناً على صاحبها، لأنها

ستصبح عديمة الفائدة، فهي لن تغدو بعد اليوم لغزو أو حرب يقودها النعمان.

وفي البيت التاسع يظهر خوف النابغة على نفسه، فالنعمان يحوطه بالرعاية بعين بصيرة ويبعد عنه أعين الحاسدين ومراقبتهم له.

ولعل هذا البيت هو من الأبيات الشعرية التي جعلت النقاد يتهمون النابغة بالإساءة إلى الشعر العربي لاعتماده على التكسب.

ففي الوقت الذي يثير فيه النابغة إعجابنا بمطلع القصيدة التي يصور فيها حالته النفسية بعد سماعه بمرض النعمان، نراه في البيت التاسع يضعف أمام أعيننا لأننا اكتشفنا أن خوف النابغة على النعمان نابع من خوفه على نفسه، وما سيؤول إليه أمره بعد موت النعمان، لا خوفاً على النعمان ذاته.

ولنرى كيف يسيطر عليه الخوف من الدساسين عليه لدى النعمان، وكيف هو قلق على النعمة التي أحظاه بها النعمان، فاستبدل فقره بغنى فيقول:

وذلك من قول أتاكَ أقولُه
ومن دَسِّ أعدائي إليك المآبرا[1]

(١) المآبر: واحدها مئبرة، ويقال رجل ذو مئبرة: أي نميمة.

فــآليت لا آتيــك إن جئتُ مُـجْـرِمـاً
ولا أبــتــغــي جــاراً ســواك مــجــاورا
فــأهــلي فــداء لامــرىء إن أتــيــتــه
تَقَبَّــلَ مــعــروفي وسَــدَّ الــمفــاقــرا [1]
ســأكعــم كــلبي أن يــريبَــك نبــحُــه
وإن كنت أرعى مُسْحَــلان فحــامــرا [2]
وحــلت بيــوتي في يــفــاع مَــمْــنَــع
تــخــال بــه راعي الــحــمــولــة طــائــرا

فالشاعر في البيت الأول يشير إلى النميمة وأصحابها، أولئك الذين يسعون بها بين الناس ليفرقوا بينهم، والشاعر يعرف المستوى الذي يتمتع به النعمان من الحكمة ورجحان العقل، ولهذا يجعله الحكم بينه وبين خصومه النمامين، لا بينه وبين النعمان، فهو يعلم أن النعمان راضٍ عليه رغم كل ما يقال عنه من إساءة إليه، أليس هو الذي ينعم عليه بجزيل العطاء، حتى جعله منعَماً هو وأسرته، بعد أن كان يشكو الإملاق والبؤس، والنابغة رغم كونه في منأىً عن النعمان، بحيث أنه لا يستطيع أن يصل إليه، ومع هذا فهو مستعد لأن يأتي إليه ويتحقق بنفسه من براءته.

(١) المفاقر: من الفقر. والواحد مفقر على القياس.
(٢) سأكعم كلبي: أي سأكف لساني.

بعد هذه الحالة الاستعراضية من قبل النابغة، والتي في رأيي نجح أيما نجاح في الدفاع عن نفسه، إذ كيف يمكن أن يسيء امرؤ إلى من يحسن إليه، ويضعه عنده المنزلة الرفيعة. فهذا أمر مشكوك في صحته أللهم إلا إذا كان هناك من يكذب ويزعم بأن النابغة يسيء إلى النعمان بعد هذا نجد النابغة ينتقل نقلة جيدة أخرى عندما يصور شوقه إلى النعمان، وأنه لا يستطيع على فراقه صبراً، ثم وصفه لشجاعة النعمان ضدَّ أعدائه، وبره للناس يقول:

الكني إلى النعمان حيث لقيته
فأهدى له اللهُ الغيوث البواكِرَا[1]

وصبحه فلج ولا زالَ كَعْبُهُ
على كل من عادى من الناس ظاهرا[2]

وربَّ عليه اللهُ أحسن صُنْعِهِ
وكان له على البرية ناصرا[3]

---

(١) الكني: مشتق من الألوك والمالكة، وهي الرسالة. وأصله: الئكني، فخففت الهمزة، وغلبت حركتها على اللام، واصل الكني: آلكني، فقلبت الهمزة من فاء الفعل إلى عينه. ثم خففت بعد القلب، واصل الكني: الِكْ عني: فحذف حرف الجر ووصل إلى الفعل.

(٢) الفلج: الظفر والغلبة على العدو. كعبه: ذكره وشرفه.

(٣) ورب عليه الله: أي أتم وأصلح.

فـألـفـيـتُـه يـومـاً يبيـرُ عـدوَّهُ
وبـحـر عـطاء يستخف المعـابـرا[1]

فالشاعر يبعث هنا بشوقه إلى النعمان مع كل شخص ذاهب إليه، كما يبعث إليه تعالى الأمطار البواكر لتنزل على أرضه فتنعشها بالخير والعطاء، وهنا تشابه بليغ بين رسالة النابغة وبين الغيوم، فكلاهما خير على النعمان؛ أما الأول فهي تكشف ما به من فضائل تميزه عن غيره، فترفع من شأنه بين أعين الناس، وأما الثانية، فإنها تكون مصدراً اقتصادياً تدعم قوة الملك مادياً، بعد أن دعمته رسالة النابغة معنوياً.

وهذا الملك النعمان قادر على غلبة أعدائه، والظفر بهم في جميع المواقع التي يخوضها ولعل النابغة هنا أيضاً يربط بين قدرته على هزيمة النمامين والكارهين له أمام النعمان، وبين قدرة النعمان على قهر أعدائه وإذلالهم.

والنابغة في البيت الثالث يشير صراحة إلى النعمان بأن يكمل عليه معروفه، وحسن صنيعه وأن لا يسمع كلام الناس عنه، فهذا البحر المعطاء في مكارم الأخلاق، وفي البذل والعطاء.

---

(١) يُبير عدوه: أي يهلكه. والمعابر: السفن التي يعبر فيها.

ولننظر إلى النابغة مرة أخرى وفي نفس المناسبة أعني بها مرض النعمان، لنرى صورة أوضح من الصورة الأولى كيف يبدو فيها الشاعر مذهولاً من مرض النعمان، ومشغولاً بنفسه وبأسرته كيف سيؤول إليها المصير لو حدث أن مات النعمان:

أَلَمْ أُقْسِمْ عليكَ لَتُخْبِرُنّي
أمحمول على النعش الهُمامُ[١]

فإني لا أُلامُ على دخولٍ
ولكن ما وراءَك يا عصامُ[٢]

فإن يَهْلِكْ أبو قابوسَ يَهْلِكْ
ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ[٣]

ونُمْسِكُ بعده بذناب عِيشٍ
أجبَّ الظَهرِ ليس له سنامُ[٤]

---

(١) الهمامُ: السيد الشريف.

(٢) لا ألام على دخول: يشير إلى أنه محجوب عليه الدخول. وقوله: ما وراءك يا عصام: يريد أخبرني بكنه أمره وحقيقته.

(٣) أبو قابوس: كنية النعمان. وقوله: يهلك ربيع الناس. أي يهلك بهلاكه وقوله الشهر الحرام. أي الشهر الذي يؤمن به من كل خوف، ويستجار به.

(٤) نمسك بعده بذناب عيش: أي نبقى في شدة وسوء حال نتمسك بطرف عيش قليل الخير: أجبّ الظهر: أي لا سنام له.

فالنابغة يخاطب هنا حاجب النعمان عصام بن شهبرة الجرمي، فيقسم عليه أن يخبره عن الحالة التي آلت إليها صحة النعمان، فإذا كان هو غير قادر على التحقق من ذلك شخصياً، لأنه حرم عليه الدخول إلى قصر النعمان، فهو يلتمس ذلك من الحاجب. والسؤال الموجه من النابغة إلى عصام الحاجب هو: هل النعمان حيّاً يرتجى منه، أم ميتاً فيتآسى عليه، ويحزن لأجله؟ ثم يبين في البيت الثاني السبب الذي من أجله سأل عصاماً هذا السؤال، فهو لا يقدر على الدخول إلى النعمان، وهو بالتالي لا يلام على ذلك، بل اللوم يقع على أولئك الذين حرموه هذا اللقاء.

وفي البيت الثالث يصرح الشاعر علانية عن السبب الذي من أجله هو جزع على النعمان فأبو قابوس إذا هلك، فقد هلك معه العطاء والفضل لا على الشعر فحسب بل على جميع الناس، ثم يبين النابغة بشيء من اللباقة أن الجزع ليس على العطاء والفضل فحسب، بل على ما سيؤول إليه أمر الناس بعد موت النعمان من التقاتل والبغي بعضهم على بعض.

فالنعمان هو الشخصية القوية التي تقف حائلاً دون ذلك، وقد اختار النابغة الشهر الحرام ليشبه به النعمان فأحسن التشبيه، لأن الشهر الحرام هو الشهر المحترم عند جميع

القبائل، والذي فيه يسود الأمن والاطمئنان بين الناس، فلا يعود أحد يخاف على نفسه فيه، ولهذا يحبه جميع الناس، ويتمنون لو يطول هذا الشهر ليطول معه الأمن، هكذا هي الحال بالنسبة إلى النعمان فجميع الناس تتمنى له الشفاء حرصاً على حياتهم، وعلى معيشتهم.

وأخيراً يبين النابغة بصورة تدعو إلى الحزن والألم حالته وحالة غيره من المتكسبين من النعمان بعد موته، فإذا هم بمنزلة البعير المهزول الذي ذهب سنامه وانقطع لسوء حالة عيشه.

وقد أثار هذا الموقف من قبل النابغة تجاه مرض النعمان وخوفه على عيشه ابن السكيت[1] فزاد على قصيدته هذين

(١) ابن السكيت (١٨٦ ـ ٢٤٤هـ ـ ٨٠٢ ـ ٨٥٨) يعقوب بن إسحاق أبو يونس: إمام في اللغة والأدب. أصله من خوزستان تعلم ببغداد، واتصل بالمتوكل العباسي، فعهد إليه بتأديب أولاده، وجعله في عداد ندمائه، ثم قتله، لسبب مجهول، قيل: سأله عن ابنيه المعتز والمؤيد: أهما أحب إليه أم الحسن والحسين؟ فقال ابن السكيت: والله إن قنبراً خادم علي خير منك ومن ابنيك! فأمر الأتراك فداسوا بطنه، أو سلوا لسانه، وحمل إلى داره فمات ببغداد من كتبه: إصلاح المنطق، والألفاظ والأضداد وشرح مجموعة من الدواوين لمجموعة الشعراء كعروة بن الورد، وقيس بن الخطيم، والأخطل وأبي نواس والأعشى وزهير وغيرهم (ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٠٩ والفهرست لابن النديم ص ٧٢ ـ ٧٣).

البيتين يبين فيهما ضعف شخصية النابغة وقلة إيمانه بربه الذي يناط به عيش العباد ورزقهم لا بعبد من عباده كالنعمان أو غيره فيقول ابن السكيت:

ولست بخابىء لَغدٍ طعاماً
حذارِ غَدٍ، لكل غدٍ طعامُ
تمخضت المنون له بيومٍ
أتى، ولكل حاملةٍ تمامُ[1]

وقال يمدح النعمان بن المنذر أيضاً:

أمن ظلامة الدِّمَنُ البوالي
بِمُرفَضِّ الحُبَيِّ إلى وُعالِ[2]
فأمواهِ الدنا فعُوَيرِضاتٍ
دوارِسَ بعد أحياءٍ حِلالِ[3]
تأبَّدَ لا ترى إلا صُواراً
بمَرْقُومٍ عليه العهْدُ خالِ[4]

(١) الحاملة: الحُبلى. انظر ديوان النابغة تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم هامش ص ١٠٦.
(٢) الحبي ووعال: موضعان، ومرفض الحبي. حيث انقطع وتفرق واتسع.
(٣) الدّنا فُعُوَيْرِضَاتٍ: هما موضعان، والحلال: الجماعات.
(٤) تأبد: توحش. والأوابد الوحش. والصوار: قطيع البقر. وقوله بمرقوم: يعني برسم.

تـعــاورهــا الــسّــواري والــغــوادي
ومــا تــذري الــرِّيــاحُ مــن الــرِّمــالِ

يبدأ الشعر مدحه للنعمان بالحديث عن الصحراء وما فيها من الدِّمن البوالي شأنه في ذلك شأن جميع الشعراء الجاهليين، فالصحراء هي المقدمة لكل قصيدة من قصائدهم، إنها الموطن والمسكن، وملاعب الطفولة، فالحنين إليها دائماً موجود في القلوب، وعلى الألسنة، فهي إذاً مقدمة على أي شيء آخر، سواء أكان ملكاً، أم أميراً أم غير ذلك.

حديث الشعر إذاً موجه هنا إلى الصحراء لاستنطاقها، والتكلم معها، وسؤالها عما جرى لها، حتى غدت قفراً، خالية من السكان الذين كانوا بالأمس يملأون الدنيا صراخاً وضجيجاً. وها هم الآن لم يبق ما يدل عليهم سوى بعض آثارهم الدارسة. وهذه الأماكن أصبحت موحشة بعد أن كانت مؤنسة، كما أصبحت مرتعاً للحيوانات كقطعان الأبقار وغيرها تسرح بها، بعد أن كانت مسرحاً للفتيات الحسناوات، والشباب القوي، حتى الطبيعة راحت تعمل على زوال الآثار حتى لا يبقى منها شيء، فتعاقبت عليها أمطار الليل والنهار، فمحت آثارها، وغيرت رسومها.

ويستمر النابغة في وصف الصحراء فيقول:

أثيث نَبْتُه جَعْدٌ ثَراهُ
به عُوذُ المطافِلِ والمتالي[1]

يُكَشِّفْنَ الألاء مُزَيناتٍ
بغابَ رُدَيْنَةَ السُّحْمِ الطُّوالِ[2]

كأنَّ كشوحَهُنَّ مبطناتٍ
إلى فوق الكِعابِ بُرُودُ خالِ[3]

فلما أن رأيتُ الدار قِفراً
وخالَفَ بالُ أهلِ الدارِ بالي[4]

نهضتُ إلى عُذافِرة صموت
مذكَّرَةٍ تجلُّ عن الكلال[5]

يقول مستطرداً الحديث عن المطافل والمتالي، انها تكشف عن الخصب الذي أصابها نتيجة لتساقط الأمطار، وما

---

(١) العوذ: الحديثات النتاج. والمطافل: التي معها أولادها. والمتالي: التي نتج بعضها.

(٢) الألاء: شجر. الغابة: الأجمة. ردينية: نسبة إلى قرية أو امرأة. السحم: السُّود.

(٣) الكشح: ما بين الخاصرة والسرة. والخال: ضرب من ثياب الوشي.

(٤) وخالف بال أهل الدار بالي: أي اختلف حالي وحالهم.

(٥) العذافرة: الناقة الشديدة. والصموت: التي لا ترغو.

ينتج عنه من المراعي، فراحت تكشف الشجر بقرونها، إما بتساقط ورقها، وإما تتبعاً لثمرها. وهذه الأبقار الوحشية وغيرها من الحيوانات لها قرون أشبه ما تكون بالرماح لطولها، وخص منها الرماح الردينية، وهي سوداء اللون، مع بطون بيضاء، فهي أشبه ما تكون بثياب الوشي.

ولما رأى الشاعر أن تلك المنازل في الصحراء، قد أصبحت على ما هي عليه من التوحش، والخلو من الأهل والأصحاب، وأنه لا أمل يرتجى منها، لم يجد بداً من أن يركب راحلته التي تشبه الذكر في خلقها، لقوتها، وقدرتها على تحمل التعب والجوع والعطش، ويتوجه إلى من يجد عنده الإكرام والاحترام إلى النعمان بن المنذر.

فداءٌ لامْرىءٍ سارتْ إليه
بعذْرةِ ربِّها عمِّي وخالي[1]

ومن يغْرِف من النعمان سَجْلاً
فليس كمن يُتيَّهُ في الضَّلالِ[2]

فإن كنت امْرَأً قد سؤت ظناً
بعبدِكَ والخطوب إلى تبالِ

---

(١) فداء لامرىء: يعني النعمان والعذرة: المعذرة.

(٢) السَّجل: الدلو المملوءة.

فـأرْسِـلْ فـي بـنـي ذبـيـان فـاسْـأل
ولا تَـعْـجَـل إلـيَّ عـن الـسُّـؤالِ
فـلا عَـمْـرُ الـذي أثـنـي عـلـيـه
ومـا رَفَـعَ الـحـجـيـج إلـى إلالِ[1]
لَـمـا أغفـلتُ شـكْـرَكَ فـانـتـصـحْـنـي
وكـيـف ومِـنْ عـطـائـك جُـلُّ مـالـي
ولـو كـفـيٌّ الـيـمـينُ بَـغَـتْـكَ خَـوْنـاً
لأفـردت الـيـمـيـن مـن الـشـمـالِ
ولـكـن لا تُـخـانُ الـدَّهْـرَ عـنـدي
وعـنـد الله تـجـزيَـةُ الـرجـالِ

والشاعر يطلب الفداء بنفسه عن النعمان، الذي هو بمنزلة العم والخال، وكيف لا يفديه وهو منبع العطايا، ومصدر الرزق، فمن أعطاه النعمان عطية يكون قد حظي وفاز، وليس كمن ضلَّ في طلبه، وتحير في مقصده، فتاه عن محجته.

وإذا كـان الشاعـر قد ابتلي ببعض النـاس الـذين يحاولون الايقاع بينه وبين النعمان، فإن النابغة يطلب من الملك أن يختبر ما بلغه عنه، ليعلم الحق من الباطل.

---

(١) الحجيج: الإبل، والإلال: جبل عن يمين الإمام بعرفة.

وإذا كان النعمان قد أساء الظن بالنابغة، فليرسل إلى بني ذبيان من يتحقق من الأمر ويقف على الحقيقة، وأن لا يتعجل نحوه بالموجدة والسخط، قبل أن يسأل ويختبر.

ثم يقسم الشاعر بالله عز وجل، وبالإبل التي تحمل الناس إلى الحج، ويجبل الال بأن ما قيل عنه ليس إلا افتراء وكذباً.

ويسأل النابغة النعمان أنه إذا كان قد أغفل عن شكره، فليلفت نظره إلى ذلك؛ وكيف يصدر ذلك منه، وهو الذي جميع ما يتنعم به من عطايا هي من النعمان، وإذا ما حدث ذلك منه، أي الخيانة والبغي، فإنه سيقطع يمينه ويفردها عن الشمال ولكن هذا الأمر لم يحدث، وإذا كان هناك من جزاء له على عمله فليكن ذلك من الله تعالى.

وينتقل الشاعر بعد هذه المعاتبة للنعمان إلى مدحه وذكر صفاته:

لـه بَـحْـرٌ يُـقَـمِّصُ بـالـعَـدُولـي
وبـالـخُـلْـجَ الـمُـحَـمَّـلَةِ الـثِّـقـالِ[١]

مُـضِـرٌّ بـالـقـصـور يـذود عـنـهـا
قـراقـيـر الـنـبـيط إلـى الـتـلالِ[٢]

---

(١) العدولي: سفن كبار. والخُلُج: سفن دون العدولية. والخلج. السرعة.

(٢) القراقير: السفن. التلال: واحدها تل. وهو الجبل والرمل المشرف.

وَهُـوبٌ للمُخيَّسَـةِ الـنَّـواجـي
عـليـهـا الـقـانِئـاتُ مـن الـرِّمـالِ[1]

فالنعمان بحر في عطائه، لا تنوء أمواجه تحت السفن العظيمة المثقلة، بل تحملها بهوادة ويسر، هكذا النعمان لا يتقاعس عن البذل مهما كان عظيماً، بل يتحمل ما يطلب منه بروح كلها اندفاع وشجاعة، وهذا البحر الذي هو النعمان لاصق بالقصور أما السفن والتي هي عطايا النعمان تنحي تلك القصور نحو التلال.

وإذا أعطى النعمان فإنه لا يعطي إلا الإبل المذللة، القوية الشديدة السرعة، ذات اللون الأحمر، أو المجللة بالإدام الأحمر.

ومن مدحه للنعمان قوله:

لله عـيْـنـا مـن رأى أهـل قُـبَّـةٍ
أضَـرَّ لِـمَـنْ عـادى وأكـثـر نـافِـعـا

وأعـظمَ أحـلامـاً وأكـثـر سـيِّـداً
وأفـضـلَ مشـفـوعـاً إلـيـه وشـافـعـا

غـداة غَـدوْا مـنـهـمْ ملوكٌ وسـوقـةٌ
يُـوصـون بـالأفـضـالِ أبيض بـارعـا

(١) المخيسة: الإبل المذللة. والنواجي: المسرعة. والقانئات: الشديدة الحمرة.

متى تَلْقَهُمْ لا تَلْقَ للبيت عَوْرةً
ولا الضَّيف ممنوعاً ولا الجارَ ضائعا
بحَمدِ ابن سَلْمى إذْ شأتني منيَّتي
ليالي رجيْتُ الفضول النوافعا[1]

فالنابغة يتساءل، هل رأت العين رجلاً غير النعمان يكون شديد الضرر لمن يحاول أن يضره، وكثير النفع لمن يسأله. وأعظم حلماً منه، فهو السيد ذو الفضل على الناس مشفوعاً إليه أو شافعاً عنه، فهو من سلالة الملوك الذين شهد لهم الناس بالفضل والشجاعة فإذا لقيتهم فإنك تجد منتهى اليسر في الوصول إليهم، فهناك الضيف يؤهل له ويكرم، ومن استجار بهم لا يضيع وعند هؤلاء يجد النابغة أمله ومبتغاه من الفضل والعطاء.

وقال النابغة وقد وفد إلى النعمان وفد من العرب، فيهم رجل من بني عبس يقال له شقيق فمات عند النعمان، فلما حبا الوفد وأعطاهم بعث إلى أهل شقيق بمثل حبائه الوفد[2].

(1) الديوان ص ١٦٤.
(2) أخذت هذه المقدمة من شرح الأصمعي لديوان النابغة.

أبقَّيت في العَبْسيِّ فضلاً ونِعْمَةً
ومَحْمَدَةً من باقيات المحامِدِ
حِباء شقيقٍ عند أحجار قبره
وما كان يحبي قبله قبْرٌ وافدِ
أتى أهلهُ منه حِباءٌ ونعمَةٌ
وربِ امرىءٍ يسعى لآخر قاعدِ[1]

أرأيت كيف ينتهز النابغة كل فرصة متاحة ليمدح فيها النعمان، حتى ولو كان الأمر لا يتعلق به شخصياً كحادثة العبسي هذا، وقد أثار هنا مشكلة إنسانية، حرص على أن يكون النعمان بطلها، ليصور لنا النزعة الإنسانية في نفسه تجاه الفقراء والمعوزين، فقد أدرك النعمان، أن هذا الشخص الذي حملته منيته إلى قصره، باتت أسرته أمانة في عنقه لأن رب هذه الأسرة محب إليه، ولو لم يكن محباً لما قصده. فهو، أي النعمان، الشخص الذي استحق أن يطلق عليه المثل الحكيم: ولرب امرىء يسعى لآخر قاعد.

ولم يكن النعمان هو وحده الذي مدحه النابغة، فهاهوذا يمدح عيينة بن حصن بن بدر فيقول فيه:

(١) الديوان ص ٥٢.

فـدى لابـن بَـدْرٍ نـاقتـي ونُسـوعُـهـا
وقـلْتُ لـه، لا بـلْ فـداء لـه أهـلي
شـفـى وَتَـغـلّى مـن وراء شـفـائـهـا
صـدور رجـالٍ مـن حـرارتهـا تـغـلي
سمـا بـالجبـال الجـرد لا متخـاذلاً
ولا داهنـاً جلْدَ القـوي مـرِس الحبْـلِ
فـلمـا استـهلتْ بـالنّـارِ سـحـابـةٌ
تُشَبِّهُهـا رجْـلَ الجـرادِ من النّبْـلِ [1]
أبَـوْا أنْ يُـقـيـمـوا لـلرِّمـاح وخَـشَـتْ
شفـارٍ، وأعـطوا مُنْية كـل ذي ذُهْـلِ [2]
ومـا غَنِمـوا يـوْمَ الجَفـار ومـا ونَـتْ
فـوارسُنـا إذْ أبْصَـروا عـوْرَةُ الـرَّحْـلِ [3]

الشاعر يفدي ابن بدر بناقته ورباطها، ولما وجد أن ذلك مهين بكرامة ابن بدر استدرك ذلك وقال: بل أفديه بنفسي وأهلي، وهنا يكون الفداء بمستوى المُفْدى. وقلوب

---

(١) استهلت: مطرت. يقال رجل جراد وخرقة جراد وخرقة من جراد للقطعة منه.

(٢) وخشت: يريد هربوا، يقال: وخش رداءه؛ إذا ألقاه، ووخش الرجل: إذا هرب.

(٣) يوم الجفار: وقعة من الوقائع. وعَوْرَة: فُرْجَة.

الناس تكون في غليان من حرارة الشوق إليه، فلما تصل إليه تبرد حرارة الغليان، وتهدأ الصدور.

هذا الممدوح يستحق هذا الثناء لأنه بطل من الأبطال، فهو الذي يقود الفرسان على ظهور الجياد الجرد بهمة ونشاط، لا يهن أمام قوة الأعداء.

ويجيد الشاعر التشبيه عندما يشبه نبال ابن بدر وفرسانه وهي تنهال على الأعداء بالمطر الكثيف، ولما لا يترك المطر أحداً إلا ويصيبه برذاذه، كذلك النبال لا تترك أحداً إلا وأصابته من الأعداء، وليست النبل هي وحدها المستخدمة من قبل ابن بدر ورجاله، بل نجدهم يستخدمون الرماح المسننة، يطعنون بها صدور الأعداء، ولا يثنون ولا يتراجعون إلا وقد أصابوا من الأعداء مقتلة.

ولعل وقعة الجفار هي خير المواقع التي انتصر بها هؤلاء، وغنموا منها الغنائم.

النابغة في بلاط الغساسنة:

قبل الحديث عن مدح النابغة للغساسنة ينبغي لنا أن نتعرف على هؤلاء القوم: انتماؤهم القبلي، أماكن وجودهم.

الغساسنة من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال في أعقاب (سيل العرم)، وقد حطوا رحالهم بادىء الأمر

قرب ينبوع ماء يدعى غسان، فنسبوا إليه هكذا يقول المؤرخون[1]، ثم اتخذهم الروم عمالاً لهم يحافظون على حدودهم من هجمات البدو المتتالية، على أثر نزولهم في الشام وغلبتهم على (الضجاعمة) وظهورهم عليهم.

ومن ملوك الغساسنة البارزين الحارث بن جبلة، الذي انتصر على المنذر الثالث في يوم (حليمة)، وحليمة هذه هي ابنة الحارث، وقيل انها كانت تثير حماس الجنود في هذه المعركة، وكانت ذات نصيب وافر من الحسن والجمال، ويقال ان الحارث وعد الذي يقتل المنذر الثالث بالزواج منها، فقتله ابن عم لها يدعى لبيد، وما لبث هو الآخر أن قتل، وبعد الحارث، انتقل إلى ابنه المنذر الذي انتصر على قابوس ابن المنذر الثالث في معركة (أباغ) المشهورة.

وقد اتصل النابغة بعمرو بن الحارث السادس المعروف بالأصفر، وبأخيه النعمان، على أثر فراره من بلاط أبي قابوس.

مدح الغساسنة:

لم تكن منزلة النابغة عند الغساسنة بأقل منها في بلاط المناذرة، فقد انقطع النابغة إلى مدح هؤلاء ردحاً من الزمن،

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٩٠ ـ ١٩١.

قبل اتصاله بأبي قابوس، وبعد تركه بلاطه، ولئن لم يفز الشاعر عند الغساسنة بجوائز كالتي فاز بها عند اللخميين، إلا أن أخباره تدل على أنه كان مرهوب الجانب عندهم، رفيع المكانة في بلاطهم، مرغوب في مدائحه، فقد كان الغساسنة على جانب كبير من قوة الملك، وكان النابغة يدخل عليهم في أكثر من مناسبة، متجولاً في حواضر ملكهم بين جُلَّقْ وجابية الجولان، مشاركاً إياهم في رواحهم ومجيئهم، يحضر مهرجاناتهم واحتفالاتهم المختلفة، ولا يفتأ جاهداً في ذكر مفاخرهم، وانتصاراتهم غير متردد عن الشفاعة لقبيلته وأحلافهم من الأسديين الذين كانوا يغزون مراعي الغسانيين، لبقاً مع ذلك في تهديد قومه حيناً، وتحذيرهم من غضب الغساسنة أحياناً.

وكان أول اتصال للنابغة بالغساسنة هو اتصاله بعمرو ابن الحارث الغساني الذي لجأ إليه بعد فراره من النعمان، وقد أكرم عمرو بن الحارث وفادته، وقربه إليه حتى بات شاعره المفضل، ونديمه المعزز، وكما كسف النابغة نجم الشعراء في بلاط المناذرة، كذلك تقدم عليهم في بلاط الغساسنة، وكان لذلك موضع الحسد أينما حل.

فلنستمع إلى النابغة كيف يؤنب الذبيانيين قومه على فعلتهم في غزو أرض غسان ويبين كيف أنه كثيراً ما نصحهم

بعدم فعل ما فعلوه، ولكنهم خالفوه في رأيه فيقول:

لقد نهيتُ بني ذبيان عن أُقُرِ
وعن تربُّعهم في كل أصفارِ[1]
وقلت يا قوم إن اللَّيْثَ منقبض
على براثنه لوثبة الضاري[2]
لا أعرفنْ ربرباً حوراً مدامعها
كأنَّ أبكارها نِعاجُ دوَّارِ[3]
ينظرن شزراً إلى من جاء عن عُرُضٍ
بأوجهٍ منكرات الرِّقِّ أحرارِ[4]
يَذْرين دمعاً على الأشفار منحدراً
يأمُلْنَ رِحلة حِصْنٍ وابن سَيَّارِ[5]

فهو يتحدث هنا عن نصيحة لقومه بني ذبيان بعدم التعرض لوادي أقر، وينبههم إلى أن الغساسنة لا تنام أعينهم

---

(١) أقر: وادٍ: تربعهم: إقامتهم وقت الربيع. أصفار. شهور الربيع جمع صفر.

(٢) البراثن: الأظفار. الضاري: متعود الافتراس.

(٣) الربرب: القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به. حوراً: جمع حوراء وهي العين الجميلة. واضحة البياض، والسواد، الدوار: اسم صنم كن يطفن حوله في الجاهلية.

(٤) النظر الشذر. النظر بمؤخرة العين. عرض. جانب.

(٥) الأشفار: جمع شفر وهو هدب العين.

عن حمى أرضهم، وهم إذا غضوا الطرف أحياناً، فليس معنى هذا الضعف، بل هو الاستعداد للوثبة على الأعداء كما فعلوا بالمناذرة وبني أسد، ثم يصور نساء ذبيان بعد الأسر، وكيف رحن يذرفن الدموع، ويتلفتن يميناً وشمالاً، لعل بطلي قومهما حصن بن عيينة وزبّان بن سيار يقدمان بالجيوش، فيخلصانهن من ذل الأسر والعار، ثم يتعرض لما صنعت جيوش الغساسنة ببني أسد.

وفي موضع آخر يصور في قصيدة ما أصاب قومه من الجهد والبلاء فيقول:

لم يبقَ غيرُ طريدٍ غيرُ مُنفَلِتٍ
ومُوثَقٍ في حبال القِدِّ مسلوبِ[1]
أو حُرَّةٍ كمهاة الرَّمْل قد كُبِلَتْ
فوق المعاصم منها والعراقيب[2]
تدعو قُعَيْناً وقد عَضَّ الحديد بها
عَضَّ الثِّقافِ على صُمِّ الأنابيبِ[3]

---

(١) القد: شراك كانوا يشدون به الأسير.

(٢) المهاة: البقرة الوحشية. المعصم: موضع السوار.

(٣) قعين: عشيرة من بني أسد. الثقاف: خشبة تقوم بها الرماح. الأنابيب: كعوب الرماح.

ولم يجد النابغة إزاء هذه الحال من أن يسعى إلى الغساسنة ليمدحهم، حتى يكفوا عن إيذاء قومه، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم، فنزل بعمرو بن الحارث الأصغر وأخيه النعمان، فمدحهما مدحاً رائعاً، فسرا منه، وعفيا عن من أسروه، وكان جزاء الأخوين من النابغة المديح الرائع لهما، وظل عندهما يبالغان في إكرامه، ويبالغ في مدحهما، محاولاً بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه، أو حرب أحلافهم. فمما مدح به عمراً قوله:

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكبِ[1]

تقاعس حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذي يرعى النجوم بآيب[2]

وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب[3]

علي لعمرو نعمة بعد نعمة
لوالده ليست بذات عقارب

---

(١) كليني: دعيني. ناصب: متعب. بطيء الكواكب: كناية عن أنها لا تغور ولا تمضي.

(٢) عزب عزوباً: بعد وغاب، أراح، ردّ.

(٣) آيب: راجع. وأراد براعي النجوم الصباح.

فالشاعر يبدو في أول القصيدة محزوناً وهو يخاطب ابنته أمامة، ويشكو لها همومه وأشجانه لما رأى بني قومه يقعون أسرى في أيدي الغساسنة، وما يظهر عليهم من آثار الذل والمسكنة، فيصور الشاعر طول الليل وهمه فيه تصويراً بديعاً، فالكواكب بطيئة لا تجري، حتى ليظن أن الصبح الذي يرعى النجوم بأضوائه ويحصدها حصداً لن يؤوب، والليل يثقل على صدره بما يرد عليه من الهم والحزن.

ومن هذه القصيدة قوله:

حلفت يميناً غير ذي مثنوية
ولا علم إلا حُسْنُ ظنٍّ بصاحب

لئن كان للقبرين قبر بجلق
وقبر بصيداء الذي عند حارب[1]

وللحارث الجفني سيد قومه
لَيَلْتَمِسن بالجيش دار المحارب

فالشاعر هنا يقسم: لئن كان ممدوحه ابن هؤلاء الملوك من غسان أمثال والده، وجده اللذين ثويا أحدهما بجلق، والآخر بصيداء، وأمثال الحارث الجفني فإنه لا محالة سيهتدي بفعالهم، ويحتذي حذوهم، وليلتمسن

(١) يعني قبر أبيه وجده وهما الحارث الأكبر والحارث الأعرج.

بجيشه دار أعدائه. ثم يقف طويلاً عند تصوير جيوش عمرو
ثم يقف طويلاً عند تصوير جيوش عمرو بن الحارث،
وما تحققه من انتصارات مدوية في حيّها فيقول:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائبُ طير تهتدي بعصائبِ[1]
يصاحبنهم حتى يُغِرْن مُغَارهم
من الضّاريات بالدماء الدوارب[2]
تراهن خلف القوم خُزْراً عيونُها
جلوس الشيوخ في ثياب المرانب[3]
جوانح قد أيقنَّ أن قبيله
إذا ما التقى الجمعان أولُ غالب
لهن عليهم عادةٌ قد عرفنها
إذا عُرِّض الخَطيُّ فوق الكواثبِ[4]

فالشاعر ينوه بشجاعة ممدوحه، وأنه كان واثقاً له بالنصر، ثم يصور كتائب الغساسنة وقد قامت للغزو، وأن قوم

---

(١) عصائب: جماعات.
(٢) الضاريات: المتعددات. الدوارب: المدربة.
(٣) خزر العيون: جمع أخزر وهو الذي ينظر بمؤخرة عينه. المرانب: ثياب سوداء.
(٤) الخطي: الرماح. الكواثب: القربوس. (الديوان ص ٤٠ - ٤٣) والأغاني طبعة بولاق ج ٩ ص ١٦٧ - ١٦٨.

الممدوح مغاوير صادقون في بأسهم، إذا ساروا لقتال حلقت فوقهم جماعة الطير من الغربان والنسور يصاحبنهم إلى حيث تـدور رحى المعركـة وهن ينظرن بمؤخـر أعينهن كـأنهن بسـوادهن شيوخ في أكسيـة سوداء. حتى إذا مـا التقى الجيشان، أدركت هذه العصابات من الطير أن الغلبة لهم، فإذا هي تميل للوقوع على القتلى، بعد أن عرضت الرماح فوق ظهور الخيل، لعهدها بالغنيمة التي تساق لها في مثل هذه المواقف.

وبعد هذه التشبيهات التي يتعمد فيها النابغة المبالغة في إظهار بأس الغسانيين، يروح فيفصل الكلام حول قوتهم، وبطولتهم، وكيف أنهم يتعشقون الموت، حتى ليتسـاقون المنية فيما بينهم، وقد انتضوا بأيديهم سيـوفهم البيضاء، المرهفة الحد التي تمعن قتلاً في الأعداء، فتفتك بهم، وأن لا عيب في الغساسنة إلا سيوفهم التي أصاب حدها التثلم من كثرة مقارعتهم للأبطال والجيوش، وأنها لسيوف قاتلة ما تزال شاهداً على ضراوتهم، منذ يوم حليمة، تلك المعركة التي انتصر فيها الغساسنة على المناذرة وقد بلغ من إرهاف حدها، وصلابته أنها تقطع الدروع المضاعفة النسج التي يرتديها الفرسان، وإذا ما أصابت الحجارة العراض القاسية أرسلت منها الشرر الذي يبدو للعين كالذباب الذي يضيء في الليل،

وأن هذه السيوف في أيدي هؤلاء الأبطال بين ضرب يزيل هام الأعداء، عن أعناقهم، وطعن شبيه بحركة النوق الحوامل حين تدفع، فتضرب الأرض بأرجلها فيقول:

فهم يتساقون المنية بينهم
بأيديهم بيض رقاق المضاربِ[1]
يطير فضاضاً بينها كل قونس
ويتبعها منهم فراش الحواجب[2]
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
لهن فلول من قراع الكتائب[3]
تورثن من أزمان يوم حليمة
إلى اليوم، قد جربن كل التجاربِ[4]
تقد السلوقي المضاعف نسجه
وتوقد بالصفاح نار الحباحب[5]

---

(١) بيض: سيوف.

(٢) فضاضاً: متفرقاً. القونس: أعلى الرأس. فراش الحواجب. عظامها.

(٣) فلول: ثلوم. قراع: مضاربة.

(٤) يوم حليمة: معركة مشهورة انتصر فيها الحارث بن جبلة الغساني على المنذر بن ماء السماء.

(٥) السلوقي: الدرع المنسوبة إلى سلوق من أرض اليمن. الصفاح: الحجارة ويريد خوذة الجنود. الحباحب: ذباب له شعاع.

بضــرب يــزيــل الهــام عن سكنــاتــه
وطعنٍ كـإيـزاغِ المخــاض الضـوارب[1]

وبعد هذا الوصف البالغ لشجاعة الغساسنة، وشدة بأسهم الذي يبدو معه النابغة شاعراً يجيد تصوير المعارك بدقة بالغة، ينتقل الشاعر إلى الإشادة بشيم الغساسنة. فإذا الله قد اصطفاهم بين الخلائق بعلو الشأن ورفعة المكانة، وحب العطاء، وطيب الخصال، ورجاحة العقل، لا يشبههم في ذلك أحد ولا يدانيهم إنسان، ثم تراه يمتدح دينهم وإنجيليهم، فهو دين قويم، وكتاب صادق لأنه كتاب الله، لا يأملون معه إلا خير العواقب فيقول:

لهم شيمــة لــم يعــطهــا الله غيــرهم
من الجــود والأحــلام غيــر عــوازب[2]
مــحــلتــهــم ذات الإلــه، وديــنــهــم
قــويم، فمــا يــرجـون خيــر العـواقب[3]

ثم يصف مظاهر رفعتهم، ورفاهيتهم، ورفاهية عيشهم، فإذا هم ملوك نعالهم رقيقة أعفاء محصنون،

---

(١) الهام: جمع هامة وهي الرأس. سكناته. حيث يسكن ويستقر. الايزاغ: دفع الناقة بولها.

(٢) الأحلام: العقول. عوازب: جمع عازب وهو الغائب.

(٣) محلتهم: منزلتهم. ذات الإله: يقصد كنائسهم.

يحييهم الناس في عيد الشعانين بالريحان، وهم ذوو نعمة وسعة في الملك، تقوم على خدمتهم الإماء البيض الحسان، وأرديتهم من الخز الأحمر، يعلقونها فوق المشاجب، وقد اعتادوا صيانة أجسادهم، وترفيهها، فملابسهم شديدة البياض، خضراء المناكب وهم على بسطة عيشهم، ونعيم حياتهم، قوم معتدلون، عركهم الزمان، وجربتهم الأيام، لا يداخلهم غرور بالنعمة فيبطروا، وإذا أصابهم مكروه لم يداخلهم قنوط، أو يرهقهم يأس.

رقاق النعال. طيب حجزاتهم
يحيون بالريحان يوم السباسب[١]
تجيبهم بيض الولائد بينهم
وأكسية الاضْريج فوق المشاجب[٢]
يصونون أجساداً قديماً نعيمها
بخالصة الأردان خُضْر المناكب[٣]
ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده
ولا يحسبون الشرَّ ضربة لازبِ[٤]

---

(١) الحجزات: معاقد الثياب. طيب حجزاتهم. كناية عن عفتهم.
(٢) الولائد: الجواري والإماء. الإضريج: الحرير الأحمر. المشاجب وجمع مشجب وهو أعواد تعلق غليها الثياب.
(٣) الأردان: الأكمام . وخلوصها: نصوع بياضها.
(٤) لازب: لازم.

حبوتُ بها غسَّان إذ كنت لاحقاً
بقومي وإذ اعْيَتْ عليَّ مذاهبي[١]

ورغم وجود النابغة في ديار الغساسنة، ومديحه لهم، فقد كان يقف أحياناً معارضاً لهم، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بعشيرته، وبإيذائها كما حدث مثلاً حين تعرض للنعمان الغساني عندما حاول أن يغزو (حُنّ) الذين كانوا ينزلون في ديار المناذرة، وراحوا يتوسعون في ديار ذبيان وبالتالي تهديد أراضي الغساسنة ومراعيها ولما رأى منه إصراراً شديداً أرسل إلى عشيرته يدعوها إلى أن تعين بني (حُنّ)، فأعانتها، ومنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة وفي ذلك يقول:

لقد قلت للنعمان يوم لقيته
يريد بني حُنٍّ ببرقة صادرِ[٢]
تجنب بني حُنٍّ فإن لقاءهم
كريه وإن لم تلق إلا بصابرِ[٣]

---

(١) بها: يريد قصيدته. أعيت مذاهبه عليه: ضاقت وسدت.
(٢) برقة صادر: اسم موضع.
(٣) صابر: شجاع في الحرب.

عـظام الـلّهـى أولاد عـذرة إنـهـم
لـهاميـم يستلهـونهـا بـالحنـاجـرِ[1]

وهم منعـوا وادي القـرى من عـدوهم
بـجمـع قـبيـر لـلعـدو المـكـاثـرِ[2]

وقال يمدح النعمان بن الحارث الأصغر، وكان قد خرج إلى بعض متنزهاته:

إن يـرجـع النعمـانُ نفـرح ونبتـهـجْ
ويـأت مـعـداً مُلْكُهـا وربيـعـهـا[3]

ويـرجـع إلـى غـسـان مـلك وسـؤددٌ
وتلك المنى لـو أننـا نستـطيعهـا[4]

وإن يـهـلك الـنـعـمـانُ تُعْرَ مـطيّةٌ
ويُلْق إلى جنب الفِنـاء قُـطُوعُـهـا[5]

وَتَـنْحَطْ حـصـانٌ آخـر الليـل نَـحْـطَةً
تقضـقضُ منـهـا أو تكـاد ضـلوعُهـا[6]

---

(١) اللهى هنا: المال لهاميم: جمع لهموم وهو الضخم العظيم، يستلهونها، يبتلعونها.

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٦٥.

(٣) الابتهاج: المسرة. وربيعها: خصبها وصلاح حالها.

(٤) غسان: قبيلة الممدوح. والسؤدد: الشرف.

(٥) تعر مطية: يريد إن هلك النعمان. والقطوع: أداة الرَّحْل.

(٦) التقضقض: التكسر. والحصان: المرأة العفيفة.

يضع الشاعر نفسه في هذه القصيدة موضع فرد من أفراد قبيلة الممدوح، أو واحد من رعيته، ولهذا نراه يتوجه بعواطفه إلى النعمان بن الحارث لترعاه، وتطمئن عنه أينما ذهب، وحيثما حلت ركابه، فإذا عاد من رحلة في التنزه، أو من غارة على عدو، راح الشاعر يبتهج بتلك العودة، كواحد من معد أو غسان.

لماذا هذا الابتهاج من النابغة تجاه النعمان بن الحارث، لأن هذا الأمير ليس إلا كالربيع الذي يبعث فيما حوله الخير والعطاء والبهجة، وأما إذا ما أصاب النعمان هذا مكروه وجدت الوفود الوافدة عليه تحط رحالها عن مطيهم، وتلقيها إلى جنب أفنيتهم لاستغنائهم عنها. ثم نرى زفرات الحزن تنبعث من الأنفس بحرارة تكاد ضلوعها تتكسر من شدة ذلك الزفير، وتنهض كل امرأة عفيفة من نومها مذعورة كلما تذكرته، وتزفر من أجله، كما تتذكره عند كل غارة تتعرض لها غسان من عدو.

على إثر خير النـاس إن كـان هـالكـاً
وإن كـان في جنب الفراش ضجيعهـا[1]

(١) الديوان ص ١٠٨.

فالمرأة العفيفة لا تخجل أن تبكي النعمان بن الحارث، حتى ولو كانت إلى جانب زوجها في مضجعها، لأنها في بكائها إنما تبكي معروفه وأياديه في صنع الخير.

وقال يمدح عمرو بن الحارث الغساني في غزوته للعراق:

أتاركة تَدَلُّلِها قَطامِ
وضِنّاً بالتحية والكلام

فإن كان الدَّلال فلا تلجّي
وإن كان الوداع فبالسَّلامِ

فلو كانت غَداة البيْنِ مَنَّتْ
وقد رَفَعُوا الخُدُورَ على الخيامِ[1]

صَفَحْتُ بنظرةٍ فرأيتُ منها
تُحَيْتَ الخدرِ واضعة القِرامِ

ترائِبُ يستضيءُ الحَلْيُ فيها
كجَمْرِ النار بُذِّرَ بالظلام[2]

يستفتح النابغة قصيدته بشيء من العتاب على من يحب، وكيف أنها تجافيه، فلا تبادله المحبة بمثلها، بل إنها

(١) الخدور: كل ما تخدرتْ فيه فاستترت به، والخيام هنا الهوادج.

(٢) الترائب: جمع تريبة؛ وهي موضع القلادة من الصدر.

تبخل عليه حتى بالتحية. ثم يسأل من يحب إذا كان هذا التصرف للدلال فلا حاجة للتلجلج فيه، وإن كان سبباً للفراق والتوديع فودعينا بسلام، أي بتسليم منك علينا، أو تحية تمتعينا بها. وحتى لو منتْ علينا بالوداع غداة البين لنظرت إليها، ومتعت نفسي بها من تحت الستر الرقيق، وعندها سوف أرى ذلك الجمال المضيء بالحلي، والمتوهج كجمر النار في وسط الظلام.

ويستمر الشاعر في وصف المحبوب:

كـأن الـشـذر والـيـاقـوت مـنـهـا
عـلى جـيـداءَ فـاتـرةِ الـبُـغـامِ[1]
خَـلَـتْ بـغـزالـهـا ودنـا عـلـيـهـا
أراكُ الـجـزْع أسـفـلَ مـن سـنـامِ
تَـسـفُ بَـريـرَه وتـرود فـيـه
إلـى دُبُـر الـنَّـهـار مـن الـبشـام[2]
كـأن مُـشَـعْـشَـعـاً من خَـمْـرِ بُـصْـرَى
نـمـتْـهُ الـبُـخْـتُ مشـدودَ الـخـتـامِ

(١) الشذر شيء يعمل من فضة أو ذهب، والجيداء، الظبية الطويلة العنق، وبغامها: صوتها.

(٢) تسف بريرها: أي تأكله. والبشام: شجر، وبريره: ثمره.

نَـمَـيْـنَ قِـلالَـه مِـن بـيـت رأسٍ
إلـى لُـقـمـانَ فـي سُـوقٍ مُـقَـامِ

فحسناء النابغة كالظبية لطول عنقها، وقد زينته بالمعادن الثمينة كالفضة والذهب والياقوت وبحسن الصوت إذا تكلمت.

هذه الظبية تفردت عن قطيعها بغزالها، ثم راحت تراقب ذلك القطيع يميناً وشمالاً، ومن خلال تلفتها يبدو جمال عنقها وحسنه، وكان التفرد إلى جانب الوادي، حيث الشعر الكثيف، ثم راحت إلى ثمر الشجر تأكله، وتنتقل في المراعي ترعى خيره طول النهار، وينتقل النابغة إلى وصف الخمر الجيد المختوم الذي لم تمتد إليه الأيدي، والذي حملته الجمال من مكان إلى مكان، حتى وصلت به إلى الخمار لقمان ليسقى عنده للشاربين. وهذا الخمر إذا كسرت طوابعه، رأيت في أعلاه شبه الذريرة؛ لطول عهده وزمانه في دنه، هذا الخمر هو أشبه ما يكون بماء ثغر تلك الحسناء، بل ماء الثغر أشبه أيضاً ما يكون بماء المطر الهاطل من السحب في طيبه، وخاصة عند فترة الصباح حين تكون الأفواه قد تغير ريقها.

إذا فـضـت خـواتـمـه عـلاه
يبسُ القُـمَّـحـان مـن الـمُـدام[1]
عـلى أنـيـابـهـا بـغـريض مـزن
تـقـبـلـه الـجـبـاة مـن الـغـمـام[2]
فـأضـحـت فـي مـداهِـنَ بـاردات
بِمُنْطَلقِ الجنـوبِ على الجـهـام[3]
تَـلَذُّ لـطعـمـه وتـخـال فـيـه
إذا نـبـهـتـهـا بَـعْـدَ الـمـنـام

بعد هذا الوصف التقليدي من النابغة لحسنائه، نراه يغضب لتمادي الحبيبة في هجره، فيعمد إلى مخاطبة نفسه، ويدعوها إلى ترك الصلة بتلك الجيداء، فهو لم يعد قادراً على تحمل العذاب النفسي.

فَـدَعـهـا عـنـك إذ شـطَّتْ نـواهـا
ولَـجَّـتْ مـن بـعـادِكَ فـي غـرامِ
ولـكـنْ مـا أتـاك عـن ابـن هِـنْـدٍ
مـن الـحـزمِ الْـمُـبَـيَّـنِ والـتَّـمـامِ

(١) فضت خواتمها: كسرت طوابعه. والقمحان: الذريرة وهو الزبد الذي يعلو الخمر.

(٢) الغريض: الطري الحديث العهد بالسحاب. والمزن: السحاب.

(٣) المداهن: النقرة في الحجارة يكون فيها ماء قليل. والجهام: السحاب الذي هراق ماؤه.

فِداءٌ ما تُقِلُّ النَّعْلُ مِنّي
إلى أعلى الذؤابة للهُمام[1]
ومغزاة قبائل غائظاتٍ
على الذُهْيوطِ في لجبٍ لُهامِ[2]
يُقَدْنَ مع امرئ يَدَعُ الهُوينى
ويَعْمِدُ للمُهِمّاتِ العِظامِ
أُعينَ على العدُوِّ بكل طِرْفٍ
وسَلْهَبَةٍ تُجَلَّلُ في السَّمامِ[3]

فإذا كانت الحسناء قد تخلت عن النابغة، فإنه سيستعيض عنها بما هو خير منها، إنه الذهاب إلى ابن هند الذي لا يعرف الخداع، بل عنده الحزم، وتمام الأمر وكماله، لا مثل تلك الفتاة.

ثم يطلب الشاعر الفداء بنفسه عن ذلك الرجل السيد المطاع، الذي يفنى النعل للوصول إليه. ومن صفات ذلك الملك العزم والشدة مع كل من تسول له نفسه بالثورة عليه،

---

(١) الذؤابة: واحدة ذوائب الشعر. والهمام: الملك السيد.
(٢) الذهيوط: اسم أرض. واللجب: الجيش المُصَوِّت: واللُّهام: الكثير الذي يلتهم أي شيء.
(٣) السلهبة: الفرس الطويلة. والسمام: جمع سَمُوم: وهي شدة الحر.

وخروجه عن طاعته، ولهذا تراه يغزو القبائل الغاضبة الثائرة بجيش لجب. لا يترك شيئاً أمامه إلا ابتلعه وذهب به.

وهذا الملك لا يغزو محبة بالغزو، بل في سبيل الأمور الشريفة كإثبات الحق وبعث الطمأنينة والهدوء في مناطقه. وهو يعد للعدو من رباط الخيل الكريمة الطويلة التي تتحمل أعباء الحرب، والحر الشديد.

بعد هذا الوصف لابن هند، يصف النابغة السلاح الذي يقاتل ممدوحه به عدوه:

وأسمر مارن يلتاح فيه
سنانٌ مثل نبراس النهامي[1]
وأنباهُ المُنَبِّىءُ أنَّ حيّاً
حُلُولاً من جِرامٍ أو جُذامِ[2]
وأن القوم نَصْرُهُمْ جميعٌ
فئام مُجْلِبون إلى فئامِ
فأوردهُنَّ بَطْنَ الأتْم شعثاً
يَصُنَّ المشي كالحِدَأ التُّؤامِ[3]

---

(١) الأسمر: الرمح. النهام: الحداة. والنبراس: السراج. وقال أبو عبيدة: النهامي: الراهب لنهمه بالقراءة، وهذا أشبه بالمعنى. لأن السُّرج والمصابيح تنسب إلى الرهبان، وتخص بهم.

(٢) حرام وجذام: قبيلتان.

(٣) الإتم: اسم موضع.

علـى إثـرِ الأدِلَّـةِ والـبـغـايـا
وخَـفْـقِ الـنـاجـيـات مـن الـشَّـآمِ

فرماح ابن هند تلمع فيها السنان كسراج الراهب الذي ينهم القراءة فيظل فترة طويلة ساهراً يضيء سراجه. هذه الرماح أشرعت، بعد أن أخبر ابن هند بما تقوم به حرام وجذام من أعمال، فأورد هؤلاء الخيل، وكان اللقاء بطن الأثم، وراح الفرسان يكر كل واحد على الآخر، وراحت الإبل تسرع في المجيء والذهاب، وقد أضناها الكلال.

لقد رأينا كيف ابتدأت المعركة والآن نريد أن نعرف كيف انتهت:

فبـاتـوا سـاكـنـيـن وبـات يَـسْـري
يُـقَـرِّبُـهُـمْ لـه لـيـلُ الـتِّـمـامِ
فـصـبـحـهـم بـهـا صـهـبـاءَ صِـرْفـاً
كـأنَّ رؤوسـهُـم بَـيْـضُ الـنَّـعـامِ
فـذاق الـمـوتَ من بَـرَكَـتْ عـلـيـه
وبـالـنـاجـيـن أظـفـارٌ دوامِ
وهـن كـأنـهـنَّ نِـعـاجُ رَمْـلٍ
يُـسَـوِّيـن الـذُّيـولَ عـلى الـخِـدامِ[1]

---

(١) الخدام: جمع خدمة، وهي الخلخال

يُــوَصِّــيــن الــرُّواة إذا ألَــمُّــوا

بشُــعْــثٍ مُــكْــرَهــيــن عــلــى الــفــطام

الأعداء باتوا ساكنين لا يعلمون أنه سار إليهم، وأنه ركب في مسيره إليهم الليل والنهار حتى فاجأهم عند الصباح فسقاهم بكتائبه صهباء صرفاً، ثم راحت الرؤوس تتساقط من هؤلاء القوم، أو تتفلق كما يتفلق البيض.

وكتائبهُ في نزولها على القوم أناخت عليهم، كما تنوخ الناقة على الأرض، لقد ظفر عمرو بن هند بخصومه، فأسلحتهم دامية من دماء القتلى، وأظافرهم فتكت بهم كما يفتك السلاح، وباتت نساء هؤلاء الأعداء، وهن أشبه ما يكُنَّ بالأبقار الوحشية في حسن عيونها، وسكون مشْيها. ثم يصفهن وهن يسوين ذيولهن على اسواقهن وخلاخيلهن. وراح هؤلاء النسْوة السبايا يوصين القوم الذين يحملون معهم الماء بأولادهن الذين حال السبي بينهن وبينهم، وهم دون سن الفطام.

وأضحى ســاطــعــاً بــجــبــال حــسْــمىَ

دُقــاقُ الــتُّــرْبِ مُــخْــتَــرِمَ الــقــتــام

فَــهَــمْ الــطــالــبــون لــيــطْــلُــبُــوه

ومــا رامــوا بــذلــك مــن مَــرام[1]

(١) راموا: أي طلبوا.

إلـى صَعْـبِ المقـادةِ ذي شـريس

نمـاه فـي فـروع المـجـد نـامِ

أبـوه قـبـله وأبـو أبـيـه

بـنـوا مجـد الحـيـاة عـلى إمـام

فـدوخـت العـراق؛ فـكـل قـصـر

يُـجَـلَّلُ خَـنْـدَقٌ مـنـه وحـامِ[1]

ومـا تـنـفـكُّ مَـخْـلُولاً عُـراهـا

عـلى مُـتـنـاذرِ الأكـلاء طـامِ[2]

ويستمر النابغة في وصف نتائج المعركة بين عمرو بن هند وخصومه، فإذا الغبار قد سطع وارتفع بجبال حِسْمى لكثرة ما تثير الخيل من الغبار، لقد أراد الأعداء شيئاً، وإذا بهم يحصلون على شيء آخر معاكس لما كانوا يرغبون به، لأن ابن هند في منعة وعز. وهو قوي على أعدائه، وهو أيضاً قد نمى في فروع المجد أباً عن جد، هؤلاء الناس، أقاموا مجدهم على جميل من فعالهم، وجعلوا من فعال الماضين منهم إماماً يأتمون به.

ثم يتوجه الشاعر بكلامه إلى عمرو بن هند فيقول له: لقد دوخت العراق، وأذللت أهله، وقهرتهم. وأما خيل عمرو

(١) الحامي: ما يحميه ويمنع منه.

(٢) الاكلاء: جمع كلأ. والطامي: المرتفع، وأراد به كثرة الخصب.

فهي لا تزال مقيمة قد حلت عراها على موضع، قد تناذره الناس، لا يقربونه من عزة أهله ومنعتهم، فجعل هذا به، لقوته وكثرة جيشه.

وقال يمدح عمرو بن الحارث الأصغر الغساني لانتصاره في وقعة ضد بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان:

أهاجَكَ من أسماء رسمُ المنازل
بروضة نُعْميٌّ فذات الأجاوِلِ[1]

أَرَبَّتْ بها الأرواح حتى كأنما
تهادين أعلى تُربها بالمناخلِ[2]

وكل مُلِثٌّ مُكْفَهِرٌّ سحابُه
كَمِيش التوالي مُرْثِعِنٌّ الأسافلِ[3]

إذا رَجفت فيه رحاً مَرْجَحِنَّةٌ
تبَعَّقَ ثجاجٌ غزيرُ الحوافِلِ[4]

يستفتح النابغة قصيدته بالوقوف على الأطلال ليتحدث عن رسم ديار الأحبة، وهذه المرة رسم ديار أسماء، فإذا هذه

---

(١) نعمى، وذات الأجاول: موضعان.

(٢) أربت بها الأرواح: أي أقامت ولم تبرح.

(٣) الملث: السحاب الدائم المطر. والمكفهر: المتراكب. كميش التوالي: أي خفيف المآخر سريعها. والمرثعن: الذي لا يبرح.

(٤) المرجحنة: الثقيلة. تبعق: اشتد. الثجاج: الذي يثج الماء أي يصبه. غزير الحوافل: أي كثير الأمطار.

الديار كانت في مواقع فيها ماء ونبت وشجر، فهي حديقة غناء في مكانين هما نعمى وذات الأجاول.

ماذا أصاب هذه الديار بعد رحيل ساكنيها، لقد تعاقبت عليها الرياح في روحان ومجيء، تحمل معها الرمال لتهيلها على المنازل، وتزيل معالمها، وهذه الرمال لسهولتها ودقتها، كأنها قد نخلتها الرياح، وهذا تشبية لا تخفى معالم جماله على أحد، وهو حاصل نتيجة لتلك المراقبة الدقيقة لمظاهر الطبيعة من قبل الإنسان البدوي.

ولم تكن الرمال هي وحدها التي أسهمت في خراب الديار، وإزالة معالمها، بل نجد السحاب المتراكب المثقل بالمياه، والذي يتلوه سحاب سريع لا يلبث أن تعقبه الأمطار الغزيرة، المعقوبة أيضاً بالرعد الذي يهز جنبات تلك الديار، فيتهللون له، ويفرحون به، أما اليوم، فإنه يثير الحزن والكآبة، لأنه أصبح أداة تخريب، بعد أن كانت ذات تعمير. ويستمر النابغة في وصف الديار فيقول:

عَهِدتُ بها حَياً كراماً فَبُدِّلَتْ
خناطيلَ آجال النعام الجوافِلِ (١)

(١) الخناطيل؛ الفرق والجماعات، واحدتها خنطلة، والآجال: جمع أجل وهو الجماعة.

تــرى كــلّ ذيّــال يــعــارض ربــربــا
على كــلّ رَجافٍ من الــرّمــلِ هــائــل
يُثــرن الحصى حتى يبــاشــرن بَــرْده
إذا الشمس مجّتْ ريقهــا بــالكــلاكــلِ[1]
ونــاجيــةٍ عــدّيْتُ فــي مــتــن لاحِبٍ
كسحْــلِ اليمــاني قــاصــدٍ للمنــاهــلَ[2]
لــه خُــلُجٌ تــهــوي فــرادى وتــرعــوي
إلى كــل ذي نيــرين بــادي الشــواكــلْ[3]

يقول النابغة ان تلك المنازل والديار التي كان يسكنها أناس كرام، إذا بهم يستبدلون بالحيوانات الجافلة لرؤية أي شيء كالنعام وغيرها من الأبقار الوحشية الطويلة الأذناب التي تركض على الرمل الكثيف المائل الذي لا يتماسك. وفي ركضها تثير الحصى بالكلاكل حتى يباشرن بردَه، وذلك في وقت كانت فيه الشمس بالهاجرة حيث يشتد الحر.

يراقب الشاعر هذه المناظر وهو يركب ناقته، وقد

---

(١) الكلاكل: الجماعات. ريق الشمس. وهو الهاجرة عند اشتداد الحر.
(٢) اللاحب: الطريق الواضح. السحل: الثوب الأبيض.
(٣) الخلج: الطرق الصغار، واحدها خلوج، سمي بذلك لأنه يختلج الناس.

أسلكها الطريق الواضح كالثوب الأبيض ليتوجه نحو الممدوح:

وإني عداني عن لقائك حادث
وهمٌ أتى من دون همِّك شاغلي
نصحت بني عوف فلم يتقبلوا
وصاتي، ولم تنجح لديهم وسائلي
فقلت لهم: لا أعرفن عقائلاً
رعابيب من جنبيْ اريكِ، وعاقلِ[1]
ضوارب بالأيدي وراء براغزٍ
حسانٍ كآرام الصريم الخواذلِ[2]
خلال المطايا يتصلن وقد أتتْ
قنان ابْيرٍ دونها والكواثلِ[3]

يعتذر النابغة بلباقة عن السبب الذي من أجله تأخر في المجيء إلى الممدوح، فيعلل ذلك بالمشاكل والهموم التي اعتورته من كل جانب. ثم ينتقل للحديث عن الموضوع الذي جاء من أجله، إنه الشفاعة لبني عوف الذين طالما نصحهم، وحذرهم من التمادي بالاعتداء على أراضي

(١) الرعابيب: النواعم البيض، واريك وعاقل: موضعان.
(٢) البراغز: أولاد البقر الوحشي، الصريم: المنقطع من الرمل.
(٣) القنان: جبال صغار، وأبير والكواثل: جبلان.

الغساسنة، وبين لهم المخاطر الكامنة وراء ذلك، والتي أقلها أن تسبى نساؤهم، وتقتل رجالهم، لكنهم للأسف لم يقبلوا تلك النصائح، ولم يعملوا بها. ومن جملة ما قاله لهم: ان العاقل هو من ينظر في عواقب الأمور، وهذه هي عاقبة الأمور : نساء وفتيات جميلات أشبه ما يكن بالأبقار الوحشية لجمال عيونهن، وقد سبين فانقطعن عن أهلهن، كما تنقطع بعض الأبقار عن قطيعها بعد ضياعها.

هؤلاء النسوة يمشين بين المطايا وهن يصرخن مستغيثات بمن يحررهن من السبي ولكن دون جدوى.

وخلُّوا لـه بيـن الجـنـاب وعـالـج
فـراق الخليط ذي الأذاة المُـزايـلِ[١]

ولا اعـرفـنّي بعـدمـا قـد نهيتكُمُ
أجـادِلُ يومـاً في شويٍّ وجـامِـلِ[٢]

وبيض غـريـراتٍ تـفـيضُ دمـوعـهـا
بـمـسـتـكـره يـذريـنـه بـالأنـامـلِ[٣]

وقـد خفتُ حتى مـا تـزيـد مخـافتي
على وعِـلٍ في ذي المطـارة عـاقـلِ[٤]

(١) الجناب وعالج : موضعان. المزايل: المفارق.

(٢) الشوي: جمع شاة. والجامل: جمع جمل.

(٣) الغريرات: اللواتي لم تجربن الأمور.

(٤) ذو المطارة: اسم جبل.

مخافة عَمْروٍ أن تكون جيادُه
يُقَدْنَ إلينا بين حافٍ وناعلِ

ثم يصف النابغة بعض مواقع القتال وهي الجناب وعالج ،حيث حلَّ بنو مرة في هذه المواضع خوفاً من عمرو بن عثمان، وفارقوه كما يفارق الخليط المؤذي من خالطه، ويصور حالته وهو يناقش قومه وينصحهم في عدم الاغارة على أراضي الغساسنة، وها هو ذا يحاول الآن أن يخلصهم من أعدائهم.

والحقيقة أن جدال النابغة لبني غسان جاء منحصراً في بنات قومه ونسوتهم الذين آلمه صراخهن في طلب المساعدة، ثم تلك الدموع المنحدرة من المآقي والتي استكرهوا عليها، ثم كيف رُحْن يمسحن الدمع بأطراف أصابعهن. وخوف النابغة مركز بصورة خاصة على أولئك الذين لم يعرفوا السبي، والذين هلعت قلوبهم خوفاً منه، ويتصور الشاعر كيف جاء عمرو بن الحارث وهو يقود جماعة قومه بمذلة، فمنهم الناعل الذي لم يخسر نعله، ومنهم من فقده فسار حافياً.

إذا استعجلوها عن سجية مشيها
تلع في أعناقها بالجحافلِ(١)

(١) الجحفلة من الدابة؛ بمنزلة الشفة من الإنسان.

شـوازب كـالأجـلام قـل آل رِمُّـهـا
سمـاحيق صفـراً في تليـل وقـائـل[1]

بـرى وقـعُ الـصُّـوَّانِ حـدَّ نُسُـورِهَـا
فهنَّ لـطافٌ كـالـصِّعـاد الـذوابـلِ[2]

ويـقـذفـن بـالأولاد فـي كـل مـنـزلٍ
تشحَّطُ في أسْـلائهـا كـالـوصـائـلِ[3]

وصف لطريقة نقل الأسرى إلى بلاد الغساسنة، فالخيل وضعت وراء الإبل لتحثها على سرعة المسير، فتغير من طبيعتها التي اعتادت عليها، فكلما استعجلت مدت أعناقها وجحافلها. وكما تغيرت طبيعتها في سيرها، فقد تغيرت أيضاً في شكلها، فقد ضعفت وهزلت، وذهب ما كان عليها من شحم، كل ذلك من أثر الإعياء الذي أصابها من مشقة المسير، وكما ذهب شحمها فقد ذهبت حوافرها من أثر احتكاكها بحجر الصوان وغيره من الأشياء الصلبة كالصخور. كما أن لبنها جف من قلة الماء والطعام.

---

(١) شـوازب: أي ضوامر. والجلم: المقراض، والرِّمُّ: بقية المخ، والسماحيق: طرائق دقائق. التليل: العنق. والقائل: عرق في الفخذ.

(٢) الصعدة: قناة ليست بطويلة. والذوابل: الصم الصِّلاب، والنسور: لحمات في باطن الحافر كنوى الزيتون.

(٣) الوصائل: ثياب حمر فيها خطوط خضر.

ونظراً لما تعانيه من طول السفر وعذابه، فقد راحت ترمي بأولادها لغير تمام، فهي تشحط في الأشلاء التي أشبه ما تكون بالثياب الحمر التي فيها خطوط خضر.

تـرى عـافيـات الـطيـر قـد وثقت لهـا
بشبـع من السُّخْـل العتـاق الأكـائـل[1]

مـقـرَّنـة بـالـعـيس والأدْمُ كـالـقـنـا
عليهـا الخُبُـوْرُ محقَبـاتُ المـراجـلِ[2]

وكـل صَـمُـوتٍ نَـثْـلَةٍ تُـبَّـعـيَّـةٍ
ونَـسْـجُ سُلَيْـمٍ كـلُّ قـضـاء ذائـلِ[3]

يقول النابغة: أن الطير تقفو منازل الغساسن لأنها تعلم أن مآكلها هناك من أولاد الخيل والشياه. هؤلاء القوم أي الغساسنة اعتادوا أن يركبوا الإبل ويقودون الخيل، إبقاءٍ عليها ليكون لها قوة وجمام عند القتال والغارة، ويحملون في حقائبها المراجل التي يطبخون فيها، والدروع من نسج داود.

---

(١) السخل: جمع سخلة وهي ولد الناقة والأكائل: جمع أكيلة، وهي أكلة السبع التي يأكلها إذا افترسها.

(٢) الخبور: جمع خَبْر، وهي المزادة. والأدم: الخالصة البياض.

(٣) النثلة والنثرة: السابغة. نسج سُليم: أراد نسج سليمان وأراد بسليمان داود لأنه أول من عمل الدروع.

عُليـنَ بـكَـدْيـونٍ، وأبـطن كَـرَّةً
فـهنَّ وِضـاءٌ صـافيـاتُ الغـلائـلِ[١]
عتـادُ امـرىءِ لا يَنْـفُضُ البُـعْـدُ همَّـه
طلوب الأعـادي واضـحٌ غيـر خـامِـلِ[٢]
تـحيـن بـكـفَّيـه الـمنـايـا، وتـارةً
تَسُحـان سحّـاً من عـطاءٍ ونـائـلِ[٣]
إذا حَـلَّ بـالأرض الـبـريـة أصبـحت
كـئيبـة وَجْـهٍ غبُّـهـا غـيـرُ طـائلِ[٤]
يـؤمُّ بـرِبْـعـيٍّ كـأنَّ زَهـاءَهُ
إذا هـبط الـصـحـراءَ حَـرَّةُ راجـلِ[٤]

وأسلحة الغساسنة محاطة بالعناية الفائقة، فهي مثلاً على ظواهرها الزيت، لئلا تصدأ من احتكاكها بعضها ببعض، كما طليت بالدهن أو الدسم، وهذه الأسلحة نقية صافية ولهذا فهي لا تدنس الغلالة التي تحتها.

---

(١) علين بكديون: أي جعل على ظواهرهن دردي الزيت لئلا تصدأ، والكرَّة: البعر والرماد. والوضاء: وضيء، وهو النقي الصافي. الغلائل: مسامير الدروع، واحدتها غلالة.

(٢) الخامل: الذي لا ذكر له، والعتاد: العدة.

(٣) تسحان سحاً: أي تصبان العطاء صباً، كما يسح المطر.

(٤) الغب: المريض كئيب الوجه. وقوله غبها غير طائل: أي آخر أمرها مكروه ولا خير فيه. (الديوان ص ١٤٧ ـ ١٤٨).

هذه الأعتدة هي لامرىء، إذا هم بأمر لم يمنعه من إتيانه بعد مرامه، لجلده وقوته. وهو بيِّنُ الشرف، مشهور الكرم. يحمل بين كفيه المنايا لأعدائه، والعطاء الكريم لاحبائه، وهو إذا حل بالأرض البريئة من القتل، أظهر فيها القتل والدماء، فأصبحت غبَّ حلوله بها مريضة كئيبة الوجه، لأنها تعلم أن آخر أمرها مكروه ولا خير فيه.

لقد لاحظنا كيف كرس الشاعر كل اهتمامه للغساسنة بشكل عام فقد مدحهم ابتداءً من خيولهم وأسلحتهم، ثم صفاتهم من الشجاعة والكرم والجلد على تحمل أعباء الحروب إلى غير ذلك. وأخيراً نراه يكرس بعض أبيات ليصف فيها عمرو بن الحارث دون أن يذكره بالاسم، فقد كان كل همه منصباً على تخليص أبناء عشيرته من الأسر دون ذلك.

وقال النابغة يمدح النعمان بن الحارث الأصغر: قال أبو زيد: أدخل النعمان بن الحارث النابغة على مولود فقال:

هـذا غـلام حسـن وجـهـه
مـستقبـلُ الـخيـر سـريـع التَّمـامْ
لـلحـارث الأصـغـر والـحـارث الـ
أعـرج والـحـارث خـيـر الأنـام

ثم لهند، ولهند وَقَدْ
أسرع في الخيرات منه إمام
ستَّةٌ آبائِهِمُ ما هُمُ
هُمْ خير من يشرب صَوْب الغمام[1]

الغلام في صورته الخارجية حسن الخَلْق، تظهر عليه امارات النجابة منذ مولده، كيف لا يكون كذلك، وهو من أسرة سباقة للفضل والكرم.

وقال النابغة يمدح الحارث الأصغر، وقيل الأعرج، وهو الأوسط:

والله والله لَنِعْمَ الفتى الـ
أعرج لا النكس ولا الخامِلُ[2]
الحاربُ الوافرُ والجابر الـ
محروب والمُرْجِلُ والحامِلُ
والطاعِنُ الطعْنة يوم الوغى
يَنهَلُ منها الأسدُ النَّاهِلُ
والقائِلُ القَوْل الذي مثله
يَنْبُتُ منه الزمَن الماحِلُ

---

(١) الديوان ص ١٦٦.

(٢) النكس: الذي فيه ضعف، يشبه بالنكس من السهام، وهو الذي انكسر فوقه وجعل النصل مكان الفوق.

والغـافـر الـذنب لأهـل الـحجـى
والـقـاطـعُ الأقـران والـواصِـلُ

يقسم النابغة أن الحارث الأصغر (الأعرج) لهو نعم الفتى الذي لا يعرف الضعف، أو الخمول. بل هو الكريم الذي يسلب مالـه، بإنفـاقه على المعـوزين، والسائلين، والشجاع الذي يطعن أعداءه يوم الوغى الطعنة النجلاء، بالسيف والرمح، فيشـرب الطعنة من دمائهم.

وهو إذا قال، فإنما يقول الصواب، والكلام الجميل، الذي ينزل على النـاس، فتنتعش نفوسهم، كمـا تنتعش الأرض بالمطر الهاطل، ومن أبرز صفاته أيضاً: أنه يغفر الذنب لمن يرتكبه من أهل الدراية، والتعقل، ولكنه لا يغفره للمسيء القاصد الإساءة، فهو يصل من يرحم، ويقطع من يسيء.

وقال يمدح عمرو بن الحارث بن أبي شمرٍ الغساني:

لـقـد تـلفَّـتَ لـي عـمــرو عـلى حَــنَـقٍ
عن قــول عَــرْجَلَةٍ ليســوا بــأخيــارَ[1]

---

(١) حنق: غضب. والعرجلة: الرجالة.

فجئت عمراً على ما كان من اضمٍ
وما استجرتُ بغير الله من جارِ[1]
كم قد أحل بدار الفقر بعد غنىً
عمرو وكم راش عمرو بعد اقتارِ
أثرى فأكرم في المثوى ومتعني
بجلّةٍ مائةٍ ليست بأبكارِ[2]
يَرِيشُ قوماً ويبرىء آخرين بهمْ
لله من رائش عمرو ومن بارِ[4]
وكم جزانا بأيدٍ غير ظالمةٍ
عُرْفاً بعُرْفٍ وإنكاراً بإنكارِ
فشيمتاه: زعاف السم واحدة
وشيمة للمواتي شهد مشنارِ[5]

يتحدث النابغة عن عمرو بن الحارث فيقول: انه كان قد حنق عليه لوشاية وشاها مغرض حاقد على النابغة، ومكره

(١) أضم يأضم أضماً: إذا غضب.
(٢) متعني: وهب لي، والجلة: الإبل.
(٣) وقوله: كم قد أدخل بدار الفقر بعد غنى عمرو: أي يأخذ مال قوم ويغني آخرين.
(٤) راش: أعطى.
(٥) مشنار: مجنى العسل. (الديوان ص ١٨٣).

لعمرو، فجاء النابغة يستجير بعمرو، ويبدي له عن حبه وإخلاصه، كيف لا يكون هذا من النابغة، وعمرو هو الذي يكرمه أجزل الإكرام، ويعطيه أفضل العطايا من الإبل الأبكار.

وهذا الرجل أي عمرو بن الحارث دائم حالة الفقر، لأنه لا يطيق أن يكون عنده المال وغيره محتاج، بل هو يأخذ المال من الميسورين، ليوزعه على المحتاجين، فهو في هذه الحالة ينقص المال عند جماعة، ليريح معيشة الآخرين بها.

ويتساءل النابغة بصيغة التعجب، كم من العطايا الكثيرة قد أعطانا، من أيد سمحة غير ظالمة، اعترافاً بالجميل، فهو يحسن لمن أحسن إليه، ويسيء لمن يسيء إليه، ولهذا فهو له شيمتان: الشيمة الأولى هي أنه يسقي أعداءه السُّمّ الزعاف، والشيمة الثانية هي أنه يسقّي محبيه العسل الصافي.

لقد رأينا كيف مدح النابغة بعض ملوك وأمراء الغساسنة، ولكن الشاعر أراد أن يخص الغساسنة بشكل عام بأبيات يذكر فيها مآثرهم، وما انطوت عليه نفوسهم من حب للخير فيقول مودعاً:

لا يُبْعِدُ اللهُ جيراناً تركتُهُمُ
مثل المصابيح تجلو ليلة الظُّلَمِ[1]
لا يبرمون إذا ما الأفْقُ جلَّلَهُ
بَرْدُ الشتاء من الامحالِ كالأدَمِ[2]
هم الملوك وأبناء الملوك لهم
فضل على الناس في اللأواءِ والنِّعَمِ[3]
أحلام عادٍ، وأجسادٌ مطهَّرة
مِنَ المَعَقةِ والآفات والإثَمِ[4]

فالنابغة يشبه الغساسنة بالمصابيح لتلألؤ وجوههم بالحسن، فهم الهداة للناس في يوم الظلمة، يهدونهم إلى طرق الخير، ويكشفون لهم ما التبس من الأمور بسداد آرائهم.

وإذا نظرت إليهم رأيتهم دائماً مستبشرين، لا يعرفون

---

(١) مثل المصابيح: تشبيهاً لهم في حسن الوجوه، أو سداد الرأي.

(٢) لا يبرمون: أي لا يضجرون: الأدم: الجلود الحمر.

(٣) في اللأواء والنعم، الشدة والرخاء.

(٤) أحلام: عقول. وعاد يضرب بهم المثل في الحلم وهم ثمانية من العماليق: بيض، وصممة، وطفيل، وذفافة، وملك، وفروعة، وعمار، وغيل. وقوله: من المعقه: يريد عقوق الرحم، أي هم برءاء من العقوق والآفات، وهي العيوب، وقوله والإثم: أراد الإثم: فحرك الثاني بحركة الأول، وهو كثير في الشعر. (الديوان ص١٠١).

التبرم يوم يكون الناس في تبرم، من شدة ما انتابهم من شظف العيش، والإمحال، فتراهم يسارعون في الخيرات لا يبخلون في البذل، يساعدون الناس عندما تنحبس الأمطار، وتغدو السماء كالأدم من حمرته، فهم إذاً يتفضلون على الناس في الشدة والرخاء، وليس هذا بغريب عليهم، فهم الملوك وأبناء الملوك، والناس الرعية لهم، والملك من واجبه أن يحسن إلى رعيته إذا كان عادلاً.

وقد اتخذ هؤلاء لهم من الأقدمين المثل يحتذون به، وخاصة من اشتهر بالحلم والكرم كقوم عاد وحلمائهم المشهورين في التاريخ، كما أن أجساد هؤلاء الغساسنة مطهرة من ارتكاب الإثم، وصنع الآفات.

وقال أيضاً: حين أغار النعمان بن وائل بن الجُلاح الكلبي على بني ذبيان، فأخذ منهم، وسبا سبياً من غطفان، وأخذ عَقْرباً ابنة النابغة، فسألها: من أنت؟ فقالت: أنا بنت النابغة، فقال لها: والله ما أحد أكرم علينا من أبيكِ، ولا أنفع لنا عند الملك، ثم جهزها وخلاها، ثم قال: والله ما أرى النابغة يرضى بهذا منا، فأطلق له سبي غطفان وأسراهم:

أهاجك من سعداك مغنى المعاهدِ
بروضة نُعْمي، فذات الأساودِ

تعاورها الأرواح ينسفن تُرْبَها
وكل مُلِثٍّ ذي أهاضيب راعدِ
بها كل ذيال وخنساء ترعوي
إلى كل رجاف من الرمل فاردِ[1]
عهدت بها سُعْدَى، وسعدى غريرة
عروب تهادى في جوارٍ خرائدِ[2]
لَعَمْري لنعم الحيّ صَبَّحَ سِرْبنا
وأبياتنا يوماً بذات المراودِ[3]
يقودُهُمْ النعمان منه بمُحْصفٍ
وكيدٍ يَغُمُّ الخارجيَّ مناجدِ[4]
وشيمةِ لا وانٍ ولا واهن القوى
وَجِدٍّ إذا خاب المفيدون صاعِدِ[5]

---

(١) الذيال: الثور الطويل الذيل، والخنساء: البقرة القصيرة الأنف، والرجاف من الرمل: الذي لا يتماسك هو منها أبداً. والفارد من الرمل: المنفرد المنقطع، ومعنى ترعوي تصير إليه وتأوي نحوه.

(٢) غريرة: حدثة لم تجرب الأمور. والعروب: المحبة لزوجها. والخرائد: جمع خريدة، وهي الحيية. تهادى: أي تمشي مشياً ليناً.

(٣) السرب: المال الراعي، وذات المراود: موضع.

(٤) بمحصف: أي رأي مبرم، والإحصاف: شدة الفتل. والمناجد: المقاتل.

(٥) الشيمة: الطبيعة، والواني الضعيف، وكذلك الواهن.

يستهل النابغة مديحه بالحديث عن الصحراء، ففيها عاش من يحب، ولهذا نراه تهيج أشجانه عندما يمر بتلك الديار والمنازل التي كان ينزل بها أولئك الأحبة، ويخص بالذكر موضعين هما: نُعْمى وذات الأساودِ. هذه المواضع اختلفت عليها ريح بعد ريح، فمحت آثارها، وغيرت رسومها، بل راحت تنسف تربها، وتحاول استئصالها، ولم تكن الرياح هي وحدها المتآمرة على الدمن والآثار، بل نجد أيضاً إلى جانبها المطر الدائم، والرعد القاصف.

وهذه الديار بعد نزوح أهلها عنها، وخرابها، لم تعد موطناً إلا للوحوش كالأبقار الوحشية صاحبة الذيول الطويلة، أو البقرة القصيرة الأنف، هذه الأبقار تطأ الرمال المتحركة، فتسمع لوقع حوافرها رجفة وصوتاً.

هذه المنازل أو الديار، كانت في زمن من الأزمان عامرة بأهلها، فيها كانت تقيم سُعدى زمن الربيع وهي حدثة لم تجرب الأمور، ثم امرأة تحب زوجها، تمشي متهادية في مشيها غنج ودلال.

هؤلاء القوم، وهم قوم النابغة، جاءهم النعمان بن وائل في غارة، والناس لا يزالون في بداية يقظتهم، والرعاة متأهبون للسير في قطعانهم إلى المراعي. جاء النعمان ومعه الرجال يقودهم برأي مبرم وشجاعة مشهود لها، فهو جلد

حازم، لا يعرف الوهن، أو الضعف، وإذا خاب الناس من العطاء، فإنهم سيجدونه عنده.

فآب بأبكارٍ وعُونٍ عقائلٍ
أوانس يحميها امرؤ غيرَ زاهدِ[1]

يخططن بالعيدان في كل مقعدٍ
ويخبأن رُمَّان الثُّدْيِّ النواهدِ[2]

ويضربن بالأيدي وراء براغزٍ
حسان الوجوه كالظباء العواقدِ[3]

غرايرُ لم يلقين بأساء قبلها
لدى ابنِ الجُلاحِ ما يثقن بوافدِ

أصاب بني غيظ فأضحوا عباده
وجَلَّلها نُعْمى على غير واحدِ[4]

هذا الرجل الشجاع القوي الكريم النعمان بن وائل هو الذي أخذ الرجال والنساء العزب منهن والثيب وهن من الكرائم الخيار، الذين يؤنس من يجلس معهن بحسن الحديث، أخذهن ذلك الرجل لا ليسيء إليهن، بل ليحتفظ

---

(١) العون: جمع عوان، وهي النصف من النساء. ويقال: هي الثيب.
(٢) رمان الثدي: أي هن ثواب لم تنكسر ثديهن بعد.
(٣) العواقد: التي مدت أعناقها.
(٤) أصاب بني غيظ: وهو غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان.

بهن احتفاظ المحسن لا المسيء، وهو غير زاهد في حفظهن.

ومع هذا فقد بلغ الحزن منهن مبلغاً كبيراً، فإذا قعدن رحن يخططن بالعيدان في الأرض، وذلك من فعل الحزن، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على صغر السن، فهن شواب لم تنكسر أثداؤهن بعد.

وأما النساء، فقد ضممن أطفالهن إلى صدورهن خوفاً عليهم، واستئناساً بهم. وأشبه ما يكون هؤلاء الأطفال بأولاد الأبقار الوحشية، وذلك لجمالهن، وجمال أمهاتهم في حسن العيون، وطول الأعناق.

والاضطراب الذي أصاب النساء والأطفال، ناتج عن عدم معرفة هؤلاء للشدة والبؤس، قبل غزوة النعمان بن وائل، ومما زاد في اضطرابهم وحزنهم، أنهم يئسوا من أن يفديهم أحد من قومهم.

لكن حزن بني غيظ بن ذبيان لم يستمر طويلاً، فقد أنعم عليهم النعمان بن وائل بالحرية، فأطلقهم، وأنعم عليهم.

فلا بد من عوجاء تهوي براكب
إلى ابن الجُلاح سيرها الليل قاصدِ(١)

(١) العوجاء: الناقة التي اعوجت لطول السفر.

تخب إلى النعمان حتى تنالـه

فدى لك من ربٍّ طريفي وتالدي[1]

فسكنت نفسي بعدما طار رُوحُها

وألبستني نُعْمى ولست بشاهدِ

وكنت امرأ لا أمدح الدهر سوقةً

فلسْت على خير أتاك بحاسدِ[2]

سبقتَ الرجال الباهشين إلى العلا

كسبْق الجوادِ اصطاد قبل الطواردِ[3]

علوت معداً نائلاً ونكايةً

فأنت لغَيثِ الحمد أول رائدِ

يقول الشاعر انه ركب إلى النعمان بن وائل ليمدحه ناقة أعياها السفر فاعوجت وهو يفدي ذلك القائد بنفسه، فو رجل كسب المجد كسباً، وورثه أباً عن جد وكي لا يمدحه، وهو الذي أنعم عليه أجزل النعمى لفكه أس بني قومه إكراماً له، وبمدحه إياه تتضح القيمة المع العظيمة لذلك الرجل، فالنابغة لا يمدح إلا ا

(١) الطريف من المال: ما اكتسب. والتالد: ما ورث عن الآباء

(٢) السوقة: من هم دون الملك والرئيس.

(٣) الباهش: المسرع إلى الشيء مسروراً به.

والرؤساء، ولهذا فالنابغة عندما يمدحه، فإنما يفعل ذلك لأن النعمان بن وائل هو واحد من هؤلاء.

والنعمان بن وائل سبق الكثيرين من العظماء إلى الشهرة والمجد، وما ذاك إلا لأنه يعشق المراتب العالية بين الناس. وعندما أنعم على بني ذبيان بالحرية وبفك أسرهم يكون قد ضرب مثلاً على حسن صنع الخير، وهذا ليس بغريب عليه، فهو رائد في كل شيء.

لاحظنا في دراستنا للمديح عند النابغة النواحي التي تطرق إليها في مديحه سواء كان ذلك في مدح المناذرة أم في مدح الغساسنة، وأن أغلب شعره المديحي كان يتوخى فيه المحافظة على كرامة عشيرته بني ذبيان، فقد كان إذا جاز لنا التعبير السفير الأمين من قبيلته لدى تلك الإمارات، وقد نجح في أداء دوره كل النجاح. وقد عرفنا أن النابغة واجه الكثير من المشاكل سواء عند المناذرة أم عند الغساسنة، وذلك نتيجة للمنزلة الرفيعة التي حظي بها عند كل من الطرفين، وهذا أدى إلى نشوء حساسية كبيرة بينه وبين سائر الشعراء الذين تواجدوا في بلاط المناذرة أو في بلاط الغساسنة، ولكنه استطاع بلباقة أن يتجاوز الحساسية عند الغساسنة في حين أنه كان محرجاً عند المناذرة، والسبب في ذلك يعود إلى ما لفق على لسانه من قول تناول فيه زوجة النعمان بن المنذر بشيء

أساء إلى كرامتها، مما أوغر صدر النعمان ضده، وجعل النابغة يفر من غضب النعمان طلباً للسلامة، لكن فراره كان موقتاً، فهو لم يكن مذنباً نحو النعمان، وكان يعلم براءته وأن النعمان لا بد له من أن يعلم الحقيقة فيرضى عنه، ولكن هذا الرضى لا بد له من أدلة تبرر موقف النابغة، وكان النابغة هو المحامي المدافع عن نفسه، فراح يبعث سراً باعتذارياته للنعمان، ويبين له أن ما قيل عنه هـو كذب وافتراء، وأنـــه يجل ويحترم النعمان الذي أنعم عليه جزيل الإنعام، وأكرمه أعظم الإكرام فكيف يصدر عنه مثل هذا الفعل الشنيع، فما هي اعتذاريات النابغة؟ وكيف دافع عن نفسه؟ وهل وفق إلى ذلك؟

قبل التحدث عن هذا الموضوع يجدر بنا أن نتحدث عن الأسباب التي من أجلها ترك النابغة بلاط الحيرة إلى بلاط الغساسنة، وما هي الوسائل التي اعتمدها حتى تمكن من العودة إلى بلاط المناذرة وجعل النعمان بن المنذر يعفو عنه.

أولاً: أسباب غضب النعمان بن المنذر على النابغة ثم هرب هذا إلى الغساسنة.

إن السبب الجوهري، أو الأساسي الذي من أجله حصل الخلاف بين النعمان والنابغة، يعود إلى المركز العالي الذي سبق وتحدثنا عنه، والذي ناله النابغة عند النعمان بن

المنذر، وتلك العطايا التي استفرد بها النابغة من ملك الحيرة دون سواه من الشعراء، ورأينا كيف حسده حسان بن ثابت وغيره من الشعراء، إن هذا الوضع، أو المنزلة العالية، هي التي شحنت نفوس الشعراء بالحقد والحسد على الشاعر، فراحوا يخططون لإيجاد الخلاف بين الملك والشاعر، لعلهم يتخلصون من الشاعر، ويحظون برضى الملك.

وحانت الفرصة من الحاسدين، ووقع الخلاف، وإذا الشاعر مهدر دمه، مهددة حياته، وإذا حاجب أبي قابوس عصام بن شهبر الجرمي، وكان بينه وبين النابغة إخاء وصداقة يحذره من غضب النعمان، ويشير عليه بترك البلاط. فاضطر النابغة للفرار، واللجوء إلى الغساسنة، وفي نفسه حسرة، وغيظ وأمل في العودة.

ولا بد لنا هنا من أن نتساءل عن السبب الذي من أجله غضب النعمان بن المنذر على النابغة حتى لجأ إلى الهرب منه.

لقد تعرض ابن قتيبة إلى هذا الموضوع، وذكر أن الرواة اختلفوا في تحديد السبب الذي بلغه عنه فنذر دمه[1] لكننا نستطيع أن نستعرض بعض الدوافع التي من أجلها وقع الجفاء بين أبي قابوس وأبي أمامة:

---

(١) الشعر والشعراء ١/١٦٥.

أولاً: ما ذكر أن النابغة قاله في هجاء الملك النعمان:

قبح الله ثم ثنّى بلَعْنٍ
وارث الصائغ الجبانَ الجهولا
من يضُرُّ الأدنى ويَعْجِز عن ضُـ
ـرِّ الأقاصي ومن يخون الخليلا
يَجْمَعُ الجيش ذا الألوف ويغزو
ثم لا يَرْزَأُ العدُو فتيلا

ووارث الصائغ هو النعمان بن المنذر، وكان الصائغ جدَّ النعمان بن المنذر، وأمه سلمى بنتُه، واسمه عطية، ومنزلُه فَدَكُ[1].

وفي هذه الأبيات إقذاع في الهجاء، وقد تعرض ابن قتيبة إلى هذه الأبيات وذكر أن هذا الشعر لم يقله النابغة، وإنما قاله على لسانه قوم حسدوه، منهم عبدُ قيس بن خفافٍ التميمي[2]، ومنهم مرة بن ربيعة بن قَرْثَعٍ السعديُّ[2].

ثانياً: وصف المتجردة. فقد ذكر صاحب الأغاني، وصاحب الشعر والشعراء أن النابغة كان كبيراً عند النعمان خاصاً به، وكان من ندمائه وأهل أنسه، وبينما كان النعمان

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٦٦.

(٢) هو برجمي، والبراجم من بني تميم، وعبد قيس هذا شاعر مجيد (الشعر والشعراء ج ١ ص ١٦٥).

جالساً وعنده المنخل بن عبيد بن عامر اليشكري، وكان النعمان دميماً أبرش قبيح المنظر، وكان المنخل بن عبيد من أجمل العرب، دخلت المتجردة زوجة النعمان عليه، ففشيها تشبيهاً بالفجأة فسقط نصيفها، واستترت بيدها وذراعها وكادت ذراعها تستر وجهها لعبالتها وغلظها فقال النعمان للنابغة صفها في شعرك يا أبا أمامة، فقال قصيدته:

أمن آل مية رائح أو مغتدي
عجلان ذا زاد وغير مزود

وقد ذكر فيها بطنها وعُكُنها ومتنها وروادفها وفرجها فقال:

وإذا لَمَسْتَ لَمَسْتَ اخْثَمَ جاثماً
متحيزاً بمكانه مِلْءَ اليَدِ[1]
وإذا طعَنت طعنت في مُسْتَهْدِفٍ
رابي المَجَسَّةِ بالعبير مُقرمَدِ[2]
وإذا نزعت نزعت عن مستحصِفٍ
نَزْعَ الحَزَوَّرِ بالرِّشاء المُحْصَدِ[3]

---

(١) الأخثم، بالخاء والثاء: الجهاز المرتفع الغليظ.
(٢) مستهدف: عريض منتصب، مقرمد: مطلي.
(٣) مستحصف: ضيق، الحزور: الغلام الذي قد شب وقوى، الرشاء: الحبل. المحصد: المحكم المفتول.

فلما سمع المنخل هذا الشعر، وكان يتهم بالمتجردة ويظنُّ بولدي النعمان منها أنهما منه قال: ما يستطيع أن يقول مثل هذا الشعر إلا من قد جَرَّب، فوقر ذلك في نفس النعمان، وبلغ النابغة ذلك، فخافه فهرب إلى غسان، فصار فيهم.

ثالثاً: اتصال النابغة بالغساسنة أعداء المناذرة، ففهم ذلك النعمان، وجعله يحقد على النابغة.

ولا بد لنا من أن نقف هنيهة أمام ما أورده الرواة من أخبار تصب كلها في هدف واحد هو: غضب النعمان على النابغة لنرى بشيء من النقد الصحيح منها والمختلق.

فأما ما يتعلق بأمر هجاء النابغة للملك النعمان، ذاك الهجاء الذي يشهر بالنعمان فيصفه بالجبن، والجهالة، والعجز، والإساءة إلى الأقربين، فمن الواضح أنه منحول بدليل قول ابن قتيبة: ان هذا الشعر (أي هجاء النابغة للنعمان) لم يقله النابغة، وإنما قاله على لسانه قوم حسدوه[1].

كما أن رضى النعمان على النابغة فيما بعد لدليل آخر على براءة النابغة.

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٦٥.

وأما حادثة المتجردة فهي لا تخلو من اضطراب، وإن لم تكن عندنا موضع الشك الشامل ولعل حقيقة الأمر أن النابغة وصف المتجردة بأمر النعمان، وقد دخلت عليه، وسقط نصيفها، بما لا يكون فيه مس لأبي قابوس، وإلا كيف يجرؤ النابغة على وصف أعضائها ذلك الوصف الشهواني غير اللائق، بوجود النعمان؟ ولا شك أن المنخل اليشكري أو غيره من حساد النابغة قد أضاف على القصيدة ما فيها من الخروج عن حدود العفة، وزين للملك النعمان، أمر العلاقة بين النابغة والمتجردة، فكان غضب الملك النعمان المعروف، ولعل أوضح دليل على صدق ما نقول ما رواه الأصفهاني وابن قتيبة من أن المنخل اليشكري كان متهماً بالمتجردة، فلما سمع قول النابغة فيها لحقت به من ذلك غيره، فمن الطبيعي أن يستغل أبيات النابغة فيحورها بشكل يساعده على إلصاق التهمة بالنابغة، للظهور عند النعمان بمظهر البريء.

وأما ما يقال من استياء النعمان بسبب اتصال النابغة بالغساسنة، فلم يكن هذا أمر بالغ الخطورة، لأن اتصال النابغة ببلاط غسان كان قبل اتصاله بالنعمان، فمن شأن أعداء الشاعر، أن يوغروا صدر الملك، مستغلين النفور بين البلاطين.

وختام القول أن النابغة بريء من التهم التي وجهت إليه، وأن فراره لا يدينه، وإنما هو وسيلة للنجاة بنفسه بعد أن أهدر الملك دمه، لا سيما وقد تبين أن الدفاع عن النفس وهو في نجوة من الهلاك، أولى به من التعرض للخطر.

ومهما يكن الأمر فلو لم يظهر الشاعر بريئاً مما نسب إليه لما تمكن من العودة إلى النعمان، فكيف عاد وما هي البواعث على عودته:

ثانياً: عودة النابغة:

أشرنا سابقاً إلى أن ابن قتيبة ذكر أن النعمان غمه امتداح النابغة للغساسنة أعداءه، وأيقن أن الذي قذف به عنده باطل، فبعث يستقدمه إليه من جديد بقوله: «إنك صرت إلى قوم قتلوا جدي فأقمت فيهم تمدحهم، ولو كنت صرت إلى قومك لقد كان لك فيهم ممتنع وحصن إن كنا أردنا بك ما ظننت، وسأله أن يعود إليه»[1].

لقد ترك النعمان للنابغة الفرصة لكي يعيد اعتباره عنده، فعمد النابغة إلى نظم اعتذارياته، ثم جاء أبا قابوس مع رجلين من فزارة هما: زبان بن سيار ومنظور بن سيار،

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٦٧.

وكـان بينهما وبين النعمـان دُخْلُلٌ[1] فضرب لهمـا قبـة، ولا يشعر أن النابغة معهما، ودس النابغة أبياتاً من قصيدته:

يا دارَ مية بالعلياء فالسند

وهي:

نـبئـت أنَّ أبـا قـابـوس أوعـدنـي
ولا قـرارَ عـلى زأر مـن الأسـدِ

مـهـلاً فـداءٌ لـك الأقـوام كُـلُّهُـمُ
ومـا أُثمِّرُ مـن مـالٍ ومـن ولَـدِ

فـلا لَعَمْـرُ الـذي مسحـت كعبَتَـه
ومـا أريق على الأنصـاب من جسـدِ

مـا إن بـدأتُ بشيء أنت تكـرهُـهُ
إذن فـلا رَفَعـتْ سـوطي إليَّ يـدي

فلما سمع النعمان الشعر أقسم بالله إنه لشعر النابغة، وسأل عنه فأخبر أنه مع الفزاريّين، وكلماه فيه فأمَّنه[2].

---

(1) أصل الدخلل، بضم الدال وسكون الخاء مع ضم اللام وفتحها: المداخل المباطن وصاحب السر، وأراد به هنا المودّة الصافية.

(2) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٦٧ والأغاني ج ١١ ص ٢٦١ وكان بين النعمان والفزاريين دخلل أي خاصة، وكان معهما النابغة قد استجار بهما.

ثالثاً: أسباب عودة النابغة:

اختلف النقاد حول الأسباب التي من أجلها عاد النابغة إلى بلاط النعمان، لكنهم في آرائهم يعودون إلى الرهبة والرغبة.

فأما الرهبة فقد رأى بعض النقاد في اعتذاريات الشاعر، ما يبين أجواء الخوف والقلق التي يبدو معها هلعاً من وعيد أبي قابوس إياه، وتهديده له. وقد ظن هؤلاء أن الشاعر لو لم يكن خائفاً حقاً لما ظهرت عليه امارات الخوف والاضطراب، ولما وجدت الرهبة إلى نفسه سبيلاً، وإلا فما العذر الذي يعتذر به الشاعر ليبين عكس ذلك، وهو الذي يبين لنا في شعره سهاد جفنه، وعدم اطمئنان مضجعه، وما هي الدوافع التي دفعته لاستعطاف أبي قابوس بتلك اللهجة الذليلة، والصغار المشين بحقه وكرامته.

وأما الرغبة، فقد رأى بعضهم الآخر أن النابغة لم يعتذر لخوف من بطش النعمان بن المنذر أو رهبة من وعيده، وإنما جاء اعتذاره وسيلة لرغبته في استرضاء الملك النعمان للعودة إلى بلاطه. فالنابغة لم ينس بعد ذلك الإكرام الذي أكرمه إياه أبو قابوس، وتلك المنزلة التي أنزله إياها دون سائر الشعراء، حتى جعل الشعراء يحقدون عليه ويحسدونه.

ولعل ما يؤيد وجهة نظرنا ما قاله أبو معمر بن العلاء حين سئل؛ أكان النابغة يخاف لو أقام بأرضه أم يأمن؟ قال: بل يأمن؛ لأنه لم يكن يُجَهِّز النعمان إليه جيشاً تعظم عليه في النفعة، ولكنه تذكر ما كان يعطيه، فلم يصبر فأتاه، فاعتذر إليه مما سعى به مُرَّةُ بن ربيعة بن قُريع بن عوف بن كعب. وكان النعمان أسخى العرب؛ فقال يمدح النعمان، ويعتذر إليه، ويهجو مُرّة بن ربيعة لما قدم عليه عند النعمان[1].

رأينـا كيف نظر النقاد إلى اعتذاريات النابغة، وكيف انقسموا حولها إلى قسمين لكل منهم دليله وبرهانه، ولكننا نحن نريد أن نبدي رأينا في هذا الموضـوع فنقول: ان النابغة لم يكن على الصورة التي صوره بها أصحاب الرأي الأول من الخوف والقلق والاضطراب من بطش النعمان، فقد كان كما رأى أبو عمرو بن العلاء في مأمن من بطش النعمان، إذا كان بين قومه، وكان له المنزلة الرفيعة عندهم كما رأينا، فلم يكن من الأمر الهين، أن يعمد الذبيانيون إلى تسليم شاعرهم وسيداً من سادتهم إلى المنذر، بل كـانوا على استعداد للقتال دفاعاً عنه مهما كلفهم ذلك من التضحيات. كما أن الغساسنة وهم أعداء المناذرة، كانوا سيهبون لنجدة

(١) الأغاني طبعة بولاق ج ٩ ص ١٧٢.

الذبيانيين إذا ما حصل بينهم وبين الغساسنة قتال. فهذه الأسباب ستحول دون النعمان والتفكير في إيذاء النابغة. ولعل الأسلوب الذي استخدمه النعمان في مخاطبة النابغة ومعاتبته له لم يكن لغضبه عليه من وصف المتجردة، بقدر ما كان لنزوله عند الغساسنة.

وأما الأسلوب الذي اتبعه النابغة هو الآخر في استعطاف النعمان، والذي أظهر فيه نفسه خائفاً من النعمان ومن بطشه، فقد كان أسلوباً سياسياً ذكياً أكثر منه حقيقة واقعية فالنابغة يريد أن يظهر نفسه محباً للملك، مخلصاً له، وفياً لعهده. وأنه ـ وهو الذي يخشى غضب أبي قابوس ـ لا يجرؤ على انتهاك حرمة بلاطه، أو الإساءة إليه في حال من الأحوال، وقد غالط كثير من النقاد أنفسهم حين اتهموا النابغة بضعف الشخصية، وتصويره لنفسه بمظهر الهلع الذي تنتابه الهواجس، وتصطرع في نفسه عوامل الفزع والاضطراب، فقالوا: ان النابغة إنما اعتذر نتيجة للخوف، ودفعاً لنقمة النعمان.

والاعتذار سواء كان قد أتي به اعترافاً بخطأ، أو تبريراً لساحة متهم، يستلزم من قائله القول الجميل، وطلب الترفق والاستعطاف، لا سيما إذا كان موجهاً من شاعر كالنابغة، متهم بأشنع الأقوال، وأقبح المساوىء، إلى ملك كالنعمان له

منزلته العالية، وعظيم مكانته، فلا يليق بالنابغة أن يعتذر بغير هذا الأسلوب، ولا بد أن يستعظم ما قذف به عند أبي قابوس. والاستعظام يستدعي أن يهول الشاعر على نفسه وعيد الملك الغاضب. وكيف يكون تهويله بغير إكبار النعمان، مما يستوجب إظهار الرهبة لجانبه.

ونحن لا نرى أن النابغة كان بمقدوره أن يسترجع مودة النعمان، لو أظهر عدم الاكتراث بوعيده، وأعلن له عدم مبالاته بنقمته، وقلة احتفاله بغضبه، وإلا لَحُمِلَ أبو قابوس على اليقين بصدق أقوال الوشاة.

صحيح أن الشاعر وقع في شيء من الضعف في مقاطع من اعتذارياته حين استعطف الملك النعمان، ولم يأل جهداً من إقامة الدليل على اباء نفسه، واعتداده بكرامته، والمحافظة على عزته، فإن ذلك كله لم يأت به الشاعر إلا ليثبت براءته، والتي بإثباتها يستطيع أن يستعيد سائر ما خسره ومنها كرامته.

وقد يسأل سائل: أيهما أبلغ في القول: الاعتذاريات بخشونة تدين النابغة، أم الاعتذار بمرونة ولباقة تحقق رغبة الشاعر في دحض الأباطيل التي حيكت عليه؟

وأخيراً نقول: بأن مصدر خوف وقلق الشاعر إنما كان من عدة عوامل اجتمعت معاً لتكون مصدراً لقلقه وعدم استقراره: حرصه على مكانته، وخوفه على شرفه، الذي كاد أن يلطخ بتهمة الإساءة إلى الملك، ثم وجوده عند الغساسنة أعداء المناذرة. وحقد أعدائه عليه وملاحقته بالاتهامات، والافتراءات، كل هذه العوامل جعلت الشاعر يحزن أيما حزن، ويقلق أيما قلق، وبالتالي سعيه الحثيث للتخلص من هذه كلها بأن يصطنع من الاعتذاريات ما تهز نفس الملك النعمان، وتجعله يعيد النظر في كل ما قيل عنده عن النابغة ويعفو عنه.

الاعتذاريات

عند النابغة

اعتذاريات النابغة:

كانت الاتهامات التي وجهت إلى النابغة واضطرته إلى الفرار من بلاط النعمان الثالث، على النحو الذي أوضحناه في بدء دراستنا، بعيدة الأثر في حياة الشاعر. فقد تعرضت سمعته بين قومه، وعند الغساسنة للأذى، وراحت الألسن تغض من مكانته، وابتدع أعداؤه ومنافسوه مختلف الأقاويل للإمعان في الإساءة إليه والحط من شأنه. وقد صورته الوشايات في نظر أبي قابوس، ناكراً للعرفان، عديم المروءة والوفاء، لا يرعوي عن خيانة من منحه الرعاية، ووهبه نعمة الإثراء، ووفر له سبل الشهرة، وبوأه مجد الشاعرية، بما أتاح له من آفاق الحياة الرحبة، وبما هيأ له من نعيم العيش، حتى بات يأكل في صحاف من الفضة والذهب، ويملك غير قليل من متاع الدنيا.

وعز على الشاعر أن يصبح سيء الأحدوثة، بين الناس، وهانت سلامة حياته في نظره، إزاء العار الذي يهدد شرفه.

وكان له من الأنفة، والاعتزاز بالذات، ما أثار عليه الهواجس وجعله طعمة للقلق، ووقوداً للأسى المؤلم، والهم

العميق، فلاذ بشاعريته لتذود عنه، ولجأ إلى قوة منطقه ليدفع هاتيك الافتراءات ويهدم دعوى المغرضين، فوفق في الاعتذار لأبي قابوس، وكانت اعتذارياته، صفحة جديدة في الأدب العربي. فتحت للشعراء، خلال الأعصر التالية باباً مستحدثاً لم يكن لهم عهد به، وإذا ما حاولوا الغوص في مضماره، فلا أراهم قد فاقوا مبدعه، رغم تباعد العهد بينه وبينهم.

وإذا كان لكل شاعر ميزته الشعرية الخاصة التي اشتهر بها، كامرىء القيس الذي برع في وصف الخيل، والأعشى الذي اشتهر في نعت الخمرة، وعنترة تفوقه في الحماسة، فإن للنابغة هو أيضاً ما انفرد به واشتهر فيه وهو دقة أسلوبه في الاعتذار، وما يرافقه من الأجواء الشعورية حتى قيل: أشعر الناس النابغة إذا رهب.

ما قيل في اعتذاريات النابغة:

اختلف الباحثون في تقييم اعتذاريات النابغة وأسبابها؛ فمنهم من نسب هذه الاعتذاريات إلى العامل النفسي الذي انطبع عليه النابغة وهو الذل والمسكنة والصغار في طريقة استعطافه للملك النعمان، ومنهم من أقر للشاعر بالبراعة، دون أن يوفق إلى تبرير المآخذ على أسلوبه الاعتذاري، وقد

فات أكثرهم، إن لم يفتهم جميعاً، أن يدرسوا هذا الفن على ضوء الظروف التي كانت تحيط بالنابغة، والملابسات التي تعتور سبيله.

مفهوم الاعتذار:

يفهم الاعتذار، من الوجهة العامة، على أنه محاولة لتبرير خطأ على أساس من الاعتراف بالتقصير، وغالباً ما يكون هذا اللون بين الأصدقاء والخلان. ولكن الاعتذار الذي قصد إليه النابغة الذبياني يبدو صعباً، ومحرجاً، لأنه لم يكن متهماً بأمر سياسي يتعلق بالملك النعمان، أو بأحد أفراد حاشيته، وإنما هو يتعلق بأقرب الناس إلى أبي قابوس، وأكثرهم حساسية بالنسبة إليه لأنه يتعلق بشرفه وعرضه أعني بها زوجته.

من هنا كان على النابغة أن لا يكون شخصاً عادياً حتى ينجح في مهمته، بل عليه أن يظهر من المرونة والعريكة اللينة، والخبرة النفسية، وسعة الخيال، والمنطق المتزن، ما يجعلنا نرى في بعض مواقفه التي اعتبرها بعضهم دليلاً على صغاره، ما يزيدنا إعجاباً بسعة حيلته، ومقدرته على إتقان أساليب السياسة والكشف عن ملابساتها، فما هي أبرز خصائص أسلوبه في الاعتذار.

لنتعرف على أسلوب النابغة في الاعتذار ينبغي علينا أن نعود إلى هذه الاعتذاريات ونتفحص معانيها ودلالاتها.

قال النابغة يمدح النعمان ويعتذر إليه مما بلغه عنه فيما وشى به بنو قريع في أمر المتجردة:

يا دار مَيَّةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ
أقْوَتْ، وطال عليها سالِفُ الأبدِ[1]
وقفتُ فيها أُصَيْلاناً أسائِلُها
عَيَّتْ جواباً، وما بالرَّبْعِ من أحدِ[2]
إلا الأواريَّ لأياً ما أُبينها
والنؤيُ كالحوض بالمظلومةِ الجَلَدِ[3]
ردَّتْ عليه اقاصيه ولبَّده
ضَرْبُ الوليدةِ بالمسحاةِ في الثَّأدِ[4]
خَلَّتْ سبيلَ أتيٍّ كان يحبسُه
ورفَّعَتْهُ إلى السجْفَين فالنَّضَدِ[5]

يخاطب الشاعر دار مية، وهو في حالة التوجع والألم،

---

(١) أقوت: خلت.

(٢) أصيلان: تصغير أصيل وهو العشي، وإنما صغره ليدل على قصر الوقت.

(٣) الأواري: محابس الخيل، واحدها آري. والنؤي: حاجز من تراب حول الخباء.

(٤) لبّده: سكنه. والوليدة: الأمة الشابة، والثأد: المكان الندي.

(٥) السجفان: ستران رقيقان يكونان في مقدم البيت، والنضد إلى جانبهما.

فقد كان معها في يوم من الأيام، وها هما يفترقان، لقد كان يقيم معها في ربوعها في سرور ونعمة، ثم انقضى ذلك.

وديار ميةّ في مكان مرتفع عن الأرض لم يضرها السيل، ولا أنهال عليها الرمل. ولهذا بقيت معالمها واضحة بعد خلوها من سكانها الذين رحلوا عنها.

مَرَّ بالديار عشياً في فترة قصيرة يتحدث إليها، ويسألها عن أهلها، والألم يعصر قلبه، ولكن الديار لم تجاوبه على سؤاله، ولم يرَ أحداً يكلمه.

وينظر الشاعر فيما حوله، فيرى محابس الخيل ومرابطها، والحواجز الترابية التي وضعت حول الخيم تحميها من سيول الأمطار.

وترد على تساؤله عن الديار، أمة شابة كان لها الدور الأساسي في حفر تلك النؤى، والتي قامت تكنس ما في مجرى الماء من مدر وغيره.

أمست خلاءً وأمسى أهلها احتملوا
أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ[1]
فعَدِّ عما ترى إذ لا ارتجاع له
وانمِ القُتُودَ على عيرانةٍ أُجُد[2]

---

(١) أخنى عليها: أي أفسد عليها الدهر الذي فسد على لُبَد آخر نسور لقمان ابن عادوهو الذي يضرب به المثل في طول العمر إذ عمر أربعمائة عام.

(٢) القتود: عيدان الرمل. الأُجُد: الموثقة الخلق.

مقذوفةٍ بدخيس النحْض بازلها

له صَريفٌ صَريفُ القعْو بالمسدِ [1]

ثم يمدح النابغة النعمان بعد انتهائه من وصف الناقة فيقول: إنه لا يرى في الناس من هو كالنعمان، وليس من يضاهيه في الوجود كرماً وعطاءً إلا سليمان عندما أمره الإله أن يبني تدمر.

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشْبِهُه

ولا أحاشي من الأقوام من أحد

إلا سليمان إذ قال الإله له

قم في البرية فاحددها عن الفند

وخيس الجنَّ؛ إني قد أذنت لهم

يبنون تَدْمُر بالصُّفاح والعمدِ [2]

فمن أطاعك فانفعه بطاعته

كما أطاعك، وآدلله على الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة

تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمَدِ [3]

إلا لمثلك أو من أنت سابقُه

سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأمدِ [4]

---

(١) الدخيس: الكثير المتداخل. والنحض: اللحم.

(٢) خيس تخييساً: سجنه، ذلله.

(٣) الضمد: الذل والغيظ والحقد.

(٤) الأمد: الغاية التي يجري إليها.

فالشاعر لا يرى أحداً يفعل فعلاً كريماً يشبه فعل النعمان، وحكمه عاماً لا يستثني منه أحداً إلا سليمان الذي استثني من القوم المنفي عنهم فقد شبه النعمان به، وسليمان الذي خاطبه ربه بصيغة الأمر ليقوم ويبني مدينة تدمر، على أن يساعده في ذلك الجن، فمن أطاعه من هؤلاء نفعه سليمان جزاء طاعته، ومن لم يطع، فالمذلة والهوان جزاؤه. فليكن شأنك أيها النعمان شأن سليمان بن داود في هذا الفعل.

ويطلب النابغة من النعمان أن يكون بعيد النظر كزرقاء اليمامة التي حذرت قومها يوماً من عدوهم وكانوا على مسافة بعيدة منهم، فلم يأخذوا بقولها لاعتقادهم أن اليمامة تتخيل ذلك تخيلاً، وكانت النتيجة أن داهمهم الغزاة وفتكوا بهم.

احكُم كحكم فتاة الحي إذا نظرتْ
إلى حمامٍ شِراعٍ وارد الثَّمَدِ

يحفه جانبا نِيقٍ وتُتْبِعُهُ
مثل الزُّجاجَة لم تُكْحَلْ من الرَّمَدِ[1]

قالت: ألا ليتما هذا الحمامُ لنا
إلى حمامتنا ونصفه فَقَدِ[2]

---

(١) النيق: الجبل.
(٢) فَقَد: أي حَسْبي.

فحسَّبُوه فَأَلْفَوْه كما حَسَبَتْ
تِسعاً وتسعين لم تَنْقُصْ ولم تزدِ[1]
فكمَّلتْ مائة فيها حمامتها
وأسرعت حِسْبَةً في ذلك العَدَدِ

يقول النابغة مخاطباً النعمان بن المنذر قائلاً: كن حكيماً في أمرك، مصيباً في الرأي ولا تقبل ممن سعى إليك، كفتاة الحي إذ أصابت ووضعت الأمر موضعه، عندما أخبرت عن عدد الحمام، وما صدقها إلا نتيجة لصفاء عينيها، وخلوهما من الرمد، إشارة هنا إلى النعمان بأن يزيل عن عينيه كل ما يعوقهما عن الرؤية الصحيحة، فيكون كزرقاء اليمامة.

بعد النصيحة التي يقدمها النابغة للنعمان بن المنذر بأن يكون كزرقاء اليمامة في دقة النظر، يعمد إلى القسم ليبرر ساحته فيقول:

فلا لَعَمْرُ الذي مُسِّحتْ كَعْبَتَه
وما هُريقَ على الأنصاب من جَسَدِ
والمؤمنِ العائذاتِ الطير يَمْسَحُها
رُكْبانُ مكة بين الفيل والسَّعَدِ[2]
ما قلتُ من سَيّئٍ مما أتيتَ به
إذاً فلا رَفَعَتْ سَوْطي إلي يَدِي

(١) الحسبة: بالفتح، هي المرة الواحدة.
(٢) الفيل: الشجر الملتف، وكذلك السعد.

إلا مـقـالـة أقـوامٍ شـقـيـت بـهـا
كـانتْ مقالتُهم قَـرْعـاً على الكَبـدِ[1]

فالنابغة يقسم بأقدس مكان عند العرب وهو الكعبة، والأنصاب التي حولها وقد أريقت عليها الدماء، ويقسم كذلك بالله تعالى الذي جعل ذلك المكان آمناً على الناس، وعلى الطير التي تنتقل بين أشجار الفيل والسعد لا ينفرها أحد، أو يؤذيها، أن النابغة ما قال قولاً سيئاً يتناول به النعمان، ولو فعل ذلك، فإنه يطلب من الله أن يشل له يده قصاصاً وعقاباً. ويرد النابغة المقالة السيئة إلى أقوام يضمرون له العداوة، فسعوا بينه وبين النعمان، فشقي بها عند الملك، واشتد وقعها عليه، لأنها هتكته بين الناس، وكأنها قرعت كبده.

•

ويكشف النابغة بعد ذلك عن عظيم حبه لمليكه، هذا الحب الذي لا يتردد معه في افتدائه بما عنده من نعمة المال والبنين: ويصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقوته وبطشه، ويمثله أسداً جائعاً يزأر، وقد وقع منه موقع الفريسة، ويستعطف النابغة النعمان فلا يجعله هو وماله فداءً له، بل جميع الناس، ويقول له: لا ترمني بما لا أطيق منك، وأنت الذي لا يستطيع الأعداء مهما تآزروا أن يثبتوا له.

---

(١) قرعاً على الكبد: أي اشتدت علي مقالتهم وهتكت من أجلها.

أنبئت أن أبا قابوس أوعدني

ولا قرار على زأرٍ من الأسدِ[1]

مهلاً فداءٌ لك الأقوام كُلُّهُمُ

وما أثمر من مال ومن ولد[2]

لا تقذفني بركنٍ لا كفاء له

وإن تأثّفكَ الأعداء بالرفدِ[3]

ويخرج النابغة من الاستعطاف إلى المديح، ثم يعود إلى الاستعطاف فيقول:

فما الفراتُ إذا هب الرياح له

ترمي غواربُه العِبْرَين بالزبَدِ

يمده كل واد مترع لجبٍ

فيه رُكامٌ من الينبوت والخضدِ

يظل من خوفه الملاح معتصماً

بالخيزرانة بعد الأين والنجدِ[4]

يوماً بأجود منه سيب نافلة

ولا يحول عطاء اليوم دون غدِ[5]

---

(١) أبو قابوس هو النعمان بن المنذر. أوعدني: هددني.

(٢) مهلاً فداءٌ لك: أي تثبت في أمري ولا تعجل علي.

(٣) لا تقذفني بركن لا كفاء له: أي لا ترميني بنفسك.

(٤) الخيزرانة: سكان السفينة، وقيل: هي المِرْدي. من أعواد المراكب.

(٥) النافلة: الفضل.

هـذا الثنـاء فـإن تسمـع بـه حسنـاً
فلم أعـرِض - أبيت اللَّعْنَ - بـالصفـدِ

هـا إنَّ ذي عِـذْرةٌ إلا تكن نـفعت
فـإن صـاحـبـهـا مشـارِكُ النـكـدِ

وقد بدأ فشبهه بالفرات في كرمه، ثم أخذ يصف الفرات في ارتفاع فيضانه، عمد إلى تفصيل الصورة، حتى يبرزها وحتى يظهر مقدرته الفنية في دقة التصوير، فهو قد علت أمواجه ورمت شاطئيه بالزبد، وهو ينساب حاملاً ما يقتلعه من الأشجار والنباتات، وإنه ليعصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصماً في مركبه بسكانها يخشى الغرق.. وقد نفى أن يكون الفرات في فيضانه أكرم من النعمان وأكثر سيباً. ودائماً يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة، ليدل على براعته، في اكتساب رضى النعمان ويبين له أنه إن لم يقبل اعتذاره فقد ألقى به في مهاوي النكد والهم.

ومن بديع اعتذارياته قصيدته العينية، وفيها يقول:

وَعِيـدُ أبي قـابـوس في غيـر كُنْهِـه
أتـاني ودوني راكسٌ فـالضـواجـعُ[1]

---

(١) في غير كنهه: أي بغير قدر الوعيد،وفي غير حقيقته. والراكس: وادٍ. والضواجع: جمع ضاجعة، وهي منحنى الوادي ومنعطفه.

فـبتُّ كـأنـي سـاورتـنـي ضئـيـلة
من الـرُّقش في أنيابهـا السمُّ نـاقـع[1]
يسهـدُ مـن ليـل التـمـام سَليمُهـا
لحَلْي الـنـسـاء في يـديـه قعـاقـعُ[2]
تنـاذرهـا الـرَّاقـون من سـوءِ سمهـا
تُـطلِّقـه طـوراً، وطـوراً تُـراجـعُ
أتـاني - أبيتَ اللَّعْن - انـك لمتني
وتلك التي تَسْتَـكُّ منهـا المسـامـع[3]

فالشاعر في البيت الأول يقول للنعمان: إن وعيدك أتاني وأنا آمن في قومي، وبيني وبينك منازل بني أسد وحُنٌّ وراءهم، فتألمت حفظاً للعهد، فبت مسهداً، كأنما لدغتني أفعى، على غير ذنب أذنبته، وهي صورة بارعة، وبت يمتلكني الخوف والرهبة، وعندما يختار النابغة الأفعى، فإنما يختار منها الضئيلة، وهي حية دقيقة قد أتت عليها السنون الكثيرة، أفقدتها لحمها، واشتد سُمُّها، وهذه الأفعى منقّطة بالسواد والبياض.

---

(١) الضئيلة: حية دقيقة. والرقش التي فيها نقط، أسود وابيض. وناقع: ثابت.

(٢) يسهد: يمنع النوم.

(٣) تستك: أي تشتد وتضيق، فلا تسمع. والسكك: ضيق الصماخ.

وهي إذا عضت إنساناً، حرم من النوم من شدة الألم، وعلق عليه أهله الحلي والخلاخيل حتى يفيق ويبرأ. قال الصقيل الأعرابي: إذا لُدغ الرجل علقنا عليه الحَلي سبعة أيام لتنفر عنه الحية، فقيل له: إنما تعلق عليه لئلا ينام، فقال: وكيف يمنعه ذلك من النوم، وإنما هو حلي النساء الذي ينمن فيه[1]. وهذه الأفعى من الأفاعي الخبيثة التي قلما استجابت للرقى، وإن الرقاة والحاوين يرهبونها ويتخوفون من أن يطأوا حِماها. ويخاطب النابغة النعمان متسائلاً عن سبب ملامته له، تلك الملامة التي أصمت مسامعه كراهة لسماعها. وهذه الملامة إذا كنت قد قلتها فإنني أستحق منك كل ما تفرضه علي، ولكنك تعلم أن هذا الأمر لم يحصل مني.

مقالةُ أنْ قد قلت: «سوف أنالُه»
وذلك من تلقاء مثلك رائع

لعمري وما عمري عليَّ بهيِّنٍ
لقد نطقتْ بُطْلاً علي الأقارع[2]

أقارع عوف لا أحاول غيرها
وجوه قرود تبتغي من تجادِعُ[3]

---

(١) انظر الديوان هامش ص ٣٣.
(٢) الأقارع: أي بني قريع.
(٣) تجادع: تشاتم.

أتـاك امـرؤ مـسـتـبـطن لي بـغـضَـةً
لـه في عـدوٍّ مثـل ذلـك شـافِـعُ[1]
أتـاك بـقـول هلْهـل الـنـسـج كـاذب
ولم يـأت بـالحق الـذي هـو نـاصـع
أتـاك بـقـول لـم أكـن لأقـولـه
ولـو كُبِّلَتْ في ساعـديَّ الجـوامِـعُ[2]
حلفت فلم أتـرك لـنـفـسـك ريـبـةً
وهـل يـأثمَنْ ذو إمَّـةٍ وهـو طـائـع[3]

يعود النابغة فيذكر أمر هؤلاء الأعداء، من بني قريع بن عوف، الذين وشوا به وأنهم قوم هانت عليهم نفوسهم فلم يحفظوا أعراضهم من رجس الشتيمة، ودنس السعاية بالسوء بين الناس، فخرجوا يطلبون المقارعة، ويتشوقون إلى المسبة، وكيف لا يكون أمرهم على هذه الصورة من الصغار وهم ليس لهم حسب يشفقون عليه، أو كرامة يحرصون عليها. ويمضي النابغة في تشويههم في هجاء لاذع فيصفهم بأنهم قوم لهم وجوه القردة ألفت طباعهم قول الباطل، وأن امرءاً منهم، في قلبه حسد يكن له العداوة والبغضاء وهو

(١) الشافع: المعين.
(٢) ولو كبلت في ساعدي الجوامع: أي لو كنت مجنوناً حتى أُشدُّ بالحديد ما قلت ما بلغك عني.
(٣) الريبة: الشك. والأُمة والإمة: الدين والطريقة المستقيمة

بدوره عدو له، فإذا هما رجلان يثيران حوله الادعاءات الكاذبة، التي لا ينطلي سخفها على المتبصر، وما كانا لينطقا بالحق البين الواضح، وهما من هما في دناءة النفس. وينفي الشاعر أن يكون قد قال شيئاً مما ذكر على لسانه، وهو الرجل المترفع الذي يكبر نفسه، فلا يجعلها تهون وما كان ليقوله ولو غُلَّتْ يداه، وكيف يقع في هذا الإثم وهو الذي يتفانى في طاعة النعمان.

بمصطحبات من لصافٍ وثَبْرَةٍ
يَزُرنَ إلالاً سَيرهُنَّ التدافُعُ[1]

سَماماً ما تُباري الريح خوصاً عيونها
لهن ذرايا بالطريق ودائعُ[2]

عليهن شعثٌ عامدون لحجِّهم
فهن كأطراف الحَني خواضع[3]

لكلفتني ذنب امرىءٍ وتركته
كذي العُرِّ يُكوى غيره وهو راتع[4]

فإن كنت لا ذو الضِّغنِ عني مكذَّبٌ
ولا حَلْفي على البراءة نافع

(١) بمصطحبات: يعني الإبل. ولصاف وثبرة: موضعان في بلاد بني تميم.
(٢) السُّمام: طيور تشبه السُّماني، شديد الطيران.
(٣) عليهن شعث: أي متغيرون من السفر. الحنيُّ: القسيُّ واحدتها، حَنيَّة.
(٤) العُرُّ: داء يصيب الإبل.

ولا أنــا مــأمــون بــشــيء أقــولــه
وأنــت بــأمــر لا مــحــالــة واقــع

ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه، ويحلف به بأيامين الوثنية، ويختار هنا الحلف بالإبل التي تصطحب في السير إلى الحج، فعظمها لذلك وأقسم بها، وهذه الإبل تقبل على مكة مسرعة سرعة السمام، حتى لكأنها تباري الريح، وقد أجهدت من السير وطول السفر. حتى إن بعضها سقط في الطريق إعياءً، فلم ينبعث ولم يستطع براحاً. وقد بقيت منها بقية عليها شعث مغبرون يقصدون الحج، وقد أخذها النحول حتى لكأنها القسي الضامرة. وهذا اليمين العظيم يقسم به متنصلاً مما سمع عنه من بعض الوشاة أنه انصرف إلى الغساسنة يمدحهم ويهجوه، وكان حريّاً به أن ينزل سخطه لا عليه، وإنما على هذا الواشي، وإلا فمثله ومثل من وسوس للنعمان مثل البصير السليم يكوى من الجرب، والأجرب راتع بجانبه لا يصيبه كي ولا أذى. وهي صورة أخرى بارعة. ويقول: إن كنت لا تكذب من يضطغن علي ولا تصدق يميني ولا حلفي فما أحراني بالرهبة منك، والخوف من بطشك.

ويبدع كذلك صورة رائعة أخرى من صوره، حين يتخيل النعمان كالليل، لا مفر لشخص من أن ينطبق عليه.

وعاد إلى الاستعطاف فصور قصائده التي يرسل بها إليه ليلين قلبه عليه كأنها خطاطيف معوجة ثبتت في حبال متينة، وأيدي النابغة تمد بها إلى النعمان تريد أن تظفر بعطفه ورضاه. ويصور له أمانته وأنه لا يخون عهده، بينما من يخونون هذا العهد يقربهم ويرعاهم، ويختم اعتذاره بمدحه والثناء عليه؛ فهو غيث منعش لرعيته، وسيف مصلت على أعدائه، وقد اصطفاه الله لرعيته فكان عادلاً وفيّاً، لا يلقى المنكر بالمعروف، ولا المعروف بالمنكر، يجزي على الإساءة إساءة، وعلى الإحسان إحساناً. وانتهى بتمثيل ما هو فيه من نعيم، فإذا هو يشرب في كأس مفضضة مزج ما فيها بالمسك والطيب.

فإنك كالليل الذي هو مُدْركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع[1]

خطاطيف حُجْنٍ في حبال متينة
تُمَدُّ بها أيدٍ إليك نوازعُ[2]

أتوعد عبداً لم يخنك أمانة
وتترك عبداً ظالماً وهو ضالع

(١) المنتأى: الموضع الذي يتنأى فيه أي يتباعد. والنأي: البعد.
(٢) الخطاطيف: جمع خطاف البئر. نوازع: جواذب.

وأنت ربيع ينعش الناسَ سَيْبُه
وسيف اعيرته المنيَّة قاطِعُ[1]
أبى الله إلا عدله ووفاءه
فلا النكر معروف ولا العرف ضائع
وتسقي إذا ما شئت غير مصرَّدٍ
بزوراء في حافاتها المسك كانِعُ[2]

ومن روائع اعتذارياته إليه قوله:

أتاني - أبيت اللَّعْن - انك لُمْتني
وتلك التي اهتمُّ منها وانْصبُ
فبت كأنَّ العائدات فرشنني
هِراساً به يَعْلَى فراشي ويُقْشَبُ[3]
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرءِ مذهب[4]

(١) السبب: العطاء. أغبرته المنية: أي يهلك أعداءه.

(٢) غير مصرد: أي غير مقلل. والتصريد: شرب دون الري. والزوراء: كأس مستطيلة مفضضة.

(٣) الهراس: الشوك واحدتها هراسة.

(٤) الريبة: الشك.

لئنْ كنت قد بُلِّغتَ عني خيانة

لَمُبْلِغُكَ الواشي أغش وأكذب[1]

ولكنني كنت امرءاً لي جانبٌ

من الأرض فيه مستراد ومذهب[2]

ملوك واخوان إذا ما أتيتهم

أحكم في أموالهم وأقربُ[3]

كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم

فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا

فلا تتركني بالوعيد كأنني

إلى الناس مطليٌّ به القار أجربُ[4]

ألم تر أن الله أعطاك سورةً

ترى كلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذب[5]

فإنك شمس والملوك كواكب

إذا طلعتْ لم يبد منهن كوكبُ

---

(١) الواشي: النمام الذي يزين كذبه عند الناس، وأصله من الوَشْي.

(٢) المستراد: الإقبال والإدبار، والمذهب: موضع الذهاب.

(٣) ملوك واخوان: يعني الغسانيين.

(٤) القار: القطران.

(٥) السورة: المنزلة الرفيعة. يتذبذب: أي يتعلق ويضطرب.

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّه

على شعث، أي الرجال المهذبُ[1]

فإن اك مظلوماً فعبد ظلمتَه

وإن تك ذا عتبى فمثلك يُعْتِبُ

لا ينفك النابغة يستعرض قضية براءته فيفند الأقاويل المنسوبة إليه، ويذكر للنعمان أنه كان قد أقسم برب الكعبة، ليبرأ من قول قذف به، ويعود فيعلمه بأنه ليس له بعد هذا القسم مرجع يلوذ به، فالله أقسى ما يطلبه المرء في هذا المجال، وأنه حري بأبي قابوس أن ينصفه من أعدائه. هؤلاء الذين تجلى فيهم الغش، وتجسد الكذب.

والنابغة في رده على حاسديه يبدو محيطاً بكل المواقف التي شنها عليه هؤلاء، ويبدو واضحاً جليّاً في الرد على تلك الافتراءات، وها هو يشير إلى علاقته بالغساسنة، فيثبت لأبي قابوس أنها علاقة قديمة، لا يجب أن تفسر على محمل الخيانة، وعلى الملك أن يتئد في النظر إليها، فالغساسنة ملوك واخوان، كان الشاعر يأتيهم، فيكرمون وفادته، ويقربونه إليهم، وأن شأنه معهم كشأن النعمان نفسه، حين يحسن إلى الذين اصطفاهم من الناس، فإذا مدحوه شاكرين، فلا ذنب عليهم..

(١) الشعث: الفساد والتفرق. والمهذب المنقى من العيوب المخلص.

ولا يهمل النابغة في هذا المجال الجانب المنطقي، حين يشير إلى الطباع والخلائق، وأن كل إنسان معرض للخطأ، وأنه ينبغي لمن اتخذ أخاً أن يصلح ما كان سيئاً من خلاله ويقوم ما كان فاسداً من خلقه، حتى يبقى على أخوته، ويتساءل: أي رجل من الناس، كامل الصفات، لا عيب فيه، ولا يحتاج إلى تقويم؟

الرثاء عند النابغة

إذا كنا قد أعجبنا باعتذاريات النابغة ومديحه فإننا نعجب أيضاً برثائه للنعمان بن الحارث الأصغر الغساني، وهو يستهله بالنسيب ثم يصف ناقته مشبهاً لها بحمار وحشي، ويخرج من ذلك إلى الرثاء، فيقول إنه أحزنه نعي النعمان، وإذا كان هذا قد سَرَّ قيساً لما أثخن فيها من جراح في حروبه معها. وهو يعبر بذلك عن وفائه واعترافه بالجميل، وإننا لنعجب من النابغة عندما يقف معارضاً قومه بني ذبيان في عدم الشماتة بموت النعمان، بل إنه ليدعو على أعدائه أن لا يهنأوا بمصرعه، ويحدثنا عن جيوشه وانتصاراتها على القبائل، ثم يقف ليرد على من جهلوا شيمته من الحفاظ على العهد، والضن بسابق الود، فقد ظن هؤلاء أنه لن يرثي النعمان، أو يأتي على ذكره، ويتساءل مستعجباً كيف يجوز أن لا يأتي على ذكره، وهو الذي أصيب بما يشبه الداء العضال لسماعه بموت النعمان، ومن يقرأ أبياته في رثاء النعمان فإنه سيجد ولا شك الإخلاص في ذلك الرثاء، وأنه يبكيه فعلاً لا رياءً، وإذا كان من عزاء للنابغة في فقده للنعمان، فهو أن الموت سنة الأحياء، وأنه كأس دائر على

الجميع فقال داعياً له ومترحماً عليه:

دعـاك الهـوى، واستجهلتـك المنـازلُ
وكيف تصـابي المرء والشيبُ شـامِـلُ
وقفت بـربـع الـدار قـد غيـر البـلى
معـارفهـا والسـاريـات الهـواطِـلُ[1]
أسـائل عن سعـدى وقـد مـر بعـدنـا
على عـرصـات الـدار سبع كـوامِـلُ[2]
فسليتُ مـا عنـدي بـرَوْحَـةِ عِـرْمِسٍ
تـخـبُّ بـرِحْلي تـارةً وتُـنـاقِـلُ[3]

يقول: انه لما رأى منازل (سُعدى) وعرفها، حركت فيه مشاعره الهادئة، وجعلته يتذكر ما كان قد نسيه، من أيام الجهل والصبابة، وها هو اليوم قد تقدم به العمر وأصبح عاجزاً عن التحدث عن الحب.

لقد وقف بربع الدار، موضع منازل الأحبة وراح ينظر فيها وقد امتلكته الرهبة، والحزن لأنه لم يعد هناك من أثر لتلك

---

(١) الربع: موضع نزول القوم، وأصله من التربع في الربيع. والساريات: سحاب يمطر ليلاً. والهطل: مطر ليس بالشديد ولا باللين.

(٢) العرصات: جمع عرصة، وهي كل فجوة ليس فيها بناء. سبع كوامل: أي سبع سنين كوامل لم ينقص منها شيء.

(٣) الديوان ص ١١٥.

الديار، سوى بعض النؤي، والأثافي، والأوتاد، وما أشبه ذلك من الآثار، والذي ساعد على زوال تلك الآثار، ومحي معالمها، تلك الأمطار الغزيرة التي تهطل فتجرف بمياهها كل أثر من تلك الآثار، لقد مر على الشاعر سبع سنين لم ير فيها هذه المنازل، ولما جاء ليراها، لم يجد سوى الفجوات التي تدل على المنازل التي كانت قائمة هناك، والتي تركها أهلها، وتغيرت آثارها، ومحيت معالمها. ولم يجد الشاعر ما ينفس فيه حزنه على ماضيه السعيد وذكرياته الجميلة سوى البكاء، وذرف الدموع، وهو يمتطي ناقته القوية كالصخرة.

مـوثَّقـةِ الأنـسـاء مـضـبـورة الـقـرا
نَعُـوبٍ إذا كـلَّ العِتـاقُ المـراسـلُ[١]

كـأني شـددت الـرَّحْـلَ حين تشـذَّرَتْ
عـلى قـارحٍ ممـا تـضمـن عـاقِـلُ[٢]

أقـبَّ كـعـقْـدِ الأنـــدري مُسَـحَّـجٍ
خـرابيَّـةٍ قـد كـدَّمَتْـه المسـاجِـلُ[٣]

---

(١) الأنساء: جمع نسا، وهو عرق يخرج من أصل العجز حتى يصير إلى الخف.

(٢) القارح: حمار قد قرح، وعاقل: اسم جبل.

(٣) الأقب: الخميصُ البطن، والأندري، جبل منسوب إلى أندر، وهي قرية بالشام.

أضـرُّ بـجـرداء الـنُّـســالـة سَـمْـحَـج

يُـقَـلِّـبُـهــا إذ أعــوزتــه الـحـلائِـلُ[1]

إذا جــاهَـدَتْــه الـشُّــدُّ جَــدّ، وإن ونت

تــســاقط الاوانِ ولا مــتــخــاذِلُ

وإن هــبــطا ســهــلاً أثــارا عــجــاجَــةً

وإن عَـلَوْا حُـزْنـاً تـشـظَّتْ جـنـادِلُ[2]

ورب بـنـي البـرشــاءِ ذهــل وقـيـسـهــا

وشيبــان حيث استبـهلتـهــا المنــاهِـل

بعد وصف المنازل والديار، ينتقل الشاعر إلى وصف ناقته، فإذا هي كما قلنا قوية كالصخرة، سريعة في سيرها، ونساها قصير موتر، شديدة الظهر، مجموعة الخلق بعضه إلى بعض، تمد عنقها عند سيرها، مستعينة به لتحديد سرعتها، وهي من كرام الإبل، اللواتي يسرن سيراً سهلاً في سرعة، وهي مهما طال بها المسير لا تتعثر في سيرها، وهذه الناقة أشبه ما تكون ببعير قارح من وحش هذا الجبل في قوته ونشاطه، والحمار الذي يصفه الشاعر كشبيه لناقته، أشبه ما يكون في طيه وشدة خلقه بجبل أندري، الذي عضته الحمر ورمحته، وهذا الحمار يصدر صوتاً قوياً عند هياجه، ومقاتلته

(١) النسالة: ما نسل من شعره وتساقط. والسمحج: الطويل الظهر.

(٢) الحزن: ما غلظ من الأرض، تشظت: تكسرت.

للحمر ليطردها عن الأُتن، ويدافعها عنها، فيعضُها وتعضُه، ثم نرى ذلك الحمار الوحشي في صورة متحركة جميلة وهو يقوم على عض أتان قصيرة الشعر، فيحدث فيها الضرر لغيرته عليها، ويحاول أن يطردها بعيداً عن غيره من الحمر، والسبب في هذا الفعل من قبل الحمار أنه لم يحصل من الأتن على غيرها، ولهذا فهو حريص على المحافظة عليها، وفي مصاحبة الحمار لأتانه نجده يتكيف معها، فإذا تخاذلت عن المسير شد هو، وإن ونت وفترت في السير والعدو تساقط هو، وهذا الحمار وأتانه إذا صارا في سهل من الأرض أثارا بعدوهما غباراً، وإن صارا إلى ما غلظ كسرا الحجارة بعدوهما.

بعد هذا ينتقل النابغة ليتحدث عن النعمان ذاكراً بعض مزاياه، وكيف كان يغير على القبائل التي كانت تحل في مواضع المياه، والأرض الخصبة، كشيبان وذهل وقيس وبني ثعلبة، وكيف كان ينزل بهم الضرر والفتك، ولم يجد صورة لتبيان أثر الضرر الذي كان يحدثه النعمان بخصومه سوى حديثه عن البرشاء والجذماء الضرتان اللتان اقتتلتا، فألقت إحداهما على وجه الأخرى ناراً، وقطعت تلك يد هذه، فصارت إحداهما جذماء بقطع يدها، والأخرى برشاء من أثر النار.

لقد عالَني ما سَرَّها وتقطعتْ
لِرَوْعاتها مِنّي القُوَى والوسائِلُ
فلا يُهْنِيءِ الأعداء مَصْرَعُ مَلْكِهم
وما عَتَقَتْ منه تميمٌ ووائِلُ
وكانت لهم ربعيَّةٌ يحذرونها
إذا خضخضت ماء السماء القبائِلُ
يسير بها النعمان تغلي قُدُورُه
تجيشُ بأسباب المنايا المراجلُ

الشاعر يبدو تعيساً حزيناً لا من موت النعمان فحسب، بل من ذلك التصرف غير المسؤول الذي تصرفه أولئك الذين فرحوا لموته، فالعلاقة التي تربطه بالنعمان علاقة مودة وإحسان، فكيف يسكت عن تصرف الشامتين، ثم يوجه النابغة حديثه إلى المبتهجين بموت النعمان من بني تميم ووائل فيقول لهم: إذا شمتم فهذا ليس بغريب عليكم، فلطالما أعمل السيف برقابكم قتلاً وتذبيحاً، عندما كان يغزوكم، ويأخذكم أسرى، وها أنتم الآن قد تحررتم من ضربة سيفه، ومن وثاق حبله الذي كان يكبلكم به.

ثم يعدد غزوات النعمان لهؤلاء، فإذا هي غزوات في الربيع، وغزوات في الشتاء. غزوات كان يقود فيها النعمان

الكتائب من الجيش فتغلي قدوره لشدة حربه، وقوته على عدوه، كما تجيش بأسباب المنايا المراجل.

يحُثُّ الحُداةَ جالزاً بردائه
يقي حاجبيه ما تثير القنابلُ[1]

يقول رجالٌ ينكرون خليفتي
لعل زياداً - لا أبا لك - غافِلُ[2]

أبى غَفْلتي أني إذا ما ذكرته
تحرك داءٌ في فؤادي داخِلُ

وإن تلادي إن ذكرتُ وشكُتي
ومُهْري وما ضمت لديَّ الأنامِلُ[3]

حباؤك، والعيسُ العِتاقُ كأنها
هجانُ المها تُحْدي عليها الرّحائِلُ[4]

يصف هنا النابغة النعمان وهو يتحرك لمقاتلة أعدائه، فإذا هو يعصب رأسه بردائه. ويغطي حاجبيه ليتقي الغبار المتصاعد بكثرة من حوافر الإبل المسرعة، والخيل المتوثبة.

وأعداء النعمان يستهجنون موقف النابغة، وأنه جُبِل

---

(١) الحداة: الذين يسوقون الإبل. جالزاً بردائه: أي عاصباً رأسه بردائه.

(٢) الخليقة: الطبيعة. وزياد: اسم النابغة.

(٣) التلال والتالد: ما ورث عن الأباء. والشكة: جملة السلاح.

(٤) الحباء: العطاء. والعيس: البيض من الإبل. وهجانها: بيضها.

من طبيعة غير طبيعتهم لموقفه المعارض لموقفهم، ويقولون ما بال زياد يقف هذا الموقف من رجل قاتلنا وسفك دماءنا.

فيجيب النابغة كيف لي أن أغفل عن موت النعمان، وأسلو عنه، وأنا أتذكر أياديه علي، وإحسانه لي، إن هذا التذكر يهيج ما بي من ألم لفقده، فما أملكه من مال وسلاح وخيل هو كله من صنيع يديه. ويحدد النابغة من الهدايا بوجه خاص الإبل البيض، وهي أكرم الإبل، والتي تشبه في جمال عينيها ولونها الأبقار الوحشية البيضاء، كان يهبها برعاتها إمعاناً منه بالإكرام والبذل.

فـإن تَـكُ قـد ودَّعْـتَ غيـر مـذمَّـمٍ
أواسي مُـلْكٍ ثـبـتـتْـهـا الأوائِـلُ
فـلا تَـبْـعَـدَنْ إن الـمنـيَّـة مَـوْعِـدٌ
وكـل امرىء يـومـاً بـه الحـالُ زائِـلُ
فمـا كـان بَيْنَ الخيـر لـو جـاء سـالمـاً
أبـو حُـجُـرٍ إلا لـيـالٍ قـلائِـلُ
فـإن تحْيَ لا أمْلَلْ حيـاتـي وإنْ تَمُـتْ
فمـا في حياةٍ بعـد مَـوْتِـك طـائِـلُ

ويستطرد النابغة القول في النعمان مخاطباً نفسه والناس جميعاً، أنه وإن كان قد ودع رجلاً سار إلى رحمة

ربه، فإن ذلك الرجل قد ترك وراءه ذكراً طيباً من الشجاعة والكرم، مما جعله يثبت ركائز ملكه الذي أقامه له من سبقوه من الآباء والأجداد.

ثم يعزي النابغة نفسه لفقده من يحب، فيرى أن المنية موعد لكل حي، فكل إنسان لا محالة سيؤوب إلى ربه، لكن فقدان النعمان ليس كفقد سائر الناس، فهو إذا مات ترك الكثير من الخيرات تذهب عن الناس، بينما لو قدر له الحياة لكانت هذه الخيرات تذهب إلى مستحقيها.

ويخاطب النابغة النعمان فيقول له: إذا حييت لم أملل الحياة لما أدركه من الخير والنعمة، وإن مت فما في الحياة من خير بعدك ولا نفع.

فــآب مــصــلُّوه بــعــيــن جــلــيــلــةٍ
وغــودِرَ بــالــجــولان حــزْمٌ ونــائِــلُ
سقى الغيث قبــراً بين بصرى وجــاسم
بــغــيــث من الــوسْــمــي قــطرٌ ووابــلُ[1]
ولا زال ريــحــانٌ ومــســكٌ وعَــنْــبَــرٌ
عــلى منتــهــاه ديــمــة ثــم هــاطِــلُ[2]

(١) بصرى وجاسم: هما موضعان بالشام. والوسمي: أول المطر لأنه يسم الأرض بالنبات.

(٢) على منتهاه: أي على قبره.

ويـنـبـت حـوذانـا وعَـوْفـاً مـنـوَّراً
سـأتبعُـه مـن خيـر مـا قـال قـائِـلُ
بكى حـارِثُ الجـولان من فـقـد ربِّـه
وحـوران مـنـه مـوحش متضـائِـلُ[1]

يستمطر النابغة على قبر النعمان شآبيب الغيث، ولا يكتفي بذلك بل يدعو له أن يظل قبره معطراً بالريحان والمسك والعنبر، ولا تزال تمده الأمطار بما يُنْبت عنده النباتات العطرة من مثل الحوذان والعوف. وحقاً كان الشعراء حوله ومن قبله يستسقون السحاب لقبور من يفقدونهم، ولكنه مدَّ أطناب الصورة بذوقه الخضروي وأضاف إليها الريحان والمسك والعنبر، ودعا للأرض أن تنبت من حول النعمان الأزهار والرياض. ولم ينسَ أن يشارك الجماد مع الإنسان في حزنه على النعمان حين جعل جبل الجولان وحوران بوحشة فقده.

قـعـوداً لـه غـسـان يـرجـون أوبـه
وتـركُ ورهط الأعـجـمـيـن وكـابُـلُ

وأخيراً يرينا النابغة حالة الحزن التي عليها الغساسنة، وكيف أنهم كانوا مستشرفين إليه، راجين دوام حياته، لما كانوا يدركون به من المتعة والتمكن والنعمة.

(١) حارث الجولان: جبل في الجولان، وهو موضع بالشام.

وقال النابغة يرثي حصن بن حذيفة الفزاري:

يقولون حِصْنٌ ثم تأبى نُفُوسُهمْ
وكيف بحصن والجبالُ جُنُوحُ[1]

ولم تلفظ الموتى القبورَ ولم تزلْ
نجوم السماء والأديم صحيح[2]

فعما قليل ثم جاش نعيُّه
فبات نديُّ القوم وهو ينُوحُ[3]

يقول النابغة: مات حصن، وكيف يموت حصن والجبال تبدو على حالها لم يصبها التصدع، ولا تزال الأرض تحتفظ بما فيها من القبور لم تلفظها، ونجوم السماء تظهر ما فيها. وعما قليل ترتفع الأصوات صارخة بنعيه، ويبيت مجلس القوم نائحاً على سيده.

وقال يرثي النعمان بن الحارث ـ ويقال إنه رثى بهذه القصيدة أسد بن ناغضة التنوخي:

قل للهمام، وخير القول أصْدقُه
والدَّهْرُ يومِضُ بعد الحال بالحالِ[4]

(١) يقال: جنح الظلام إذا بدا.

(٢) أديم السماء: ما ظهر منهما (الديوان ص ١٩٠).

(٣) قال ابن الأبناري: جاش الشيء: إذا ترتفع. والندى: المجلس.

(٤) يومض: أي يلمع.

مــاذا رزئـنــا بــه مــن حـيــةٍ ذكــر
نضنــاضــة بــالـرزايــا صـلٌ أصــلال[1]
وغــالــة في دجى الأهــوال قــد نــزلتْ
خــراجــةٍ في ذراهــا غيـرِ زُمَّــالِ[2]
مــاضٍ يكــون لــه جدٌّ إذا نــزلتْ
حَــرْبٌ يــوائــلُ منهــا كــل تـنبــالِ[3]

يخـاطـب النابغـة الـمفقـود بقـول كـله صـدق أن المفـقــود بـطل شجاع أفقده الدهر من بين أهله، والدهر متلون المواقف، فهو تارة يأتي بالخير، وتارة أخرى يأتي بالشر. ويتوجه بحديثه إلى النعمان بن المنذر، فـإذا هو كالحية الذكر تنزل بالناس المصائب، وهذا الرجل يدخل في كل شيء تكتنفه الأهوال، ليخرج منها قوياً لا يعرف الذل أو الهوان. وله ماضٍ لا يعرف فيه إلا الجد إذا نزلت الحرب، ولا ينجو من بين يديه إلا كل عاقل آثار الفرار على المواجهة.

---

(١) نضناضة: حية منكرة. والصل كذلك الحية.
(٢) الوغال: الدخال في كل شيء. وزمال: ضعيف لا خير عنده.
(٣) جدّ: من المجادة وهو الانكماش. يوائل: ينجو (الديوان ص ١٦٥).

الهجاء عند النابغة

قال النابغة يهجو زرعة بن عمرو بن خويلد وقد لقيه بعكاظ، فأشار عليه أن يشير على قومه بترك بني أسد وترك حلفهم، فأبى النابغة، وبلغه أن زرعة يتوعده.

قال أبو عبيدة: لم أسمع كتعنيف النابغة في هذه القصيدة، وقد خرج من كلامه في الحسن والاستواء حتى كأنه يصف بعيراً، أو يذكر دياراً.

نبئْتُ زُرْعَة والسفاهة كاسْمِها
يهدي إلي غرائب الأشعارِ
فحلفت يا زُرْعَ بن عَمْرو انني
مما يَشقُّ على العدوّ ضراري[1]
أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني
تحت العجاج فما شققت غُباري[2]

يستهل النابغة هجاءه بوصف زُرْعة بن عمرو بالسفاهة، لأنه تجرأ عليه بالتهديد والوعيد، وهو يعلم ضمناً أن النابغة

(١) مما يشق على العدو ضراري: أي ربما يشق. والضرار: الدنو من الشيء واللصوق به.

(٢) فما شققت غباري: أي سبقتك في المفاخرة. والعجاج: الغبار.

لا يكترث بكل هذه الأنواع من التصرفات، وخاصة إذا كانت القضية تتصل بالشعر، والنابغة معروف عنه ما هو عليه في هذا المجال. بينما زرعة غير مشهور بالشعر ولا منسوب إليه، فالشعر غريب من قبله؛ إذ ليس من أهله.

ثم يصف النابغة نفسه فإذا هو قوي عزيز يكره العدو مجاورته له، بينما هو يفخر بهذا على زرعة بن عمرو.. ويتوجه النابغة إلى زرعة بقوله: لقد سبقتك في المفاخرة، وبعد ما بيني وبينك فلم تلحقني، ولم تسع سعي، فقد جبنت عني، ولم تدخل في غباري.

إنـا اقـتـسـمـنـا خطـتـيـنـا بـيـنـنـا
فحمـلـت بـرة واحـتـمـلتَ فـجـارِ[1]
فلتـأتـيـنـك قـصـائـد ولـيـدفعـنْ
جـيـشـاً إلـيـك قـوادِمَ الأكـوارِ[2]
رهْطُ ابـن كـوز مـحـقـبـي ادراعـهـم
فـيـهـم ورهْطُ ربـيـعـة بـن حُـذارِ[3]

---

(١) الخطة: القصة والخصلة. وبرة: اسم علم، وصفة من البر.

(٢) واحد القوادم: قادم وهو بمنزلة القربوس من السرج. والأكوار: الرّحال (الديوان ص ٥٤).

(٣) محقبي ادراعهم: أي ما عليها في حقائب الرحال، وابن كوز وربيعة بن حذار من بني أسد.

ولــرهْطِ حــرَّابٍ وقــدٍّ سُــورَةٌ
فــي المــجــد لــيس غــرابُـهــا بمطــارِ[1]

يقول النابغة لزرعة بن عمرو لقد اقتسمنا خطتينا بيننا فكانت لي أنا البرَّة، وأخذت أنت الفاجرة، فقد دعوتني إلى الغدر ببني أسد ونقض حلفهم، فكنت في تصرفك هذا غادراً فاجراً، بينما أنا حافظت على تلك المحالفة، فكنت في تصرفي أميناً وفياً. وإذا كنت قد بعثت إلي بالوعيد والتهديد، فإنني سأبعث إليك جيشاً من الفرسان، من راكبي الخيول، والجمال، وقد جعلوا أدرعتهم في حقائبهم، لتكون معدة ممكنة، فإذا فزعوا لبسوها، وهؤلاء الفرسان هم من رهط ابن كوز، وربيعة بن حذار من بني أسد. كما انضم إليهم رهط حرابٍ وقدٍّ، وهؤلاء شرفهم ثابت وليس بزائل.

وبــنــو قُــعَــيْــنٍ لا مــحــالــة أنَّــهــم
آتــوك غــيــرَ مُــقَــلَّمــي الأظــفــارِ
سَهكين مــن صَــدَإ الحــديــدَ كــأنَّــهمْ
تــحــت الــسَّــنَّــورِ جِــنَّــةُ البــقَّــارِ[2]

---

(١) حراب وقدّ: رجلان من بني أسد. والسُّورة: المنزلة الرفيعة. وقوله ليس غرابها بمطار: أي شرفهم ثابت باق وليس بزائل. وضرب هذا مثلاً.

(٢) سهكين: أي عليهم سهكلة الحديد، وهي الرائحة المتغيرة، والبقار: اسم رمل كثير الجن.

وبنو سُواءة زائروك بوفدهم
جيشاً يقودُهُمُ أبو المظفارِ
وبنو جذيمة حيُّ صِدْقٍ سادةٌ
غلبوا على خَبْتٍ إلى تِعشارِ
متكنّفي جنبي عكاظ كليهما
يدعو بها ولدانُهم عَرْعارِ

ويستمر النابغة في وصف الأحلاف فيصل إلى بني قعين فإذا هم يذهبون إلى زرعة غير مقلمي الأظفار تهيؤاً لمحاربته، وسلاحهم كامل، لبسوا سهكة الحديد، فبدوا كأنهم الجن لنفوذهم في الحرب.

ثم بنو سواءة، وأبو المظفار من بني أسد، وبنو جذيمة، هؤلاء توجهوا جميعاً لمقاتلة زرعة والقضاء عليه.

قوم إذا كثر الصياح رأيتهم
وُقُراً غداة الروع والإنفارِ
والغاضريُّون الذين تحمَّلوا
بلوائهم سيراً لدار قرارِ
يَمشي بهم أدْمٌ كأن رحالها
علق هُريق على مُتُون صوارِ[1]

(١) الأدم : الإبل البيض. الصوار: قطيع بقر الوحش.

شُعَبُ العِلافيات بين فروجهم
والمحصناتُ عوازِب الأطهارِ

وهؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم النابغة تراهم في الحرب يتصرفون عكس غيرهم، ففي الوقت الذي نجد فيه الناس يضجون في الحرب، ويستخفهم الفزع، نجد هؤلاء القوم سكوتاً ثابتين عند الروع والإنفار. وهم إذا تحولوا من مكان إلى آخر، فإنما يكون تحولهم للثبات والاستقرار، لا لكثرة التحول. وهم في تنقلهم يركبون الإبل العتاق الكريمة، التي تشبه الأبقار الوحشية، وهم لحمرة أمتعتهم التي على ظهورهم، يبدون وكأنهم ملطخون بالدماء. وهؤلاء القوم لحبهم لشرفهم اختاروا القتال وعناقه، على معانقة النساء المحصنات المطهرات، فتركوهن، ولم يبالوا بطهر نسائهم لإيثارهم الغزو.

بُرُزُ الأكفِّ من الجذام خوارِجٌ
من فرج كلِّ وصيلة وإزار[1]
شمس موانِعُ كلِّ ليلةِ حُرَّةٍ
يُخْلِفْنَ ظنَّ الفاحش المِغْيارِ

(١) الخدام: الخلاخيل، واحدها خدمة. والوصيلة واحدها الوصائل. وهي ثياب حمر يمانية.

جمعاً يظلُّ به الفضاء مُعَضَّلا
يَدَعُ الإكامَ كأنَّهنَّ صَحاري[1]
لم يُحْرِموا حُسْنَ الغِذاءِ وأُمُّهم
طفحتْ عليك بناتق مِذْكارِ

بعد وصف النابغة لأحلافه من زاوية السلاح والأمتعة والشجاعة، يعمد إلى وصفهم من زاوية حسن الخَلْق؛ فإذا هم يلبسون الثياب الحمر اليمانية الفاخرة، ويتحلون بالمعادن الثمينة. وهؤلاء النسوة اللواتي تركهم أزواجهم يمتنعون عن ارتكاب أية فاحشة تسيء إلى أزواجهن.

حولي بنو دودان لا يعصونني
وبنو بغيضٍ كلُّهم أنصاري
زيد بن زيد حاضر بعُراعِرٍ
وعلى كُنَيْبٍ مالكُ بن جِمارِ[2]
وعلى الرُّميثة من سكين حاضِرٌ
وعلى الدُّثَنيةِ من بني سيَّارِ[3]

---

(١) المعضل: الضيق. والإكام: الكُدَى (وهي الأرض الغليظة الصلبة).

(٢) عراعر: اسم ماء، وكنيب: ماء لبني فزارة. والحاضر: المقيم على الماء.

(٣) الرميثة، والدثينة: ماءان لبني فزارة، وسكين بن بني فزارة.

فيهم بناتُ العسجدي ولاحقٍ
وُرْقاً مراكِلُها من المضمارِ

ومن القبائل التي تجهزت للقتال مع النابغة وضد زرعة ابن عمرو، بنو دودان من بني أسد. وذبيان بن بغيض كلهم أنصار للنابغة، وكذلك زيد بن زيد المقيم على ماء عُراعر ومالك بن حمار من بني فزارة. وكذلك بنو فزارة وسكين القائمون على ماءي الرميثة والدثينة، فهؤلاء أهل خيل وحروب.

يتحلَّبُ اليعضيدُ من أشداقها
صُفْراً مناخرُها من الجرجارِ(1)
تُشلى توابعها إلى الألافها
خبَبَ السّباعِ الوُلّه الأبكارِ(2)
إن الرُّميثة مانعٌ أرماحُنا
ما كان من سَحَمٍ بها وصفارِ
فأصَبْنَ أبكاراً وهُنَّ بأمّةٍ
أعجلنهنَّ مظنّة الاعذارِ(3)

(1) اليعضيد: بقل رطب كثير الماء، والجرجار: نبت له نور أصفر.
(2) تشلي توابعها: يقال: أشليت الفرس والكلب ونحوه، إذا دعوته إليك، والإلاف: جمع ألف وألفه وهي التي تألف غيرها وتسكن إليه، كالأم ونحوها.
(3) المظنة: الوقت الذي يقدر فيه الشيء ويظن. والاعذار: الختان.

ويصف الشاعر حالة خيلهم فإذا هي ترعى في خصب، فهي ترعى العضيد، فتتساقط بقيته من أشداقها، وترعى الجرجار فتصفر من نوره مناخرها.

وبعض هذه الخيل تدعو أولادها إليها، وأخرى تتبعها أولادها، ونوع آخر من هذه الخيل تراها والهة حزينة لفقدها أولادها التي وضعتها أول بطن. هذه الخيل هي التي أعدت لمقاتلة زرعة بن عمرو.

وقال النابغة في بني عامر يهجوهم:

ليهنىء بني ذبيان أن بلادهم
خلت لهم من كل مولى وتابعِ
سوى أسدٍ يحمونها كل شارق
بألفي كميٍّ ذي سلاح ودارعِ
قعوداً على آلِ الوجيه ولاحق
يُقيمون حولياتها بالمقارعِ[1]

يهنىء النابغة قومه لتمسكهم بحلف بني أسد، وتخليهم عن غيرهم من الحلفاء والتابعين، لأن في بني أسد توجد العزة والمنعة، ويحذر قومه من الأخذ بقول بني عامر

(١) حولياتها: جذعانها. يُقيمون: أي فيها اعتراض ونشاط فهي تقوم بالعصا ولا تقرع.

الذين يحاولون إقناع بني ذبيان بالتخلي عن بني أسد. ويصف النابغة بني أسد فإذا هم يحمون أرض بني ذبيان كل صباح حين تشرق الشمس، وإنما خص الصباح لأنهم كانوا لا يغيرون إلا في الصباح ركوباً على خيل هي من نسل الوجيه ولاحق، وهي قوية لا تحتاج في سرعتها لاستعمال السياط.

يهزون أرماحاً طوالاً متونها
بأيدٍ طوال عاريات الأشاجع[1]
فدعْ عنك قوماً لا عتاب عليهمُ
هم ألحقوا عبساً بأرض القعاقعِ
وقد عَسَرتْ من دونهم بأكفهم
بنو عامر عسر المخاض الموانعِ
فما أنا في سهم ولا نَصْرِ مالكٍ
ومولاهم عَبْدِ بن سعد بطامعِ
إذا نزلوا ذا ضَرْغدٍ فعُتائداً
يغنيهم فيها نقيق الضفادعِ[2]

---

(١) الأشاجع: عصب ظاهر الكف واحدها أشجع، وعاريات الأشاجع: أي هم أصحاب حرب وسفر.

(٢) ضرغد: اسم موضع.

يستمر النابغة في وصف بني أسد فإذا هم فيهم شدة خلق وكمال قوة، فرماحهم طويلة كاملة لذلك، وإذا طالت أيديهم فأجسامهم طويلة لا محالة، وهم أصحاب سفر وحرب، فأذرعهم ممشوقة، وأشاجعهم عارية من اللحم.

ويخاطب زرعة بن عمرو العامري: دع بني أسد، ولا تعاتب على حلفهم، لأنهم أهل عزة ونجدة. وأرض القعاقع، وهم الذين أخرجوا عبساً من ديارهم إلى غيرها. على أن بني عامر قد منعت من دونهم، وذبت عنهم، ولهذا فالنابغة لا يطمع في خير من هؤلاء، ولا يرجو نصرهم، فكيف إذاً يترك حلف بني أسد ويحالفهم، وهم الذين ينزلون بالجرار لذلهم وقلتهم، فالضفادع تغنيهم فيها.

قعوداً لدى أبياتهم يثمدونها
رمى الله في تلك الأنوف الكوانع[1]

وبنو عامر لا يكادون يفارقون البيوت، ولا يخرجون لغارة، لضعفهم وقلتهم، حتى ولا طلباً للرزق، فكأنهم يسألون البيوت ويسترزقونها.

ويدعو النابغة ربه لأن يقطع أنوف هؤلاء القوم، ويستأصلها، لأنها ذليلة دنيئة.

---

(١) الديوان ص ٨٧ ـ ٨٨.

وقال النابغة يهجو يزيد بن سنان بن أبي حارثة لأنه عيره في انتسابه وأهل بيته إلى بني عذرة:

جمِّعْ محاشك يا يزيد فإنني
أعددت يربوعاً لكم وتميما

ولحقت بالنسب الذي عيرتني
وتركت أصلك يا يزيد ذميما

عيرتني نسب الكرام وإنما
فخر المفاخر أن يعد كريما

يهدد النابغة يزيداً ويتوعده ويقول له إجمع محاشك وهم أربعة أحياء من فزارة ومرة، وهم لا خير فيهم لأنهم لقبوا بهذا اللقب، بينما النابغة أعد لهؤلاء يربوعاً وتميماً.

ويفتخر النابغة بالنسب الذي عيره فيه يزيد، بينما قوم يزيد هم أحق بالمذلة، وقوم النابغة الذي عيره بهم يزيد هم كرام، وأهل فخر وعزة.

حَدِبَتْ عليَّ بطونُ ضِنَّة كلها
إن ظالماً فيهم وإن مظلوما

لولا بنو عوف بن بهثة أصبحت
بالنُّعْف أمُّ بني أبيك عقيما[1]

(١) الديوان ص ١٠١ - ١٠٢.

وهؤلاء القوم من بني قضاعة وعذرة يعطفون على النابغة وعلى قومه ويعينونهم ظالماً كان فيهم أو مظلوماً، ثم يقول لزيد لولا بنو عوف لقتلت أنت وأخوتك، فتبقى أمك كأنها عقيم لم تلدِ قط فقد حدث أن أغار عمرو بن كلثوم على رهط يزيد فأغاثهم زيد بن عوف وأسروا عمراً وإلى هذا يشير النابغة.

وقال يهجو عامر بن الطفيل لتعرض هذا للنابغة في شعرٍ يتهدده به.

فإن يك عامِرٌ قد قال جهلاً
فإن مظنَّة الجهْل الشُّبابُ
فكُنْ كأبيك، أو كأبي بَراءٍ
توافِقْكَ الحكومةُ والصوابُ
ولا تذهب بحلمك طاميَاتٌ
من الخيلاءِ ليس لهن بابُ
فإنك سوف تحلمُ أو تناهى
إذا ما شِبْتَ أو شاب الغرابُ

يرى النابغة أن أسوأ صورة يمكن أن يصور بها الإنسان هي أن يوصف بالغباء والجهل في زمن الشباب، وهذه الصفات ملازمة لعامر بن الطفيل تنمو بنموه، وتكبر بكبره

ومن ظواهر الجهل هو أن يعمد المرء إلى سب غيره كما فعل عامر بن الطفيل.

وينصح النابغة عامراً بأن يكون على الأقل مثل أبيه أو عمه عامر بن مالك ملاعب الأسنة فيوافقه الحكم الصحيح والصواب المحقق. لا أن يكون من المتكبرين الذين يجنحون بخيالهم بعيداً عن الواقع الذي لا حدود له، ولا منتهى، ويستبعد النابغة أن يكون عامراً في يوم من الأيام حليماً، حتى ولو شاب الغراب فإنه لا يشيب.

فإنْ تكن الفوارس يوم جِسْيٍ
أصابوا من لقائك ما أصابوا

فما إنْ كان من نسبٍ بعيدٍ
ولكنْ أدركوك وهم غضابُ

فوارسُ من مَنُولة غيرُ ميلٍ
ومُرَّة، فوق جَمْعِهِمُ العقابُ(1)

ويذكر النابغة عامر بن الطفيل بالمواقع التي كانت فيها الغلبة لذبيان على عامر، ويوم قتل حنظلة بن الطفيل في إحدى هذه المعارك. ويوم تفاخرت بمن هم ليسوا من عشيرتك، بل كانوا كلهم من قيس عيلان، وأغضبتهم فعاقبوك. بينما الذين يتفاخر بهم النابغة هم من الفوارس

(1) الديوان ص ١٠٩ ـ ١١٠.

الشجعان من بني فزارة بن ذبيان، ومرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، هؤلاء يسيرون إلى أعدائهم على الخيل المسرجة، وتحت الراية الخفاقة.

وقال يهجو يزيد بن عمرو بن الصعق الذي افتخر على بني ذبيان وأحلافهم لانتصار بني عامر وبني تميم عليهم في إحدى المواقع:

لعمْرُك ما خَشِيتُ على يَزيدٍ
من الفخر المُضلَّلِ ما أتاني
كأن التاج معصوباً عليه
لأذوادٍ أُصِبْنَ بذي أبانِ
فحسبك أن تهاض بمحكمات
يَمُرُّ بها الرويُّ على لساني
فقبلك ما شُتِمتُ وقاذعوني
فما نَزُر الكلامُ ولا شجاني
يصُدّ الشاعرُ الثُّنيان عنّي
صدود البَكْرِ عن قرْم هجاني[1]
أثرْتِ الغيَّ، ثم نزعتْ عنه
كما حاد الأزبُّ عن الظِّعانِ

---

(١) الثُّنيان والثِّنيان: الذي دون البدء. والبدء: السيد. والقرم: الفحل الكريم من الإبل. والهجان: الإبل البيض.

لا يهتم الشاعر كثيراً بذلك الفخر المغلف بالادعاء الكاذب بالشجاعة من قبل يزيد بن عمرو فهو شخص قد ركب الغواية والضلالة، فراح يعقد التاج عليه، ويعصب رأسه لا لشيء إلا من أجل ذلك النذر اليسير من الغنائم التي أخذها من بني ذبيان وأحلافهم.

ويقول له النابغة إن ما حظيت به لا يغير شيئاً من ضعفك المعنوي، فأنت رجل مهان كسير العظم، وإذا تجرأ يزيد بن عمرو على هجو النابغة، فإن النابغة قد تعود على ذلك فلطالما هجي من إناس لا يرقون إليه منزلة أمثال يزيد بن عمرو، ولم يؤثر ذلك فيه شيئاً، ولم يحزن له. ويقابل النابغة بينه وبين يزيد، فإذا هو كالفحل الكريم من الإبل، من حيث المستوى الشعري، وإذا يزيد بن عمرو العامري كالبكر من الإبل، لأنه لا يقاومه في الهجاء، كما لا يقاوم البَكْرُ القَرْمُ، ولا يطيقه.

لقد آثر يزيد بن عمرو الغي والفجور حين تعرض لهجاء النابغة، ثم فَرَّ منه، كما يفر الأزبُّ من حبل الهودج، ويحيد عنه.

فــإن يــقــدر عــلـيـك أبــو قُــبَـيْـس
تُــمَطُّ بـك الـمـعـيـشـة فـيَ هــوانِ

وتخضبْ لحْيَةٌ غدرت وخانتْ
بأحمر من نجيع الجوف آني
وكنت أمينه لو لم تَخُنْهُ
ولكن لا أمانة لليماني[1]

ويُدْخِل النابغة في صراعه مع يزيد بن عمرو النعمان بن المنذر، فيهدد به يزيداً، ويقول له: إن النعمان لو أرادك في سوء لألحق بك الهوان والمذلة ويطلب النابغة الخضاب بالدم للحية يزيد بن عمرو لغدرها وخيانتها، وليس هذا بغريب على واحد أمثال يزيد بن عمرو، فهو وعشيرته لا خير فيهم ولا أمانة لهم لأنهم من اليمن.

ومما قاله في هجاء عُيَيْنَة بن حصن لأنه أراد أن يخرج بني أسد من حلف بني ذبيان انتصاراً لبني عبس الذين تقاتلوا مع بني أسد:

غَشِيتُ منازلاً بِعُرَيتِناتٍ
فأعْلَى الجزْع للحَيِّ المُبِنِّ[2]
تعاوَرَهُنَّ صرف الدَّهْرِ حتَّى
عفون، وكل مُنْهمرٍ مُرِنِّ[3]

(١) الديوان ص ١١٢ - ١١٣.
(٢) عريتنات: موضع. والجزْع: منعطف الوادي.
(٣) تعاورهن: أي تداولهن وتعاقب عليهن.

وقفت بها القلُوصَ على اكتئاب
وذاك تفارُطُ الشّوقِ المُعَنّي[1]

أسائلها وقد سفحتْ دُمُوعي
كأنْ مفيضَهُنَّ غُرُوبُ شَنٍّ[2]

بكاءُ حمامة تدعو هديلاً
مفجَّعةٍ على فننٍ تغنّي[3]

أتى الشاعر لزيارة منازل كانت مقامة في موضع على منعطف الوادي في زمن الربيع. وهذه المنازل تداولت عليها صروف الدهر وتعاقبت، فدرست رسومها وكادت تزول من وقع المياه المتتالي عليها، وجرفه لها، وقفت ناقته القلوص على تلك الآثار، فحزنت لما رأته، واشتاقت للماضي القريب يوم كانت هذه المنازل تعج بساكنيها. ثم راحت دموع الشاعر تسيل على خديه، لا تنضب، كما ينضب الماء من القِربة البالية.

وكان بكاؤه أشبه ما يكون ببكاء الحمامة المفجعة بفقد فرخها على عهد نوح.

الكني يا عُيَيْنُ إليك قولاً
سأهديه إليك إليك عنّي

(١) القلوص: الفتية من النوق. والتفارط: التقادم.
(٢) الشّنُّ: القِرْبة البالية.
(٣) الديوان ص ١٢٥ - ١٢٩.

قوافي كالسلام إذا استمرتْ
فليس يَرُدُّ مذهبها التظني
بهن أدينُ من يبغي أذاتي
مداينة المداين فليدني
أتخذل ناصري، وتعز عبساً
أيربوعَ بن غيظ للمعنِّي
كأنك من جمال بني أقيش
يُقَعْقَعُ خلْفَ رِجْلَيْهِ بشَنُّ

يزجر النابغة عيينة بن حصن، ويدعوه للابتعاد عنه، والتخلي عما تسول له نفسه من أفعال قبيحة تتجسد في إقناع بني ذبيان بالتخلي عن بني أسد لصالح بني عبس، وهذا أمر يغضب النابغة لأن بني أسد هم أخوال النابغة، ولهذا نجد النابغة يتوعد عيينة بالهجاء والحرب. وإن خير ما يرسله النابغة لعيينة من أدوات الفتك هي قوافي الشعر التي هي كالحجارة في قوتها وإحكام وصفها وشدتها، ولا ترد لمجرد الظن بذلك.

ثم يحذر النابغة عيينة بن حصن قائلاً: كما تدين تدان، أي كما تصنع يصنع بك فلا تتمادى بغيك. ويقول له أيضاً أتخذل بني أسد، وهم أنصاري، ثم دعا يربوع بن

غيظ، وهم رهط النابغة، واستغاث بهم ضد عيينة ودعاهم للتعجب منه لأنه يتدخل بما لا يعنيه، فيعود عليه فعله هذا بسوء المغبة.

ويسأل النابغة عيينة: هل هو جِمال بني أقيس التي ليست بإبل عتاق، ويضرب المثل بنقارها، لجبنه وخفته عند الفزع؟

تكون نعامة طوراً، وطوراً
هُويَّ الريح ينسِجُ كلَّ فَنِّ
تَمَنُّ بعادهم واستبقِ منهمْ
فإنك سوف تُتْرَكُ والتمنّي
لدى جَرْعاءَ ليس بها أنيسٌ
وليس بها الدَّليلُ بمُطْمَئِنِّ[1]
إذا حاولتَ في أسد فُجُوراً
فإني لستُ منك ولست منّي
فهم دِرْعي التي استلأمْتُ فيها
إلى يوم النِّسارِ وهم مِجَنّي[2]
وهمْ وردوا الجفارَ على تميمٍ
وهم أصحاب يوم عكاظ إني

(١) الجرعاء: أرض ذات رمل وطين.
(٢) النسار: موضع كانت فيه وقعة.

يقول النابغة لعيينة: أنت من جهلك وخرقك علينا، وأذاك إيانا، كأنك نعامة في جهلك؛ تجول هاهنا وهاهنا، أو كالريح في اختلاف هبوبها لخرقك وحمقك وقلة عقلك. إنك تتمنى بعد بني أسد عن بني ذبيان لتنزل الأذى بهم، ولكن كل ما تخطط له مجرد تمنٍّ وأنا أنصحك بترك هذا التمني، والبعد عن بني أسد، وإلا فسوف ينزل بك منهم ما تكره، وتخذل حتى تصير ليس في يدك إلا الأماني ولا ينفعك حينئذ شيء.

وفي موقف عيينة من بني أسد أشبه ما يكون في نظر النابغة بتلك الفلاة التي لا يهتدى فيها، فإذا كان الدليل لا يطمئن بها فغيره أحرى بذلك، وهكذا عيينة بن حصن في انفراده بأمانيه وخذلانه وحيرته.

وبنو أسد هم درع النابغة، وبهم يقوى على العدو، فهم الذين وردوا الجفار ونزلوا على تميم،وهم أيضاً خاضوا يوم عكاظ، يوم كانوا فيه مع قريش.

شهدت لهم مواطن صادقاتٍ
أتيتُهُم بوُدِّ الصدر مني
وهم ساروا لحجر في خميس
وكانوا يوم ذلك عند ظني[1]

(١) حجر هو أبو امرىء القيس بن حجر. والخميس: الجيش.

وهــم زحــفــوا لــغــســان بــزحــف
رحــيــب الــسَّــرْب أرعــن مُــرْجَــجِــنٍّ[1]
بــكــل مــجــرب كــالــليــثِ يــســمــو
عــلــى أوصــال ذَيَّــالٍ رَفِــنٍّ[2]
وضــمــر كــالــقــداح مُــسَــوَّمــاتٍ
عــليــهــا مَــقْــشَــرٌ أشــبــاه جــنٍّ[3]
غــداة تــعــاورتــه ثــمَّ بــيضٌ
دُفِــعْنَ إلــيــه فــي الــرهــج الــمُــكِــنٍّ[4]
ولــو أنــي أطــعــتــك فــي أمــور
قــرعَــتُ نــدامــة مــن ذاك ســنّــي

ويعلل النابغة السبب الذي من أجله تمسك ببني أسد، فهم شهدوا الكثير من المواقع التي صدقوا القتال فيها، مما جعله يذهب بوده إليهم، وعطفه لمحبته عليهم.

فبنو أسد هم الذين ثاروا على حُجر بجيش وقتلوه، وهم الذين زحفوا لمقاتلة غسان بجيش واسع المسرح والطريق لكثرته. قاتلوا بكل مجرب ذاق حلو الحروب

(١) المرجحن: الثقيل.
(٢) الرفن: الضافي الكثير، وأصله رفل، فأبدل اللام نوناً، لتقارب مخرجيهما.
(٣) مسومات: معلمات.
(٤) تعاورته: أي تداولته السيوف.

ومُرّها، يعلو فوق فرسه ويرتفع، والخيل ضامرة أشبه ما تكون بالسهام المعلمة ليعرفن في الحروب وإذا أردت أن تشبه هؤلاء بأحد، فهم أقرب ما يكونون في نفوذهم ومضائهم بالجن ويلفت النابغة نظر عيينة أنه لو أطاعهُ في أمور كثيرة حثه فيها على ترك بني أسد لكان قد ندم على فعله كثيراً، ولم يكن عنده من النكير إلا قرع الأسنان.

وقال أيضاً فيما كان بينه وبين يزيد بن سنان المُرّيُّ بسبب المحاش، ويعاتب بني مُرَّة على استثارهم، وتحالفهم عليه وعلى قومه، واجتماع قومه عليه، مع طلب حوائجهم عند الملوك. وكان النابغة يحسد كثيراً، وكان رجلاً عفيفاً شريفاً[1]:

ألا ابْلغا ذبيان عني رسالة
فقد أصبحتْ عن منهج الحق جائرهْ
اجدُكُمُ لا تزجروا عن ظُلامة
سفيهاً، ولن ترعوا لذي الوُدِّ آصِرَهْ
فلو شهدتْ سَهْمٌ وأفناء مالك
فتعذِرُني مِنْ مُرّةِ المتناصِرَهْ
لجاءوا بجمع لم يَرَ الناس مثله
تضاءلُ منه بالعشي قُصائِرَهْ

(١) الديوان ص ١٥٣ - ١٥٥.

يتوجه الشاعر إلى قبيلته بالملامة والتوبيخ، ويحذرها بأنها قد حادت عن طريق الحق، والمنهج الواضح، وأصبحت غير عادلة في تصرفاته، ويتساءل مستهجناً هل هم حقيقة مجدون في فعلهم هذا، وتركهم أصحاب الرحم والقرابة إذعاناً للمتآمرين الحاسدين.

ويتوجه إلى بني مرة الذين تحالفوا على النابغة وقومه قائلاً كيف له أن يعذر هؤلاء عن فعلهم وهم من أقرب الناس إليه وإلى قومه، ثم يظهر منهم الغدر والخيانة. ولو نصر هؤلاء قومه لجاءوا بجيش من كثرته تخشع قصائره وتصغر وتدق.

ليهنىء لكم أن قد لقيتُمْ بيوتنا
مُندًى عُبَيْدان المُلّى باقِرَهْ[1]

وإني لألقى من ذوي الضِّغْن منهمُ
وما أصبحتْ تشكو من الوَجْدِ ساهره

كما لقيتْ ذات الصَّفا من حليفها
وما انفكَّت الأمثالُ في الناس سائِره[2]

---

(١) المُنْدى والتندية: أن تصدر الإبل عن الماء، ثم ترعى في الكلأ، ثم تعاد إلى الماء.

(٢) الصفا: الحجارة.

ويتوجه النابغة بالتهنئة إلى بني مرة، لأنهم استطاعوا أن يمنعوا قومه من أن يردوا الماء. فكان شأنهم شأن عبيدان عبد عاد الذي كان يورد أول الناس، ولكنه غلب على أمره من قبل رجل آخر فصار يورد آخر الناس، فضرب به المثل.

ثم يصف النابغة ما آلت إليه أحوال بني مرة من الضغينة والحقد والعداوة عليه وعلى قومه. وهم يسهرون على ذلك كما تسهر العاشقة الوالهة تنتظر حبيبها.

وفي موقف بني مرة من النابغة وقومه ليس له شبيه إلا (ذات الصفا) التي هي من مشهورات أمثال العرب، و(ذات الصفا) حية تتحدث عنها العرب، وتذكرها في أشعارها. ويقولون: إن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما، فأجدبت بلادهما، وكان قريباً منهما وادٍ فيه حية قد حمته من كل أحد، فقال أحدهما لأخيه: يا فلان لو أتيت هذا الوادي المكلىء فرعيت فيه إبلي فأصلحتها، فقال أخوه: إني أخاف عليك الحية؛ ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته؟ قال: فوالله لأفعلن، فهبط ذلك الوادي فرعى إبله زماناً، ثم إن الحية نهشته فقتلته، فقال أخوه: والله ما في الحياة خير بعد فلان ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأبتغي أخي، فهبط ذلك الوادي فطلب الحية ليقتلها، فقال النابغة فيه وفي الحية ما قال.

فقالت له: أدعوك للعقل وافياً
ولا تغشيني منك بالظلم بادرهْ(١)
فواثقها بالله حين تراضيا
فكانت تَدِيه المال غبّاً وظاهرهْ
فلما توفى العقل إلا أقله
وجاءتْ به نفس عن الحق جائره
تذكّر أنى يجعل الله جُنّة
فيصبح ذا مالٍ ويَقْتُلَ واترَهْ(٢)
فلما رأى أنْ ثَمَّرَ الله ماله
وأثّلَ موجوداً وسد مفاقِرَه(٣)

ويحكي النابغة قصة ما جرى بين الرجل والحية، فقد اتفقت معه مقابل التخلي عن قتلها ديناراً كل يوم، وحلف الرجل أن لا يقتلها بعد اليوم معطياً إياها العهود والمواثيق.

فكثر ماله، ونمت إبله، ولكن الرجل عاد وفكر بأخيه، وصمم على قتلها، فضربها ضربة أخطأها فدخلت الجحر وقطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه، ثم إنه أتى جحرها

---

(١) العقل: غرم الدية. الغب: أن تفعل شيئاً يوماً وتتركه يوماً.
(٢) التواتر: الذي عنده الوتر، وهو الذَّحل وطلب الدم.
(٣) ثمر الله ماله: أي كثره وأصلحه، وأثل موجوداً: أي كثر إبله. والمفاقر: الفقر.

فحياها بالتحية التي كان عودها، فخرجت كما كانت تخرج فضربها وأراد رأسها فأخطأ، فقالت له: ما هذا؟ فاعتل عليها، فقالت: ليس بيني وبينك بعد هذا إلا العداوة، فقد علمتُ ما أردت، فخذ حذرك مني، وأخرج عني؛ فإني قاتلتك، فقال لها: أعطني بقية الدية. فأبت، فلما رأى ذلك وتخوف شرها ندم، فقال لها: هل لك أن نترافق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: كيف أعاودك وأجد أثر فأسك، وأنت فاجر لا تبالي العهد.

اكب على فأس يحدُّ غرابها
مُذَكَّرة من المعاول باتِرَهْ
فقام لها من فوق جُحْرٍ مشيدٍ
ليقتلها أو تخطىء الكفُّ بادِرَهْ
فلما وقاها الله ضربة فأسه
وللبر عَيْن لا تغمّضُ ناظرَهْ
فقال: تعالَي نجعل الله بيننا
على ما لنا أو تنجزي لي آخره
فقالت: يمين الله أفعل إنني
رأيتك مَسْحوراً يمينك فاجرَه
أبى لي قبرٌ لا يزال مقابلي
وضربةُ فأسٍ فوق رأسي فاقِرَهْ

وقال النابغة يهجو النعمان بن المنذر . وقال ابن الأعرابي : هذه القصيدة لعبد القيس بن خفاف البرجمي :

حدثوني بني الشقيقةِ ما يمـ
نعُ فقعاً بقرْقرٍ أنْ يزولا

لا أرى الفارس المدجج فيكم
آل نصرٍ ولا الفتى البُهْلُولا

جمعوا من نوافلِ الناس سَيْباً
وحميراً موسومةً وخيولا

وبراذين كابيات وأُتْناً
وخناذيذ خِصْيةً وفحولا

لا أرى حاجزاً من الفحش فيهمْ
وحماراً عن أمه مشكولا

قد رأينا مكان أمك إذ تمْـ
ـنع من دِرةِ اللقوح العضيلا

لعن الله ثم ثنى بلَعْن
ربذة الصائغ الجبان الجهولا

من يضُرُّ الأدنى ويعجز عن
ضر الأقاصي ومن يخون الخليلا

يجمع الجيش ذا الألوف فيغزو
ثم لا يَرْزأ العدوُّ قتيلا[1]

(١) الديوان ص ١٧٠ .

يتناول النابغة النعمان في الذم بأهله، فيبدأ بجدته الشقيقة بنت أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان فيصفها بالفقع البيضاء الرخوة التي تنبت على وجه الأرض، فتطأها الغنم بأظلافها، دلالة على المذلة من النعمان وأهله.

وإذا نظر النابغة إلى قوم النعمان لا يجد فيهم مظاهر الشجاعة التي تتطلب السلاح والقوة وهذا غير موجود في نصر جد النعمان ولا أهل بيته. وكل هم هؤلاء الناس أن يجمعوا عطايا الناس وغنائمهم، وهذه الغنائم موسومة لتعرف من غيرها.

ويعدد النابغة أنواع هذه الغنائم فمنها الكابية التي تتعثر في مشيها، ومنها الكرائم من الخيل المخاصي منها والفحول. ويستخدم النابغة عبارات كثيرة فيها الفحش في الهجاء والتعرض للأعراض.

ويلعن النابغة الخرقة التي يمسح بها الصائغ جد النعمان، والربذة التي يطلي بها البعير، ذلك الرجل الجبان الجهول، الذي يعمد إلى ضر أقرب الناس إليه مودة وحسناً، ويعجز عن أن يضر من بعد عنه، ومن يخون الخليل، ومن يجمع الجيش ذا الألوف ليغزو به، وإذا غزا لا ينال من عدوه فتيلاً.

وحكى الحارث والأثرم عن أبي عبيدة قال: التقى النابغة وعامر بن مالك وزرعة بن عمرو بعكاظ، فقال لهما: ألا تُصالحون إخوتكم، وكانوا مجدبين، فضمنا على عامر بن صعصعة، وضمن النابغة على بني ذبيان ألا يتغاروا حتى يُحَيُوا، ثم جمعا خيلاً فأغارت عليهم، فأصابت إبلاً ورعاء، ثم زعما أن عامر بن الطفيل هو الذي غدر. فقال النابغة:

ألا يا ليتني والمرء ميتٌ
وما يغني عن الحدثان ليتُ
غَرِمْتُ غرامة في صلح قيس
ولم يتفاسدوا فيما بنيتُ
فأبلغ عامراً عني رسولاً
وزُرْعة إن نأيت وإن دنوتُ
أعاتب سيديْ قيس جميعاً
وأخبِرُ صاحبي بما اشتكيتُ
فما حاولتما بقياد خيل
يصانُ الوردُ فيها والكميتُ

يقول: ليتني غرمت غرامة في صلح قيس، والمرء لا يستفيد بعد موته إلا بالثناء عليه إذا عمل صالحاً، وإذا أساء فلا يكتسب إلا الندامة وكلمة ليْت. وقد سعى النابغة في الصلح بين غامر بن مالك، وزرعة بن عمرو، فما كان منهما

إلا التآمر على ذبيان، وهذا الأمر أغضب النابغة، وجعله يندم على ما فعل، وراح يعاتب سيدي قيس وهما عامر بن مالك وزرعة بن عمرو بن الصعق، ويشتكي منهما لقيادتهما الخيل في محاربة بني أسد وذبيان:

إلى ذبيان حتى صبحتهمْ
ودونهم الربائعُ فالخُبيتُ
أثمٌ تعذران إلي منهما
فإني قد سمعت وقد رأيت
أحاربن المغيرة إنّ قيساً
أحلُّوا بالمحارم وادعيت
فإن تغلب شقاوتكم عليكم
فإني في صلاحكم سعيتُ

لقد اجتاز هؤلاء الأرض الواسعة حتى وصلوا إلى ذبيان، وخاصة الربائع والخبيت وهما ماءان لبني عبس وبني أشجع، ثم غدروا بمن سالمهم، فارتكبوا بذلك الإثم، والغواية ثم ادعوا الغلبة لأنفسهم، غير مبالين بالقيم، ثم يحذر النابغة هؤلاء بأنهم إذا غلبت عليهم الشقاوة مكان الحكمة فإنه لن يسعى بعد الآن في صلاحهم، بل بالانتقام منهم.

---

(١) الربائع والخبيص: ماءان لبني عبس وبني أشجع.

(٢) الديوان ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

وقال النابغة يعير بني عبس اغترابهم في بني عامر:

جــزى الله عبســاً في المــواطـن كلهــا
جــزاء الكـلاب العــاويـات وقـد فعـلْ

فــأصـبـحــتـم، والله يــفـعــل ذلــكـمْ
يَعُــزُّكم مــولى مـواليـكمُ حَـجَـل[1]

وأصــبـحــتــم والله يــفــعــل ذلــكــم
..... النسـاء المـرضعـات بنـو ثُكْـل

إذا شــاء منهــم نــاشيء دَرْبَخْت لــه
لــطيفــةُ طي البــطن رابيــة الـكفـلْ[2]

يهاجم النابغة بني عبس ويطلب من الله تعالى أن يجزيهم على اعتداءاتهم على بني عامر جزاء الكلاب على نباحها، وقد استجاب الله له دعوته. فأنزل فيهم قصاصه بأن أذلهم بعـد عز وجعلهم كـالموالي بعـد أن كانـوا سادة، وأصبحت نساؤهم عرضة لكل معتد يفعل بها ما يشاء من الإثم والفجور.

ويقول النابغة لعمرو بن المنذر حين قتل أخوه المنذر متوعداً قاتليه بالانتقام:

(١) قال هشام بن الكلبي وأبو عمرو حجل من بني عامر بن صعصعة. ويعزكم: يعني يغلبكم. قال الأصمعي: وهذا من قولهم: من عزيز.

(٢) دَرْبَخَت: قامت على أربعة ليفعل ما يريد بها (الديوان ص ١٩١).

إني أظنُّ ابن هِنْدٍ غير تاركِكُمْ
بالقُرنتين ولمّا تُفْزَعِ النَّعَمُ
حتى تراءَوْهُ معصوباً بلمَّته
نَقْعُ القنابل في غرنينه شَمَمُ[1]
قد خَلَّتِ الحربُ عنه فهو يُسْعِرُها
كالهُندُواني حلّيّ خدّه الأدَمُ[2]
شِهابُ حربٍ يُدينُ الظالمون له
في كلِّ حيٍّ له البأساءُ والنَّعَمُ[3]

يقول النابغة ان عمرو بن المنذر لا يترككم ولم يفزع نعمكم، ولم يغزكم، حتى تروه قد أعصب رأسه بلمته، وأثار غبار الخيل بجماعات من الفرسان، اقتحم بهم عقر دارهم، لقد سعر نار الحرب بعد أن كانت خامدة، فهو كشهاب الحرب، يدين الظالمون له، ولهذا ترى بأساءه في كل حي، كما ترى نعمه.

(١) النقع الغبار. والقنابل: جماعات الخيل الواحد قنبلة. وشمم هو علامة الكلام.

(٢) قال أبو عمرو: يسعرها: يوقدها. والأدم يريد قرابه. وقد خلت الحرب: أي تركته فهو يوقدها، يعني عمرو بن هند؛ كأنه سيف في مضيه.

(٣) الديوان ص ١٩٦.

الوصف عند النابغة

تنقل النابغة بحكم الواقع الذي فرض عليه وهو دفاعه عن قومه، وسعيه وراء الشهرة بين الحاضرة والبادية، فجمع في شعره بين الوصف الحضري، والوصف البدوي.

ولكل نوع من هذين الوصفين طابعه الخاص والمميز، وحسبنا أن نبدأ بالوصف الحضري:

الوصف الحضري عند النابغة:

إن الوصف الحضري عند النابغة يبدو من خلال (الغسانيات)، فقد لمسنا في مدحه للغساسنة عنايته بإظهار رفاهية عيشهم، ومظاهر رقيهم، ومناعم حياتهم، بأسلوب واضح لا تكلف فيه ولا غموض.

الوصف البدوي:

إن براعة النابغة في هذا الفن، أكثر ظهوراً في أوصافه البدوية، فقد تناول بشعره الطبيعة الساكنة، والطبيعة المتحركة فوصف في الأولى، الطلل والليل والأرض المقفرة والذئب، والسيل، والفرات، ووصف في الثانية الناقة والثور. وارتفع إلى وصف المشاهد الحية كوصف الصراع

بين الثور والكلاب، وكذلك وصف المرأة. ويبدو في هذا الوصف دقيق الملاحظة، وهو إن لم يحط بالوصف إحاطة كاملة، شأنه شأن غيره من الجاهليين، فقد كان حريصاً على إتمام صورته، بإبراز معالمها الرئيسية.

وصف الطلل:

من الأوصاف التي يطلعنا بها النابغة، وصفه لدار مية، فيصف أطلالها، ويحدد أماكنها، ويعطينا صورة صادقة عن تقادم عهدها، وخلائها من ساكنيها، ثم يجيل نظره في الربع المقفر، فلا يسمع صوتاً، ولا يستبين حركة، ولا يرى شيئاً من آثار الظاعنين، إلا الأواري، والنؤي فيصفها لنا، ويعطينا صورة دقيقة عن حياة البادية وكيف أن هذه النؤي، قد حفرت كالحوض في الأرض الصلبة الغليظة حول الخباء ويتوسع في هذا الوصف، فيتصور كيف كانت المياه تتجمع في هذه الحفرة، وكيف كانت الجارية تزيل ما تراكم فيها من التراب لئلا يصل الماء إلى المضرب. وكيف أنها أفسحت للسيل سبيلاً، حتى لا يبقى حبيساً فيها لنسمعه يقول:

يـا دَار مَيَّـةَ بـالعـليـاءِ فـالسَّنَـدِ
أقْـوَتْ، وطـال عليهـا سـالـف الأبـدِ
وقـفـت فـيـهـا أُصَـيْـلانـاً أسـائِلُهـا
عَيَّتْ جـواباً، ومـا بـالـرَّبـع من أحَـدِ

إلا الأوارِي لأياً ما أبينها
والنُّؤيَ كالحوض بالمظلومة الجَلَدِ
ردت عليه أقاصيه ولبَّدهُ
ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد
خَلَّتْ سبيلَ أتيٍّ كان يحبسُه
ورفَّعتُه إلى السجْفين فالنَّضدِ
أمست خلاءً وأمسى أهلها احتملوا
اخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

ولنسمعه يبكي على الأحبة واصفاً مساكنهم وأماكنهم:

غَشيتُ منازلاً بعُرَيتنات
فأعلى الجزْع للحيِّ المُبن
تعاوَرَهُنَّ صَرْفُ الدَّهرِ حتى
عفونَ، وكل منْهمرٍ مُرنٌّ
وقفت بها القلوص على اكتئاب
وذاك تفارُطُ الشوق المُعَنِّي
أسائلها وقد سفحتْ دموعي
كأن مفيضَهنَّ غُرُوبُ شنٍّ
بكاء حمامة تدعو هديلاً
مُفَجَّعَةٍ على فنن تغني[1]

---

(١) الديوان ص ١٢٥.

ولنر كيف يبدع النابغة في تصوير عوامل الطبيعة وهي تعبث في منازل الأحبة:

أهاجك من أسماء رسم المنازلِ
بروضة نُعْمِيٍّ فذات الأجاولِ
أربَّتْ بها الأرواحُ حتى كأنما
تهادين أعلى تربها بالمناخلِ
وكلُّ ملثٍّ مكفهرٍّ سحابه
كميش التوالي مرثعنِّ الأسافلِ
إذا رجفتْ فيه رحاً مرجحنَّةٌ
تبعَّق ثجاج غزيرُ الحوافلِ[1]

فالشاعر يتحدث عن أسماء وعن منازل قومها، فإذا هي في مكان خصيب كثير الماء والعشب دلالة على قوة قومها الذين لا ينزلون إلا في الأماكن الحسنة، هذه الأماكن بعد أن كانت روضة من رياض الأرض، أصبحت الآن مهجورة ولا يدل عليها إلا آثارها، وهذه الأماكن لا تسكنها إلا الرياح تعصف عليها حاملة في طياتها الرمل، ثم تهوي به على تلك الآثار، وكأنها تريد أن تزيل معالمها، ولا يكفي تلك الآثار غضب الرياح عليها، بل نجد الأمطار تتعاقب عليها بوابل من

(١) الديوان ص ١٤٨.

حصى الثلج محاولة جرفها، ويعقب ذلك المطر الشديد قصف قوي من الرعد، كلها مشاهد تزيد الوضع حزناً في النفس، وقشعريرة في الجسم، ووحشة في الروح.

ولنر مشهداً آخر من مشاهد الصحراء وآثار الديار عند النابغة يقول:

أمن ظلامة الدِّمَنُ البوالي
بمُرْفَضِ الحُبيِّ إلى وُعالِ

فأم مواه الدُّنا فعويرضات
دوارس بعد أحياءٍ جِلالِ

تأبّدَ لا ترى إلا صُوارا
بمرْقوم عليه العَهْدُ خالِ

تعاورها السواري والغوادي
وما تذري الرياح من الرِّمالِ[1]

يقول: أمن دِمَن ظلامة هذه الدمن المتغيرة، والقائمة في الحبى ووعال، وقد أرفض أهل الحي عن أماكنهم، كذلك أهل أمواه الدُّنا وعويرضات. فغدت ديارهم موحشة، لا تقطنها إلا حيوانات الصحراء أمثال الأبقار الوحشية، لا أنيس فيها إلا الرياح والأمطار تتعاقب عليها، وكأن خصاماً

---

(١) الديوان ص ١٤٩.

وقع بين هذه الرياح والأمطار، وبين تلك الآثار وقد تغلبت الرياح والأمطار على الدمن وراحت تحاول جاهدة على إزالتها من أماكنها، إما بطمرها بالرمال، وإما بجرفها بالمياه.

وقد لاحظنا استخدام الشاعر لعنصري الطبيعة: الرياح والأمطار في كل مرة يتحدث فيها عن الأثار ليبين قوة هذه العناصر وقدرتها على الفتك والتخريب في كل ما بقي من آثار الناس الظاعنين عن ديارهم.

ولننظر إليه وهو يتحدث عن مشاهد من ديار (سعدى):

عرفت لها منازلَ مقفراتٍ
تُعَفِّيها مُذَعْذَعَةٌ حَنُونُ
بمنحرقٍ تَجِنُّ الرِّيحُ فيه
حنين الجُلْبِ في البلد السَّنينِ
ويُعْقِبُها فيشهكها مُلِثٌّ
صدُوق الرَّعْدِ مُنْسَكِبٌ هَتُونُ
وقد تغنى بها والدهر صافٍ
له ورق تميد به الغصُونُ
أصاح ترى وأنت إذاً بصيرٌ
حَمُولُ الحي يرفعها الوجينُ
كأنّ خدوجهم في الآل ظُهراً
إذا افرغْنَ من نَشْزٍ سفينُ

أو النخلاتُ من جَبَّار قُرْحٍ
تربَّبَهن يَعْبُوبٌ مَعينُ
قُطينُ الدَّارِ جِزْعُ عُرَيْتنات
فجزع أريك فانتقل القطينُ[1]

منازل سعدى، كمنازل أسماء، كمنازل ميَّة، مقفرة من ساكنيها، لا يدل عليها إلا آثارها التي تحاول الرياح زعزعتها، فتهب عليها بقوة وعنف، ويُسمع لهبوبها صوت شديد، وكأنه أنين. والأنين إما صدىً لتلك المقاومة العنيفة التي تبديها تلك الآثار ضد الرياح، أو هي إظهار قوة وإصرار من الرياح ضد تلك الدمن، وفي طياتها تحمل الريح عظيم الغيوم فتضربها بعضاً ببعض لينفجر من ذلك التلاطم الرعد القوي، ثم هطول الأمطار الغزيرة، لا لتحي تلك الأرض بعد موتها، وتبعث فيها الكلأ والخصب لقاطني تلك الأرض، بل لتزيل معالمهم وآثارهم.

ويعود الشاعر بخياله إلى اليوم الذي غادرت فيه (سعدى) وقومها تلك الربوع إلى غير رجعة، وكيف سارت الإبل بالقوم وهي تخطو خطوات بطيئة فيها التردد والحزن على تلك المغادرة.

(١) الديوان ص ١٥٩.

رأينا في النصوص التي ذكرناها كيف وصف النابغة الدمن والآثار، ونريد أن نكمل لوحته التصويرية للصحراء، فننظر مجدداً إلى وصفه لما يجـري في تلك الصحراء؛ فالصحراء مليئة بالحيوانات، وخاصة تلك التي تستهـوي قلوب الصائدين وعلى رأسها الأبقار الوحشية وقد اختص الشاعر هذا النوع من الحيوان بالذات، ليظهر مرارة العيش في الصحراء، والقدرة العجيبة التي يجب أن يمتلكها من يغامر على العيش فيها.

فالأبقار الوحشية هي من أكثر الحيوانات قوة وقدرة على مصارعة ليس الطبيعة من أجل البقاء فحسب، بـل الإنسان الذي يغزوها في عقر دارها ليصطادها، فلننظر إلى هذه اللوحة المدهشة التي يرسمها النابغة لمعركة جرت بين ثور وحشي، وبين كلاب الصيادين، وكيف تتحرك الصورة مسرعة بألوانها، بين كر وفر، وعراك، وجروح ودماء تسيل إلى غير ذلك.

وهذا كله يعرضه علينا بطريقة قصصية مشوقة توفرت فيها عناصر السرد والحكاية، فإذا المشهد مليء بالحركة والحياة، مما يجعلك تـدرك قدرة النـابغة على الإحـاطة بالموصوف، كما تحيط الوحدة الرسام بمنظر من مناظـر

الطبيعة، كذلك يتبين عناصر القصة الرئيسية من تمهيد وسياق وذروة وخاتمة. يقول النابغة:

كـأن رحـلي، وقـد زال النهـار بنـا
يـوم الـجليـل عـلى مستـأنِسٍ وَحَـدِ
مـن وحش وجـرة مـوشِـيٍّ أكـارعـه
طـاوي المصير، كسيف الصيقِل الفردِ
أسـرتْ عـليـه من الـجـوزاء سـاريـةٌ
تُـزْجي الشَّمـالُ عليـه جـامِـد البـردِ
فـارتـاعَ من صـوت سَلَّاب فبـات لـه
طَـوْع الشـوامت من خـوف ومن صـردِ
فـبـثَّـهـنَّ عـليـه واسـتـمـرَّ بـه
صُمْـعُ الكُعُـوب بَـرِيئـات من الحَـرَدِ
وكـان ضُـمْـران منـه حيـث يـوزعُـه
طعْنَ المعـارك عنـد المَحْجَـرِ النَّجُـدِ
شـكَّ الفـريصـة بـالمِـدْرَى فـأنفـذهـا
طَعْنَ المُبَيْـطر إذ يَشْـفي مـن العَضَـدِ
كـأنـه خـارجـاً مـن جَنْـبِ صفحتـه
سَفُّـودَ شَـرْبٍ نَـسوة عـنـد مُفتـادِ
فـظلَّ يَـعْجُـمُ أعلى الـروق منـقبـضـاً
في حـالـك اللون صـدق غيـرِ ذي أودِ

لـمـا رأى واشـقٌ إقـعـاص صـاحـبـه
ولا سـبـيـل إلـى عَـقـد ولا قَـوَدِ
قـالت لـه النفس: إني لا أرى طمعـاً
وإن مـولاك لـم يـسـلم ولـم يـصـدِ[1]

يبدأ النابغة برسم صورة للثور الوحشي؛ فإذا هو مزين القوائم بنقط، وهو ضامر الحشا كالسيف المسلول، يجري في الصحراء وقد تملكته الوحشة لانفراده عن قطيعه، يبدو خائفاً متوجساً لما تسقطه عليه السماء من برد يكاد لا ينقطع. ولم يلبث أن ذعر ذعراً شديداً لسماعه صوت صائد يهتف بكلابه، فأسرع في جريه، ولمحه الصائد فبعث عليه كلابه، فاشتدت قوائمه وكعوبه، مستخرجاً منها كل ما يبتغي من سرعة، ولكن الكلاب لحقت به، وكان أول ما لقيه منها ضمران، فنشب بينهما صراع عنيف، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نجلاء، نفدت إلى ظاهر صدره، وراح الكلب من وهلة ما رأى يلحس القرن، وكأنه يحاول إخراجه من صدره لما انتابه من ألم، وما لبث أن خر صريعاً. ولما رأى الكلب الثاني (واشق) ما حدث لأخيه، وأنه عاجز عن مساعدته أو الأخذ بثأره، أحجم عن لقاء الثور

---

(١) الديوان ص ١٧ ـ ١٩.

خوفاً على نفسه من الهلاك، فتملكه اليأس من اصطياد الثور فانقلب على عقبيه خائباً.

في وصف النابغة نلمس الحيوية في المشاهد التي تتراءى أمامنا، لما بثه النابغة في الحيوان من حياة شبيهة بحياة الإنسان في عواطفه، وقلقه، وطمعه، ويأسه، فالثور خائف يترقب، والكلاب طامعة تتربص، وتنشب المعركة الدامية، ثور يطعن طعن الرجل المدافع عن نفسه وعرضه، فيقتل ضمران، وينظر أخوه واشق فيرى أن ردة الفعل على ما جرى غير ممكنة. وتحدثه نفسه بأنه يطمع في غير طائل، وما يلبث أن ينسحب من المعركة، وقد تملكه اليأس والقنوط، ولا ينسى النابغة مهارته في التصوير سواء من حيث تمثيل المنظر وتجسيمه، أو من حيث التشبيهات، فقد أنفذ الثور قرنه في كتف الكلب، كما ينفذ البيطار مبضعه في الدابة المصابة بالعضد، وكيف بدا قرن الثور، كهذا القضيب من الحديد الذي يشك فيه اللحم المعد للشواء، ثم هذه الصورة الحية، صورة الكلب الذي راح يعض قرن الثور، ثم المشهد القصصي الذي يتجلى بموقف (واشق) الذي اعتبر مما حل بضمران فلم يجد طمعاً في الثور.

وكما تميز الوصف البدوي عند النابغة بالسرد القصصي، كذلك تميز بالاستدارات التشبيهية.

والاستدارات التشبيهية في الوصف هي نسبة شيء إلى آخر على أن يغفل الشاعر الطرف الأول أي المشبه مستكملاً صورة الطرف الثاني، أي المشبه به، ومن نماذج هذا اللون صورة الفرات في اعتذارية النابغة الدالية، حيث يمدح النعمان فيقابل بين عطائه وعطاء الفرات.

ومن التشبيهات البدوية الأخرى التي أبدع فيها النابغة تشبيهه الناقة بالثور. وذلك في صفة السرعة، وشدة العدو في قصيدته الرائية، وقد جمع فيها بين التشبيه والاستطراد القصصي وفيها يقول:

كأنما الرَّحلُ منها فوق ذي جُدَدٍ
ذَبِّ الرِّيادِ إلى الأشباح نُظَّارِ
مُطَرَّدٍ أفردَتْ عنه حلائلُه
من وحش خُبَّة أو من وحش تعشار
باتت له ليلة شهباءُ تَسْفعُهُ
منها بحاصبِ شَفَّانٍ وأمْطارِ
وبات ضيفاً لأرطاةٍ وألجأه
مع الظلام إليها وابلٌ ساري
حتى إذا ما انجلتْ ظلماءُ ليلتهُ
وأسفر الصُّبْحُ عنه أي إسفارِ

أهــوى لــه قــانص يــسـعـى بــأكـلـبــه

عــاري الأشــاجــع من قُنّــاصِ أنمــارِ

يسعى بغضْفٍ بــراهـا ـ فهي طــاويـَةٌ ـ

طــولُ ارتـحــالٍ بـهــا مـنــه وتَـسْـيــارِ

حـتى إذا الـثـورُ بعـد الـنَّفْـر أمـكـنـهُ

أشلى وأرْسَـلَ عَشْراً كلهـا ضــاري(١)

فـكَـرَّ مَـحْـمِـيَّـةً مــن أن يفـر كــمـا

كــرَّ المحــامي حفــاظــاً خشيـة العــارِ

يستهل الشاعر حديثه عن ناقته التي يرتحل عليها، ولكي يبين ما تبذله من جهد خلال ترحاله من مكان إلى آخر، وما يعكسه ذلك الجهد على جسدها، لم يجد إلا الثور الوحشي مثيلاً لها، وليس كل ثور بالمطلق، بل ثور تفرد بنفسه لضياعه عن قطيعه، ولما أدركه الظلام والبرد، لم يجد إلا شجر الأرطاة يلجأ إليها ليستضيف في ظلها، ويتقي ألم البرد. ولكن هذا الثور الذي نجا من المطر الشديد، والبرد القارص، كان على موعد في الصباح مع قناص اكتشف مكانه، فبعث عليه كلابه، فراح يجري بكل ما أوتي من قوة

(١) أشلى يشلي أشلا: الحيوان دعاه لطعام أو جلب. الأعشار: القطع. والمشاعب: الشعاب.

(٢) الديوان ص ٢٠٣.

ينجو بنفسه، وفي جريه ظهرت خفته لنحولة جسمه، هذا الثور في صفاته الجسمانية التي حددتها له حياة الصحراء، وما فيها من أخطار محدقة به في كل لحظة، هي نفس الصفات التي حددتها لناقة النابغة حياة السفر والترحال، ولهذا فهي طاوية البطن من أثر الجهد الذي تبذله. ثم إن هذا الثور استعد للدفاع عن نفسه بأن جعل رأسه مواجهاً للكلاب لا دبره، وكأنه تحسس بأنه إذا أعطى للكلاب دبره. فسيلحق به العار.

وهنا يسرد لنا الشاعر الصراع الذي دار بين الثور والكلاب السبعة، وكيف راح يثخنها بالجراح؛ فشك بقرنه صدر الأول، وقتل الثاني بطعنة جعلت فيه ثغراً، وأنزل بالثالث طعنة مماثلة، وظل في إقبال وإدبار على البقية حتى قضى منها لبانته، وانقض كالكوكب ماضياً في سيره.

فشك بالرمح منها صدر أولها
شك المشاعب أعشاراً بأعشارِ
ثم انثنى بعد للثاني فأقصده
بذات فَرْغ بعيد القعرْ نعّارِ[1]

---

(١) فرغ الطعنة. مصبها من فرغ الدلو، وهو مصبه، ونعار: سائل، نعر الجرح ينعر نعراناً ونعراً.

وأثبت الثالث الباقي بنافذةٍ
من باسل عالمٍ بالطعنِ كرّارِ[1]
وظل في سبعة منها لحقن به
يكر بالروق فيها كَرَّ أسوارِ[2]
حتى إذا ما قضى منها لبانَتَهُ
وعاث فيها بإقبالٍ وإدبارِ
انقض كالكوكب الدري منصلتاً
يهوي ويخلطُ تقريباً بإحضارِ[3]

ويختتم هذا الوصف بإيجاز رائع مشبهاً ناقته بذلك الثور الذي أعطانا صورة كاملة لسرعته فيقول:

فذاك شبه قلوصي إذ أضر بها
طول السُّرى والسُّرى من بعد ابكارِ

ومن الأوصاف التي أعطاها النابغة للناقة قوله:

لقد لحقْتُ بأولى الخيل تحملني
كبداءُ لا شَبَجٌ فيها ولا طَنَبُ

---

(١) أثبته: طعنة في موضعه. ونافذة: طعنة، وباسيل: شديد. كريه الوجه: يعني الثور.

(٢) يقال: ظل يفعل كذا، إذا فعله نماراً، وبات يفعل كذا، إذ فعله ليلاً، وسبعة منها، يعني الكلاب. والاسوار: الكبير من الفرس.

(٣) الديوان ص ٢٠٤.

مـاريـةٌ مثـل قـرْي الـدلـوُ مُـرْكضـةٌ
إذا الـحـميمُ عـلى الأعـطاف يَـنْـحَـلِبُ
لا عيب فيهـا إذا مـا اغتـر فـارسُهـا
شـأوَ الـفـجـاءَة إلا أنـهـا تـثـبُ
تخـطو على مُـعُـج عـوج معـاقـمُها
يَـحْسَبْنَ أن تُـرابَ الأرض مُـنتـهـبُ[1]
تـهـوي هـويَّ دلاة الـبئـر أسْـلَمَـهـا
بـيـن الأكـفِّ وبـيـن الـجَـمَّـة الـكِـرَبُ
أو مـرَّ كُـدْرِيَّـةٍ حـذاءَ هـيـجـهـا
بَـرْدُ الشـرائـع من مـرَّان أو شـربُ[2]

يبالغ الشاعر بوصف ناقته، إذ يجعلها تسبق الخيل لسرعتها، وهي ضخمة الوسط، لا يعيبها قصر في الرجلين، أو طول زائد، خفيفة الحركة، تمضي في العدو، كما يمضي الدلو إلى مقر البئر، وإذا ما أراد الإنسان أن يضع فيها عيباً، فإنه لا يجد ذلك إلا في وثوبها وهي تحمل الفارس على ظهرها، وتسرع في سيرها فتنهب مفاصلها من شدة العدو، ويراقب الشاعر حركة الناقة فإذا هي تهوي في حركة سيرها،

---

(١) المعج: الفوائم.
(٢) الديوان ص ١٧٦.

كما يهوي الدلو إلى قاع الماء ليغترفه، أو هي تنقض في حركتها أيضاً كما تنقض القطاة من مكان إلى آخر سعياً وراء الماء لتشرب فتروي ظمأها من العطش.

ووصف الصيد يأخذ بفكر النابغة، فلا يترك مناسبة إلا ويحاول فيها أن يصف لنا معركة بين الصيادين، وبين الأبقار الوحشية، ولست أدري، إذا كان النابغة يرمي من وراء ذلك إلى فكرة تتضمنها رحلة الصيد، وهذه الفكرة هي التركيز على إظهار صعوبة الحياة في الصحراء، والمجابهة المستمرة من ساكنيها بعضهم ضد البعض الآخر، لأن واحداً من الجماعة يجب أن يبقى على حساب الآخر. ولا ينسى النابغة أن يلون لوحاتها بصورة ثانوية للموضوع الأساسي الذي يتحدث عنه، وسنرى ذلك في وصفه لرحلة صيد أخرى بطلها الثور الوحشي ضد الصيادين.

يقول النابغة:

طوى كشحاً خليلك والجَنَاحا
لبين منك ثم غدا صُراحا[1]

(١) طوى كشحه: إذا انصرف عنه بوده؛ ويقال: صرح الرجل بكذا وكذا، إذا أعلنه وأظهره.

دعتـه نيَّـة عنَّـا قَـذوفٌ
وعـاف السِّـر فـانتجَـعِ الـمـلاحـا

ألـم تَـكُ دارهُ بـمَـحـلٍّ أمْـنٍ
خـصيـب حيـثُ أعـزب أو أراحـا[1]

زمـاعٌ تـاح لـلمـشـعُـوف حـيـنـاً
ومـن ذا يَـمْلِكُ الحَيْنَ الـمتـاحـا[2]

لِـبَيْـنٍ مـا جـرت لـك سـانحـاتٍ
ظـبـاءُ الـخـلِّ قـابلت الـريـاحـا[3]

ومـرَّت بـارمـاً عـنْـزٌ رَقِـيٌّ
فـاسْمعك الـذي بـالأمس صـاحـا[4]

غـراب فـوق مـدحـضـةٍ سـحـوقٍ
رأى فـرخيـه قـد هلكـا فـنـاحـا[5]

بـحـسـبـك أن سـمـعتَ وأنـت جِـلٌّ
على الـبـانـات صِـرْدانـاً فـصـاحـا[6]

---

(١) أعزب إعزاباً: بَعُدَ.

(٢) المشعوف: المجنون.

(٣) السانح من الطيور أو الغزلان، الذي يمر من يسار الرائي إلى يمينه.

(٤) العنز: أنثى الحُبارى والصقور والغزلان والأوعال.

(٥) مدحضة: مزلقة، أي ارتفاع، وسحوق طويلة.

(٦) البانات: جمع بان: وهو شجر لين، الصردان: عرقان في باطن اللسان.

فيـا لـكَ حـاجـة في صـدر صِبٌ
رأى الاظـعـان بـاكـرةً فـبـاحـا[1]
كـأنَّ الـظُّعن حيـن طَفـون ظُـهـراً
سَفينُ الشحْـرَ يـمَّمَت الـقَـرَاحا[2]
فِـقـا فـتـبـيـنـا أعـريـتـنـات
تـوخّـى الـحـي أم أمُّـوا لُـبـاحَـا[3]

النابغة أمام موقف أراه فيه لأول مرة يتفجر الحزن من داخله، وهو يودع من يحب على الرغم منه. فالخليل عزم على الفراق مع الأهل، لأنه ضاق بقومه مكان (السُّر)، فأراد وقصد مكان (الملاح) ولعل السبب في ذلك هو ضيق العيش في الأول، ويسره في الثاني، هذا الفراق جعل المحب وهو الشاعر في حالة من الجنون، لأنه سيخسر ما بين يديه، وما هو متاح، ويعود لا يلوي على شيء.

وينتقل النابغة بعد هذا الموقف الحزين ليتحدث عما وقعت عليه عيناه في تلك الصحراء بعد أن ودع الأحبة، فإذا هو يرى مناظر كلها تثير في النفس الحزن، وتخدم القضية

(١) الصَّب: المحب.

(٢) طفون: ارتفعن في الآل. والآل: السراب الذي يرى كأنه ماء. والشُّحر: موضع.

(٣) عُريتنات: موضع. ولباح: موضع، وتوخى: تعمد.

الأساسية التي يتحدث عنها الشاعر وهي قضية إظعان الحبيبة، فهنا نرى الظباء الخَلِّ وهي تواجه الرياح العاصفة، وهنا نرى إناث الوعول، والغزلان التي يطاردها الصيادون لاصطيادها وهناك غراب وقف فوق مرتفع ينوح على فرخيه الذين هلكا، ثم تلك الأصوات المنبعثة من فوق أشجار البان، كل هذه المرثيات تهيؤك لترى منظراً أكثر حزناً وألماً، إنه منظر المحب، وهو يقف حزيناً يترقب لحظة إظعان الأحبة ظهراً على أظهر سفن الصحراء وهي الإبل، ثم يطلب من رفاقه على طريقة الشعراء الجاهليين أن يقفوا معه وينظروا ما ينظره، ليعيشوا معه لحظة حُزنةِ على فراق أحبته.

وصورة أخرى من صور الصحراء يرينا إياها النابغة عبر معركة جرت بين ثور وحشي وبين كلاب صيد هبت تنقض عليه لاستصياده؛ ويحاول النابغة عبر عبقريته الخيالية، وإبداعه الفني أن يرينا الثور بصورة رائعة تثير الإعجاب في النفس، والتقدير في الذوق الفني.

فالثور الوحشي جاء إلى جذع شجرة ليفي بنذر كان قد وعد الله به، وهو أن يبيت ليلة تحت تلك الشجرة؛ وراح ينتظر مجيء الصباح بفارغ الصبر. لخوفه الشديد مما يحيط به من أعداء.

وما أن جاء الصباح حتى تحقق ما كان يخاف منه؛ فقد

فاجأته كلاب بني فُقَيْم من أماكن كانت قد كمنت فيها تنتظر مجيء الأبقار الوحشية طلباً للماء أو الكلأ. فلما اكتشف الثور أن الكلاب عرفت مكانه، وأنها ستحاول اللحاق به، حاول أن يستخدم كل ما يملك من قوة طلباً للنجاة:

فبات كأنه قاضي نذور
شرى لله ينتظر الصَّباحَا[1]

فصبَّحَهُ كلاب بني فُقيم
بجنْب الرَّدْه من جُدَّد كفاحا[2]

فلمّا أن تبين ضاريات
وكلابْ يعن بهنَّ شاحا[3]

واعمل للنجاء مُخذرفات
قوائم اردفت زمعاً صحاحا[4]

فهن شوارعٌ يطمعن فيه
ولو تتْركْنَهُ لجرى سفاحاً[5]

---

(١) قال الأصمعي: قوله: شرى؛ يعني باع.

(٢) الرّدْه والجمع الرداه، وهي أماكن يكون فيها الماء، وبنو فقيم، من بني دارم من بني تميم.

(٣) شاح: حذر وأجدّ في الهرب، ويعن: يعترض.

(٤) مخذرفاتْ: أظلاف غير محددات جيدات كأنهن خاريف والخذاريف؛ الخرارات التي يلعب بها الصبيان.

(٥) قوله: لجرى سفاها: أي لكان يصب الماء صباً.

لكن الكلاب أدركته، وهنا تدور المعركة بين الطرفين، كلاب شرسة مدربة على الصيد وثور يريد أن يدافع عن نفسه:

فلما أنْ دنونَ له تآيا
ولولا بَأْوُهُ لجرى طِمَاحَا[1]
كُرُورَ الباسل البطل المحامي
على عَوْراتِه كَرِه انفضاحا
فَسُرْن عليه غير مُبِرٍّ دُغْرٍ
فلما أن بَهَشْنَ الشَّيْحَ شاحا[2]
يقول: لقد رأيت اليوم نُكْراً
وللنكراء ما حَمَل السِّلاحا
فانحى حَدُّ معتدلٍ طرير
يَشُكُّ به الترائب والصِّفاحا[3]

وتدور المعركة لأن الكلاب لحقت بالثور، فكان لا بد له من الدفاع عن النفس. ويتدخل النابغة في السياق القصصي ليبين لنا أن الثور رأى من العار عليه أن يترك

---

(١) البأو: الكبر، وتأيا: تعمد وقصد.

(٢) سرن؛ وثبن، وبهشن: تناولن، والشيح: الحذر.

(٣) الطرير: الحاد. والترائب: عظام الصدر، وقيل ما بين الثديين والترقوتين.

مؤخرته عرضة للإهانة من الكلاب، فأدار رأسه وراح ينطح تلك الكلاب، وكرَّ عليها كرَّ المقاتل الباسل المحامي على عوراته، وكان من نتائج العراك أن شك أحد قرنيه في صدر أحد هذه الكلاب، وفي جنبه.

فغادرهنَّ منعفراً زهيقاً
وآخر مُثْبتاً يشكو الجراحا[1]
وظل كأنه بجمادِ وافٍ
بَشيرٌ سفينة يهدي رماحا[2]
وجال كأنه دريّ أخذ
إذا ما انجاب عنه الغيم لاحا[3]
ولولا طعنه الأعداء شزلاً
بمخروطين كالرمحين طاحا[4]

وتنتهي المعركة بمقتل أحد الكلاب، بعد أن أصيب بالجراح، وآخر نجا من الموت لكنه راح يصرخ من ألم

---

(١) المنعفر: المجروح. زهق يزهق زهوقاً: النفس خرجت.
(٢) جماد وافٍ، موضع، الواحد من الجماد جمد. وبشير، يبشرهم بسفينة فيها رماح وإن عنى قرنه.
(٣) أخذ: يريد النجوم أي التي يكون بنوئها المطر.
(٤) قال الأصمعي: مخروطان: قرنان. وطاح أي هلك، يقال: طوحته وطيحته (الديوان ص ٢١٥ ـ ٢١٦).

الجراح بعيداً عن الثور، وبقي في موضعه ينظر حوله وكأنه يترقب مجيء سفينة محملة بالرماح، وهي الطعنات من الثور بعد أن استسلم وعجز عن القتال، ثم يصف الشاعر حالة الثور المذعور وقد جال حول نفسه ليتأكد من أن ساحة القتال قد خلت من الأعداء، ولولا هذه الشراسة التي قاتل بها الثور مستخدماً قرنيه الحادين، لكان قد هلك. إنها طبيعة الصحراء التي تفرض أن يكون البقاء للأقوى.

ولننظر إلى النابغة كيف يراقب الحياة في الصحراء، وما يدب فيها من خلق الله، وإذا به أمام حية غريبة كسائر مخلوقات الصحراء التي تفرضها عليها طبيعة تلك الصحراء القاسية أن تكون:

صِلُّ صفاً، لا تنطوي من القِصَرْ
طويلة الإطراق، من غير خفَرْ[1]
داهيةٌ، قد صغرت من الكبرْ
كأنما قد ذهَبَتْ بها الفِكَرْ[2]
مهروتةُ الشِّدقين، حولاء النظر
تفتَّرُ عن عُوجٍ حدادٍ كالإبَرْ[3]

(١) الخفر: الخجل.
(٢) داهية لاذعة.
(٣) تفتر: تكشف، عوج حداد: أنياب حادة كالإبر.

حية بلغت من القصر حداً لا تستطيع معه على الانطواء، والسبب في قصرها إلى هذا الحد يعود إلى طول الزمن الذي مرَّ عليها. تزحف على الأرض وهي فاتحة فمها الواسع، فتبدو منه أنيابها الحادة كالإبر.

وصف المرأة:

إذا كانت هناك مظاهر عادية حركت مخيلة الشاعر ودفعته إلى وصفها، والإبداع بذلك الوصف، كما رأينا في وصفه لحيوانات الصحراء، ولناقته، وللدمن والآثار، فكيف به لا يتعرض إلى المرأة وهي التي سلبت قلبه، ودفعته إلى أن يقف طويلاً على آثار من يحب ويبكي على خود حسان منهن، ويتذكر تلك الأيام والليالي التي عبث فيها معهن في صباه، هذا بشكل عام أما بشكل خاص فإن وصفه للمتجردة زوجة النعمان بن المنذر قد عمت الآفاق، حتى انها أدت إلى هدر دمه من قبل النعمان وجعلته يلوذ بالغساسنة كما رأينا ردحاً من الزمن، راح بعدها يستشفع النعمان ليصفح عنه، ترى ماذا قال في المتجردة:

قامت تراءى بين سجفي كُلَّةٍ
كالشمس يوم طلوعها بالأسعدِ[1]

(1) السجف: الستر.

أو دُرَّة صَدَفيَّةٍ غوَّاصُها
بَهِجٌ متى يرها يُهل ويسجُدِ
أو دُمْيَة من مرمرٍ مرفوعة
بنيت بآجر يُشادُ وقرْمَدِ[1]

يعتمد النابغة في وصف المتجردة على التشبيه، فيتذوق الجمال ويحسن نعته، ويتفنن في إخراج صوره، ويراها درة فاتنة من هذه الدرر الغوالي التي لا يعثر عليها إلا الغواص الماهر في أعماق اللجج. وفي إشراقها كالشمس حسناً وبهاءاً، وجعل طلوع الشمس بالأسعد، ليكون ذلك أتم للتشبيه، وأبلغ في الوصف. أو هي تمثال من الجمال صنع من المرمر الصافي، وشيد بالجص والخزف، ثم رفع على قاعدة لينظر الناس إلى جماله الفاتن، فيركعون له إعجاباً وتقديراً.

ثم يصور النابغة، موقف المتجردة، وقد سقط نصيفها تصويراً دقيقاً وقد أخفت معالم وجهها بيد، وتناولت منديلها الساقط بيدها الثانية، ويعود فيجلو لنا عن نعومة أصابعها، فكأنها بلونها الأحمر الجميل عنم لم يعقد، ويكشف عن لحاظها الناعسة، فإذا هي كلحاظ السقيم الذي يرنو بفتور إلى وجه

(١) الدمية: التمثال والصورة. والمرمر، الرخام.

زائريه. ويمضي في استكمال صورة الوجه، فإذا أسنانها ناعمة البياض تزيد في جمال ثغرها، وإذا هذا الثغر المنفتح من تلك الأسنان كزهر الأقحوان الذي تساقطت عليه الأمطار فبدا ساحراً نضراً.

نـظرتْ إليـك بحـاجـة لـم تقـضهـا
نـظر الـسقـيـم إلـى وجـوه العُـوَّدِ
سقط النصيف ولـم تُـرِدْ إسقـاطـه
فـتـنـاولـتـه واتـقـتـنـا بـالـيـدِ[1]
بـمـخـضـب رخص كـأن بـنـانـه
عَنَمٌ يكـاد من الـلطافـة يُعْـقَـد[2]
تـجـلو بـقـادِمَتَـيْ حـمـامـةِ أيْـكَـةٍ
بَـرَداً أُسِـفَّ لِـثـاتُـه بـالإثـمِـدِ[3]
كـالأُقْـحـوانِ غـداةَ غِـبِّ سِـمـائِـه
جَـفَّتْ أعـالـيـه وأسـفـلُه نَـدِي[4]

---

(١) النصيف: نصف خمار أو نصف ثوب يعتجر به.

(٢) العنم: شجر أحمر الثمر ينبت في جوف السمر. الديوان: ص ٩٢ - ٩٦.

(٣) القادمة: ج قوادم، وهي ريشات في مقدم الجناح، وهي كبار الريش. أسفّ: أي ذرّ. الأثمد: حجر يكتحل به، وهو أسود إلى حمرة.

(٤) السماء: المطر، وغب الشيء: بعده.

زَعَمَ الهُمامُ بأنَّ فاها باردٌ
عَذْبٌ مُقَبَّله شهيُّ المَوْرِدِ[1]
زَعم الهُمامُ - ولم أذُقْه - أنَّه
عَذْبٌ إذا ما ذقته قلت: ازدَدِ
أخذ العذارى عقده فنظمنَهُ
من لؤلؤ متتابعٍ متسرِّدِ[2]
لو أنها عَرَضتْ لأشمط راهب
عَبَدَ الإلهَ صَرُورةٍ مُتَعَبِّدِ[3]

يستمر النابغة في وصف المتجردة، فيرى أنها إذا ابتسمت كشفت عن أسنان كأنها برد لبياضها وصفائها، وأن في شفتيها لعس وحوة، وهما لطيفتان براقتان، وهما شبيهتان بالقادمتين لسوادهما دون سائر الريش، ولطولهما، وهاتان الشفتان غرزتا بالإبر، ثم ذرَّ عليهما الإثمد، ليبقى سواده، فيحسن معه بياض الثغر، والثغر المنفتح عن تلك الأسنان كزهر الأقحوان الذي تساقطت عليه الأمطار، فبدا ساحراً نضراً.

بعد الوصف المعنوي للمتجردة، ينتقل إلى الوصف

(١) الهمام: السيد. سمي بذلك لأنه إذا همّ بأمر أمضاه.
(٢) المتسرد: الذي يتبع بعضه بعضاً.
(٣) الأشمط: الأشيب.

المادي، فإذا هي بزعم الملك النعمان باردة الفاه عذب مقبله، شهي مورده، ويكرر وصفه المادي، لا من تجربة خاضها هو مع المتجردة، بل على لسان النعمان بن المنذر، فهو لم يذق فاه المتجردة، بل سمع أنه يشفي كل مريض مصاب بالعطش الشديد، وإذا ما ذاقه أحدهم، فإنه لا يرتوي منه بل يطلب دائماً المزيد.

وهذه المرأة ذات حلى ونعيم، والعذارى يخدمنها، ويتصرفن في أمورها. وهي لو عرضت على راهب متبتل لم يذنب قط، لردد طرفه في محاسن وجهها، ولأصغى الأذن سمعاً لحديثها الحلو الجميل، ولوجد في ذلك آية الرشد.

لـرنـا لـرؤيـتهـا وحـسـن حـديـثـهـا
ولـخـالـه رشـداً وإن لـم يَـرْشُـدِ
لـتـكـلَّم لـو نـسـتـطيـع كـلامـه
لـدنت لـه أروى الهضـاب الصُّخَّـدِ[1]
وبـفـاحـم رجـلٍ أثـيـث نـبـتـه
كـالكـرم مـال على الدِّعـام المُسَنَّـدِ
وإذا لـمـسـت لمـسـت أجـثـم جـاثـمـاً
متـحـيـزاً بـمـكـانـه مـلء الـيـدِ

---

(١) الصخد: الملس.

وليس الراهب هو الذي لا يجد حرجاً في سماع حديث المتجردة، بل حتى الأواري إناث الوعول، لو سمعت كلام هذه المرأة لنزلت إليه، ولدنت منه لحسنه، وأخذه بالقلوب، وقد خص الأواري عن غيرها من الوحوش، لأنها أكثر هذه الوحوش نفوراً من الإنسان فإذا كانت هذه تأنس بذلك الكلام، فحري بالانسان أن يكون أكثر إيناساً بذلك الكلام.

وأما الشعر فهو أسود فاحم، أشبه ما يكون في طوله وغزارته بالكرم المائل على الدعائم. أو بمعنى آخر أن شعرها مثل عناقيد الكرم في غزراته، وركوب بعضه بعضاً.

وإذا طعنت في مستهدف
رابي المجَسَّة بالعبير مُقَرمَدِ[1]
وإذا نزعت عن مستحصِف
نَزْعَ الحزوَّرِ بالرِّشاء المحْصَدِ[2]
وإذا يَعَضُّ تَشُدُّهُ أعضاؤه
عَضَّ الكبير من الرجال الأدْرَدِ
لا واردٌ منها يحور لمصدر
عنها ولا صَدرٌ يحورُ لمُورِدِ

(١) المستهدف: المرتفع. والرابي؛ المرتفع.
(٢) المستحصف: الشديد، الضيق. الرشاء: الحبل. والمحصل: الشديد الفتل. والخرور: الغلام.

يستمر النابغة في هذه الأبيات بوصف المتجردة وصفاً مادياً، فيتحدث عن بطنها وعُكَنها، ومتنها، وروافدها، وفرجها. وهذا الوصف هو الذي أغضب النعمان وجعل النابغة يفر إلى الغساسنة.

ومن الأوصاف البديعة التي جاء بها النابغة قوله في وصف نعم:

رأيت نعماً وأصحابي على عجلٍ
والعِيسُ لِلْبَيْن قد شُدَّت بأكوارِ
بيضاء كالشمس وافت يوم أسعُدها
لم تؤذِ أهلاً ولم تُفْحِشْ على جارِ
يُلاثُ بعد افتضال الدُّرع منطقها
لَوثاً على مثْل دِعصِ الرُّملةِ الهارِي[1]
والطِّيبُ يزدادُ طيباً أن يكون بها
في جيدِ واضحة الخدين مِعْطارِ
تسقِي الفجيع إذا استسقى بذي أشر
عَذْبِ المذاقة بعد النومِ مِخْمارِ
كأن مَشمول صِرْفٍ عُلَّ ريقها
من بَعْد رقدتها أو شُهْدَ مشتارِ

(١) لوث يلوث لوثاً في الأمر: أبطأ فيه، بطؤ كلامه، ضعف واسترخى.

وقف الشاعر يتأمل موكب نعم وهو يستعد للانتقال من مكان إلى آخر، فحانت منه التفاتة إلى نعم، فإذا هي تشرق في هودجها، كما تشرق الشمس بالأسعد.

وهذه الفتاة وديعة مسالمة، لم تؤذ أحداً لا من قريب ولا من بعيد، ولها منطق يسحر من يسمعه، ويحدث فيه الأثر في النفس، وأما رائحتها فهي من الطّيب، ما يعجز عنه أكثر العطور رائحة وطيباً، وأما مذاقها فطيّب إذا ما ذاقه العليل شفي من مرضه وأكثر ما يكون مذاقها عذب، بعد يقظتها من النوم، وهي الفترة التي لا يكون فيها غالباً المذاق طيباً.

ويستمر النابغة في وصف محاسن (نعم) فإذا وجهها كسنا البرق لمعاناً، أو سنا نار متوهجة بل هي أكثر من ذلك، فهي النور الذي يسطع بين حالك الظلام، فيضيء ما حوله.

المحةٌ من سَنا بَـرْقٍ رأىَ بَصَري
أم وجه نُعْمٍ بدا لي أم سنا نارِ
بل وجه نعم بدا والليل معتكر
فلاح من بين أبواب واستارِ[1]

---

(١) الديوان ص ٢٠٢، ٢٠٣.

الفصل الثالث

النابغة في ميزان النقد الأدبي

النابغة في ميزان النقد الأدبي

أجمعت كلمة النقاد على أن النابغة كان أحد شعراء الطبقة الأولى، إن لم يكن رأس هذه الطبقة، فقد قرن ابن سلام النابغة إلى امرىء القيس وزهير والأعشى، فهؤلاء الأربعة في رأيه هم المقدمون على سائر الشعراء في الجاهلية[1].

وقال الأصمعي: كان النابغة يضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها[2].

ومما روي عن أبي عبيدة قوله: يقول من فضل النابغة على جميع الشعراء؛ هو أوضحهم كلاماً، وأقلهم سقطاً وحشواً، وأجودهم مقاطع، وأحسنهم مطالع، ولشعره ديباجة، إن شئت قلت: ليس بشعر مؤلَّف، من تأنثه ولينه، وإن شئت صخرة لو رُدِيَتْ بها الجبال لأزالتها[3].

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ وما بعدها.

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٦٧ - ١٦٨ والأغاني ج ٩ ص ١٦٣.

(٣) الأغاني ج ٩ ص ١٦٣. وصاحب الخزانة ج ١ ص ٢٨٨ والشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩.

وقال الشعبي: دخلت على عبد الملك وعنده رجل لا أعرفه، فالتفت إليه عبد الملك فقال: من أشعر الناس؟ فقال: أنا، فأظلم ما بيني وبينه، فقلت: من هذا يا أمير المؤمنين فتعجب عبدُ الملك من عجلتي فقال: هذا الأخطل، فقلت أشعر منه الذي يقول:

هــذا غــلام حــســنٌ وجــهُــهُ
مُسْتَقْبَـلُ الخيـر سـرِيـعُ التَّمـامْ
لـلحـارث الأكـبـر والـحـارث الـ
ـأصـغـر والأعـرَج خـيـر الأنـامْ
ثـم لـهـنـدٍ ولـهـنـد وقَـدْ
يَنْجَعُ في الرَّوضـات مـاءُ الغمـامْ
سـتَّـة أبـاء هـم مـاهُـمُ
هُمْ خيرُ من يشرَبُ صَفْوَ المُدامْ

فقال الأخطل: صدق يا أمير المؤمنين، النابغة أشعر مني، فقال لي عبد الملك: ما تقول في النابغة؟ قلت: قد فضله عمر بن الخطاب على الشعراء غير مرة، خرج وببابه وفد غطفان فقال: أي شعرائكم الذي يقول:

أتيتـك عـاريـاً خَـلْقـاً ثيـابـي
عـلى خَـوْف تُـظَنُّ بي الـظُّنـونُ

فألفيت الأمانة لم تخُنها
كذلك كان نوح لا يخونُ

قالوا: النابغة. قال: فأي شعرائكم الذي يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهبُ

قالوا: النابغة، قال: فأي شعرائكم الذي يقول:

فإنك كالليل الذي هو مُدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قالوا: النابغة؛ قال: هذا أشعر شعرائكم[1].

والذي نلاحظه هنا أن تفضيل عمر للنابغة جاء تحت التأثير الديني، فأبيات النابغة تحمل في معناها وحدانية الله وسيطرته على الوجود.

وعن الأصمعي قال: سمعت أبا عمرو يقول: ما كان للنابغة إلا أن يكون زهير أجيراً له[1].

وقال شُعَيب بن صخر: سمعت عيسى بن عُمر ينشد عامر بن عبد الملك المِسْمَعي شعر النابغة فقلت: يا أبا عبد الله، هذا والله الشعر لا قول الأعشى:

(١) المصدر السابق ص ١٦٣.

لسنـا نقـاتـل بـالعصــ ـي ولا نرامي بالحجـارة

ويقال: كان النابغة أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً، كان شعره كلاماً ليس فيه تكلّف، ونبغ في «الشعر بعدما احتنك، وهلك قبل أن يُهْتر»[1].

وروي بالسند عن أبي المؤمل قال: قام رجل إلى ابن عباس فقال: أي الناس أشعر فقال ابن عباس: أخبره يا أبا الأسود الدؤلي قال: الذي يقول:

فـإنـك كـالليـل الـذي هـو مـدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع[2]

فأبو الأسود الدؤلي أعجبته صورة الإدراك بمضامين النفس الإنسانية، وما يؤثر فيها من زاوية الاعتذار، وإن لم يلمح إلى ذلك.

ويقول السيوطي: إن رجال الحجاز كانوا يضعون النابغة وزهيراً في مرتبة واحدة من الإعجاب وكانوا يفضلونهماعلى سائر الشعراء، وان من الشعراء الذين اعترفوا بتفوق النابغة جرير ومعاصره الأخطل، وعالم اللغة أبو الأسود الدؤلي[3].

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي ص ١٦.
(٢) الأغاني، طبعة بولاق ج ١ ص ١٦٢.
(٣) الأغاني ج ٢ ص ٣٢ والمزهر للسيوطي ج ١ ص ٤٧٩.

ويروى أن عبد الملك بن مروان قد حمل كلام النابغة إلى المنذر عندما وقف ليخطب بالمدينة يوماً يحذر أهلها، فلم يبدأ بحمد الله كما هي العادة، ولكنه قال: يا أهل المدينة لن أحب أحداً منكم طالما تذكرت ما أصاب عثمان ابن عفان على أيديكم، ولن يحبني أحد منكم طالما بقيت ليوم حرة ذكرى من قلوبكم ثم أنشد أبيات النابغة:

أبى لي قبرٌ لا يزال مقابلي
وضربة فأس فوق رأسي فاقِرَه[1]

ويقول الحصري: من أحسن تخلص شاعر إلى معتمده قول النابغة الذبياني:

فكفكفتُ مني عَبْرَةً فرددتها
على النَّحْرِ منها مُسْتهِلٌ ودامِعُ
على حين عاتبتُ المشيب على الصبا
وقلت: أَلَمَّا أَصْحُ والشيب وازع
وقد حال هَمٌّ دون ذلك شاغِلٌ
مكان الشغاف تبتغيه الأصابع
وعيد أبي قابوس في غير كُنْهِهِ
أتاني ودوني واكِسٌ فالضواجعُ

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٥.

«وهذا كلام متناسب تقتضي أوائله أواخره، ولا يتميز منه شيء عن شيء»[1].

وقال محمد بن سلام الجمحي: سألت يونس النحوي عن أشعر الناس فقال: لا أومىء إلى رجل بعينه، ولكنني أقول: امرؤ القيس إذا غضب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب[2].

ونقل الراغب الأصفهاني، في كتاب المحاضرات، «أن أبا عمرو بن العلاء كان يقدم النابغة بعد امرىء القيس»[3].

من الاستشهادات التي ذكرناها بحق النابغة تتضح لنا المنزلة العالية التي أنزله إياها هؤلاء النقاد لكننا لا نلبث أن نجد آراءً أخرى لنقاد آخرين تنتقد مواضع كثيرة من شعر النابغة، وتسجل له فيها الضعف، فقد أورد ابن عبد ربه عدة نصوص للنابغة يقف فيها مع الأصمعي موقف الناقد، ويستهجن من النابغة فيها غلوه السقيم أحياناً، وعدم الدقة في استعمال كلماته أحياناً أخرى. ثم يستشهد ابن عبد ربه بنقده بالبيتين التاليين للنابغة والذين يقول فيهما:

---

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٠٣.

(٢) إرشاد الأريب لياقوت الحموي ج ٧ ص ٣١٠.

(٣) محاضرات الأدباء ص ٤٠.

يقد السلوقي المضاعف نسجه
ويوقد بالصفاح نار الحباحب
ليست من السود أعقاباً إذا انصرفت
ولا تبيعُ بجنبي نخلة البُرما

فقد ذكر أنه يقد الدرع المضاعف نسجُها، والفارس والفرس، ويقع بها في الأرض فيقدح النار من الحجارة، وهذا من الإفراط القبيح في وصف السيف.

وفي البيت الثاني أدرك عليه قوله هذا في وصف الثور.

قال الأصمعي: إنما توصف الإماء في مثل هذا الموضع بالرواح لا بالغدو، لأنهن يجئن بالحطب إذا رُحْن[1].

ومما أخذ على النابغة قوله:

خطاطيف حُجْن في جبال مقينة
تُمُدُّ بها أيدٍ إليك نوازعُ[2]

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٨٣ وج ٥ ص ٣٥٨.

(٢) الخطاطيف: جمع خطاف البئر، وهو مثل القَعْو الذي فيه البكرة، إلا أنه من حديد والقعو من خشب والحُجْن: جمع أحجن وهو المعوج. النوازع: أي الجواذب، ويقال: نزعت من البئر دلواً أو دلوين، إذ جذبتهما.

فشبه نفسه، وشبه النعمان بخطاطيف حُجن، يريد خطاطيف معوجة تمد بها الدلو. وكان الأصمعي يكثر التعجب من قوله:

وعيـرتنـي بنـو ذبيـان خَشْيَتـه
وهـل علي بأن أخشـاك من عـارِ

ومما أدرك على النابغة قوله يصف الثور:

تحـيد عـن اسْتَن سُـودٍ أسـافُله
مثل الإماء الغوادي تحمل الحُـزَما[1]

وقال ابن قتيبة ان النابغة كان يُقْوي في شعره، فعيب ذلك عليه وأسمعوه في غناءٍ:

أمِـنَ آل مَـيَّـةَ رائِـحٌ أو مُـغْـتَـدِ
عَـجْـلان ذا زادٍ وغـيـر مـزوَّدِ
زعـم الـبـوارِحُ أن رحـلـتـنـا غـداً
وبـذاك خَـبَّـرنـا الـغـراب الأسـودُ

---

(١) الأستن: شجر سود، واحدتها أستنة، وقيل: ثمرة يقال لها: رءوس الشياطين (العقد الفريد ج ٤ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩).
قال الأصمعي، وإنما توصف الإماء في مثل هذا الموضع بالرواح لا بالغدو لأنهن يجئن بالحطب إذا رحن (الشعر والشعراء ج ١ ص ١٦٨ ـ ١٦٩).

فـفـطن فـلـم يُـعِـدْ[1]

وقال عمر بن العلاء: كان الأخطل يشبه بالنابغة.

وقال: وكان يقوي في شعره، فدخل يثرب فغنى بشعره، ففطن فلم يعد للاقواء[2].

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني عن أبي عبيدة قوله: كان فحلان من الشعراء يقويان النابغة وبشر بن أبي حازم؛ فأما النابغة فدخل يثرب فهابوه أن يقولوا له كنت، أو أكفأت، فدعوا قينة وأمروها أن تغني في شعره ففعلت، فلما سمع الغناء وغير مزودِ والغراب الأسود، وبان له ذلك في اللحن فطن لموضع الخطأ فلم يعد.

وعن ابن شبة قال: حدثنا خلاد الأقرط وغيره من علمائنا قالوا: كان النابغة يقول: ان في شعري لعاهة ما أقف عليها، فلما قدم المدينة غني في شعره فلما سمع قوله: واتقتنا باليد، ويكاد من اللطافة يعقد، تبين له لما مدت باليد، فصارت الكسرة ياء، ومدت يعقد فصارت الضمة كالواو ففطن بغيره وجعله عنم على أغصانه لم يعقد. وكان يقول: وردت يثرب وفي شعري بعض العاهة فصدرت عنها

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٨.

وأنا أشعر الناس، وقوله لا مرحباً لا سعة ونصبه ههنا شبيه بالمصدر كأنه قال: لا رحب رحباً، ولا أهل أهلاً، وأزف قرب.

ولما سمع صالح بن حسان قول النابغة يصف المتجردة:

سقط النصيف ولم تـرد إسقـاطـه
فـتـنـاولـتـه واتـقـتـنـا بـالـيـدِ

قال: كان والله النابغة مخنثاً. قلت: وما علمك به أرأيته قط؟ قال: لا والله.

قلت: فأخبرت عنه. قال: لا. قلت: فما علمك به. قال: أما سمعت قوله:

سقط النصيف ولم تـرد إسقـاطـه
فـتـنـاولـتـه واتـقـتـنـا بـالـيـدِ

لا والله ما أحسن هذه الإشارة ولا هذا القول إلا مخنث[1]

ومما أخذ على النابغة قوله:

تخب إلى النعمـان حتى تنـالَـهُ
فـدىً لك من ربٍّ طـريفي وتالِـدي

---

(١) الأغاني (طبعة بولاق) ج ٩ ص ١٦٤ - ١٦٥.

وكنتُ امـرءاً لا أمدح الـدهر سُـوقةً
فلست على خيـرٍ أتـاك بحـاسدِ[1]

فامتنَّ عليه بمدحه، وجعله خيراً سيق إليه لا يحسُدُه عليه.

وأخذ عليه قوله:

إذا ما غـزا بـالجيش حلق فـوقَـهُ
عصـائب طَيْـرٍ تهتـدي بعصـائبِ
جـوانـح قـد أيـقـنَّ أنَّ قـبـيـلَهُ
إذا مـا التقى الجمعـان أوَّلُ غـالبِ

جعل الطير تعلم الغالب من المغلوب قبل التقاء الجمعين، والطيرُ قد تتبع العساكر للقتلى، ولكنها لا تعلم أيـهـا يـغـلـب[2]

قالوا: وقد سبق في صفة الثور إلى معنى لم يُحْسِنْ فيه، وأحسن فيه غيره، قال يذكرُهُ:

---

(١) الموشح للمرزباني ص ٤٤.

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٦٩ . في هذا الاعتراض رأي يعاكسه ويعيد الاعتبار للنابغة، فقد فسر هذا البيت الوزير أبو بكر فقال؛ يريد أنها اعتادت بمصاحبتهم أن تقع على قتلى من يعاديهم، فهذا هو يقينها، لا أنها تعلم الغيب وبين هذا في البيت بعده لهن عليهم عادة قد عرفنها، (انظر معاهد التنصيص ص ٥٤٠ ـ ٥٤٢).

من وَحْشِ وَجْرَة مُوشِيٍّ أكارِعُهُ
طاوِي المصيرِ كسَيْفِ الصَّيقَل الفَرِدِ[1]

أراد بالفرِد: أنه مسلول من غمده.

قالوا: وأفرط في وصف العنق بالطول، فقال يذكر امرأة:

إذا ارتعشت خاف الجبان رعاثها
ومن يتعلَّقْ حيثُ عُلِّقَ يَفْرَقِ

والرعاث القرط.

ومما أكفأ فيه قوله في قصيدة مجرورة أولها:

قالت بنو عامرٍ: خالوا بني أسد
يا بؤس للجهْل ضراراً الأقْوامِ

وقال فيها:

تبدو كواكبه والشمس طالعة
لا النور نورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ[2]

استعرضنا بعض آراء النقاد القدامى والمحدثين التي

---

(١) وجرة: موضع بين مكة والبصرة كثير الوحش. المصير: جمعه مصران. الفرد: المنفرد.

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٧١ و ١٧٣.

تظهر محاسن شعر النابغة، والمنزلة الرفيعة التي أنزله فيها ذلك الشعر، ثم آراء نقاد آخرين تظهر بعض مواطن الضعف أو الخلل في شعر النابغة. بقي علينا أن نحاول نحن بالتالي أن يكون لنا رأي، أو موقف من شعر النابغة، لنتبين ما لم يأت به هؤلاء وأولئك من النقاد. فلو استعرضنا ديوان النابغة لوجدنا في شعره أشياء كثيرة من مواطن الإجادة أو الضعف لم يأت على ذكرها هؤلاء النقاد، أو أولئك.

فلنأخذ قصيدته الدالية في مدح النعمان، ونرى ما فيها من روائع اللغة، والوصف، والتشبيه.

ففي البيت الأول نجده يستخدم المهارة اللغوية عندما يستخدم كلمة (أقْوَتْ) ولم يقل (أقْوَيْتِ) لأن من كلام العرب أن يخاطبوا الشيء ثم يتركوا خطابه ليكفوا عنه، كقوله عز وجل: «حتّى إذا كنتُمْ في الفلك وجرَيْن بهمْ» أي الفلك.

واستخدام النابغة في البيت الثاني التصغير لأصيل وهو أصيلان ليدل على الفترة الزمنية القصيرة التي قضاها في مروره على الديار.

وفي البيت الرابع سكن الياء من (أقاصيه) ضرورة، وجاز ذلك تشبيهاً بالألف؛ لأنها لا تكون إلا ساكنة، والياء أختها في المد واللين، فحملت عند الضرورة عليها.

واستخدامه عبارة الثأد: المكان الندي كمصدر وضع موضع الصفة.

وفي البيت الثامن نجد لفظة الصريف، فقد ذكر أهل اللغة أن الصريف في الفحول من النشاط، وفي الأناث من الإعياء، وبيت النابغة لا يحتمل إلا النشاط، وقد حكي عن أبي زيد[1] أن الناقة تصرف من النشاط والإعياء، والفحل من النشاط والهياج والإعياء ونصب صريف القعو على تقدير المصدر؛ كأن قال: بازلها يصرف صريفاً مثل صريف القعو. والرفع على تقدير: له صريف مثل صريف القعو.

مَقـذُوفةٍ بـدخيس النَّحضِ بـازلُهـا
لـه صـريفٌ صـريفُ القَعْـوِ بـالمَسَـدِ

وفي البيت العاشر قوله:

من وحش وَجْـرَة مـوشيٍّ أكـارِعُـه
طاوي المصيرِ، كسيْفِ الصَّيْقَل الفَرِدِ

---

(١) أبو زيد: هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري الخزرجي من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء، كما كان أيضاً من تلاميذ المفضل الضبي الكوفي، كان شديد العناية بجمع اللغات واللهجات ولما استخلف المهدي سنة ١٥٨هـ/٧٧٤م استقدمه مع كثير من العلماء إلى بغداد. توفي أبو زيد وقد قارب المائة سنة ٢١٤هـ/٨٣٠م (المعارف لابن قتيبة ص ٢٧٠ وتاريخ بغداد ج ٩ ص ٧٧ - ٨٠.

فقوله: (طاوي المصير): أي ضامر، والمصير: المَعي، وكنى به عن البطن، وجمعه مُصْران. وجمع مُصْران مصارين.

وفي البيت الحادي عشر يقول:

أسْرَتْ عليه من الجوزاءِ سارية
تُزْجي الشَّمالُ عليه جامِدَ البَرِدِ

فسرى وأسرى: إذا جاء المرء ليلاً، فجمع الشاعر هنا بين اللغتين فقال: أسْرَتْ ثم قال (سارية) فبناها على (تسترتْ).

ولننظر إلى البيت الثامن عشر من قصيدة النابغة وهو يتحدث عن النعمان بعد أن سمع بأنه عليل. يقول النابغة:

الكِنْي إلى النعمان حيث لقيتَه
فأهدى له الله الغُيُوثَ البواكرا

فقوله (الكني) أي بلغ عني، واشتقاقه من الألُوك والمألكة، وهي الرسالة، وأصله: الئكني، فخففت الهمزة، وغلبت حركتها على اللام، وأصل ألْكِني آلكني فقلبت الهمزة من فاء الفعل إلى عينه، ثم خُفِّفت بعد القلب، وأصل تعدّي اِلْكْني بحرف الجر، وأصله: اِلكْ عني، فحذف حرف الحر ووصل إلى الفعل، كما يقال: تأني وتأنى عني.

ولنلاحظ البراعة في استخدام حتى حروف الجر عند النابغة ليبين حسن تصرفه فيما يقول:

يقول في البيت السابع من وصف المتجردة:

غَنِيَتْ بذلك إذ هُمُ لك جيرةً
منها بعطْفِ رسالةٍ وتَوَدُّدِ

فقوله «بعطف رسالة» أي أقامت بذلك مع عطف الرسائل. والباء بدل من (مع). وقوله: «منها» أراد بعطف رسالة منها، فـ(منها) تبيين وليست بعلة للمصدر فلذلك قدمها.

إن ما ذكرناه من إبداع النابغة في علم اللغة ليس إلا أمثلة على سبيل الحصر لا على سبيل التعميم.

وإذا ما انتقلنا إلى عالم الوصف والتشبيه نرى من ذلك ما هو أعجب وأقدر على الأتيان به. لننظر إلى هذه اللوحة الجميلة التي رسمها لنا النابغة وفيها يصف معاناته هو وناقته للوصول إلى ممدوحه النعمان وما شاهده في طريقه من حيوانات الصحراء.

يقول النابغة:

كأن رَحْلي، وقد زال النّهارُ بنا
يوم الجَليل على مستأنِسٍ وَحَدِ

مـــن وَحْش وَجْــرَةَ مــوشــيٍّ أكــارِعُــه
طـاوي المصيـر، كسيف الصيقـل الفـردِ

إنها صورة للثور الوحشي الذي التجأ إلى شجرة هي الشمام ليحتمي بها وهو وحيد يخاف الأنيس، يراقب من حوله مخافة أن يراه أحد، والسبب الذي من أجله يخاف هذا الثور، أنه موجود في منطقة كثيرة الوحوش، وهذا الثور ضامر البطن من شدة الجوع والعطش ولون هذا الثور أبيض قد وشيت قوائمه بنقاط سوداء، وهو يلمع في بياضه كالسيف اللماع. ويفاجأ هذا الحيوان بسحابة ممطرة شديدة البرودة تسقط عليه البَرْد الجامد، مما زاد من تعاسته وخوفه، بات ليلته في هذا الوضع السيء ليأتيه الصباح وهو يحمل معه نباح الكلاب، وقد عرفت مكانه فجاءت إليه لتصيده، فما كان منه إلا أن استعد للقتال:

أسْــرَتْ عليــه منَ الـجــوزاء ســاريــة
تــزجي الشّمــالُ عليــه جــامــد البَــرَدِ
فــارتــاع من صــوت كَـلاَّبٍ فبــات لــه
طَــوْعُ الشــوامتِ من خــوفٍ ومن صَـرَدِ

وتدور المعركة بين الكلاب وبين الثور، فيفتك الثور بالكلاب فتكاً قوياً فيقتل أحدهما ويجرح الآخر، فلم يعد

أمام هذا الأخير إلا الفرار من الثور والنجاة لهذا نراه يعدو منتصراً على خصومه.

قالت له النفس: إني لا أرى طمعاً
وإن مولاك لم يسلم ولم يَصِدِ

بعد هذا الوصف لتلك المعركة، ينتقل النابغة للحديث عن ناقته التي أشبه ما تكون قوة بذلك الثور، وهي تحمله إلى النعمان الذي له الفضل على الناس القريب منهم والبعيد. والشاعر لا يرى بين الناس شبيهاً للنعمان في صنع الخير على سبيل التعميم لا الاستثناء فيقول حاشا فلاناً فهو يشبهه في فعل الخير.

اللهم إلا سليمان استثناءاً من القوم المنفي عنهم شبه النعمان، الذي خاطبه ربه وقال له: قم في البرية وامنعها من الوقوع في الخطأ قولاً وفعلاً، واجتهد في النظر في مصالحها وإرشادها.

فمن أطاعك فانفعه جزاء طاعته وآدلله على فعل الرشاد.

فتلك تُبْلِغُني النُّعْمان، انّ له
فضلاً على الناس في الأدنى وفي البَعَدِ

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشْبِهُه
ولا أحاشي من الأقوام من أحدِ
إلا سليمان إذ قال الإله له
قُمْ في البرية فاحْدُدْها عن الفَندِ
فمن أطاعك فانْفَعْهُ بطاعته
كما أطاعك، وأدْلُلْه على الرشدِ

هذه المشابهة التي ساقها الشاعر بين النابغة وسليمان نبي الله، ما هي إلا لإلفات نظر النعمان بأن يتشبه بسليمان في معاملته مع الناس، فمن أطاعه نفعه بطاعته، ومن عصاه سامه الذل والغيظ والحقد.

ومن عصاك فعاقبه معاقبة
تنهي الظلوم ولا تقعد على ضَمَدِ

وبما أن النابغة هو ممن يحب النعمان، فعليه إذن أن يحظى برعايته ورضاه.

ولننظر إلى لوحة أخرى يصور فيها النابغة كرم النعمان، فلم يجد إلا الفرات في أيام فيضه فترتفع أمواجه لتلقي بنفسها في الأودية، فتبعث فيها الحياة والخصب.

فما الفراتُ إذا هَبَّ الرِّياح له
تَرْمي غواربُه العِبْرَيْن بالزَّبدِ

يَـمُـدُّهُ كـلُّ وادٍ مـتـرع لـجـبٍ
فـيـه رُكـامٌ من الـينبـوت والـخَـضَـدِ

هذا النهر في عطائه لم يكن في يوم من الأيام بأجود من الممدوح وهو النعمان بن المنذر ولو بعطاء التطوع غير الواجب، وهو أي النعمان لا يحول عطاؤه اليوم دون عطائه غداً.

يـومـاً بـأجـود مـنـه سيـب نـافلةٍ
ولا يَـحُـولُ عـطاءُ الـيـوم دون غـدِ

وفي قصيدة النابغة (بانت سعاد) البيت التاسع عشر يقول:

تـحـيـد عـن أسْتَـن سـود أسـافِلُه
مشي الإمـاء الغـوادي تحمـل الحـزمـا

فقد شبه الأستن وهو الشجر الأسود في سواد أسافله وطوله بإماء سود يحملن الحزما وأوقع التشبيه في اللفظ لا على المشي لأنه السبب في ظهور أسافلهن وتبين سوادهن وفي البيت الثاني والعشرين يقول في وصف الثور الوحشي:

مـوَلّـيَ الـريـح رَوْقَـيْـه وجـبـهـتـه
كـالـهِبْـرِقـيّ تنحّى ينفُـخُ الـفـحـمـا

فقد شبه الحداد وهو الهبرقي بالثور لأنه مكث يبحث الرمل، ويكب عليه، فيجتهد وينفخ من التعب، كما يكب الحداد النافخ للفحم في شدة نفسه.

ومن الوصف البديع والتشبيه الرائع قوله في الغزل:

نظرتْ بمُقْلة شادنٍ متربِّبٍ
أحوى أحمَّ المقلتين مقلَّد

والنظم في سِلْكٍ يزين نحرَها
ذَهَبٌ توقَّدُ كالشهاب الموقَدِ

صفراءُ كالسِّيراءِ أُكْمِلَ خَلْقُها
كالغُصْنِ في غُلَوائِهِ المتأودِ

قامت تراءَى بين سِجْفَيْ كِلَّةٍ
كالشمس يوم طُلوعها بالأسعُدِ

أو دُرَّة صدفيَّةٍ غواصُها
بَهِجٌ متى يَرَها يُهل ويَسْجُدِ

فالنابغة في البيت الأول يشبه الجارية بالغزال ربَّتْهُ الجواري وزينته، بحُسن عينيها وسوادهما، وطول عنقها، ووصف الغزال بما يزيد في حسنه من جعل الحلي عليه؛ ليكون ذلك أبلغ في التشبيه. والأحم الأسود.

وفي البيت الثاني؛ يصفها بأنها ذات نعمة وحليّ،

والنظم: اسم المنظوم، والسلك خيط النظام، والشهاب النار، وقد شبه الذهب به، في حمرته وبريقه.

وفي البيت الثالث: وصفها بالنعمة وتمكن الحال، والسِّيراء: الحريرة الصفراء، شبهها بها، لصفرة الطيب، وللين بشرتها ولطافتها، والغصن المتأود: المتثني؛ لطوله ونعمته، وشبهها به لكمال طولها ونعمتها وتثنيها.

وفي البيت الرابع شبهها بالشمس لإشراقها وحسنها، وجعل طلوع الشمس بالأسعد ليكون ذلك أتم للتشبيه، وأبلغ في الوصف.

وفي البيت الخامس: شبه المرأة بالدرة في صفائها ورقة بشرتها.

ولننظر إلى النابغة كيف يتلاعب ما يشاء في الالفاظ، فيستخدمها تارة لإظهار المحاسن وتارة أخرى لإظهار المساوىء.

يقول في وصف بني (حُنٍّ) ليخيف النعمان بن الحارث من غزوهم:

عظام اللُّها أولادُ عُذْرَة إنّهم
لهاميمُ يستلْهُونَها بالحَناجِرِ[1]

(١) الديوان تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ص ٩٨.

فهو يصف بني (حُنٍّ) بأنهم لا يقاومهم شيء في عظم الخلق، وسعة الصدر، في احتمال الشدائد، وأن العطايا العظام تصغر عندهم، حتى تكون بمنزلة ما يبتلعونه في حلوقهم، ففعالهم عظيمة، وعطاؤهم جزيل، وظاهر اللفظ يدل على أنه وصفهم بعظم الحلوق، وكثرة الأكل تشنيعاً للأمر، وتخويفاً للنعمان منهم.

ولنشاهد هذا المظهر الذي أظهره الشاعر لنا للنخلة وقد ألقت بليفها، وأشارت به كما يلوي الرجل ثوبه من مكان مرتفع ليشير به على غيره.

بـزاخـيّـةٍ أَلْـوَتْ بـلـيـفٍ كـأنـه
عِفـاءُ قِـلاص طـار عنهـا تـواجِـرِ[1]

أرأيت أبدع من هذا التشبيه في ربط الأحداث بعضها ببعض لاستخلاص صورة من الصور أو مشهد من المشاهد.

وفي إظهار براعته البلاغية يقول النابغة:

وتُـخْـضَـبُ لحـيـةٌ غـدرت وخـانَـتْ
بـأحْـمـرَ من نـجيـع الـجـوف آني[2]

---

(١) بزاخية: أي فيها تقاعس لكثرة حملها، ويقال: نسبتها إلى بُزاخة وهي موضع بالبحرين.

(٢) الديوان ص ١١٣.

فقد نسب الغدر إلى اللحية مجازاً، وإنما أراد صاحبها.

وكما فات النقاد كثيراً من مواطن الإبداع عند النابغة، فقد فات بعضهم الآخر مواطن ورد فيها الإقواء ولم يأت على ذكرها هؤلاء، ويمكننا أن نحصي هذه الأبيات بما يلي:

قصيدة رقم ١١ سطر ٥

تبدو كواكبه والشمس طالعةٌ
لا النور نور ولا الإظلامُ إظلامُ

الصحيح.................. ليل كإظلامِ

قصيدة رقم (١٣) وصف المتجردة سطر ٣

زعم البوارح أن رحلتنا غداً
وبذاك أخبرنا الغراب الأسودُ

الصحيح .... تنعاب الغراب الأسودِ

سطر ١٨

بمخضب رخص كأن بنانه
عَنَمٌ يكاد من اللطافة يعقدُ

الصحيح.........غَنَمٌ على أسماره لم يعقدِ

قصيدة رقم ١٤ وفيها يحذر النابغة النعمان بن الحارث الغساني من محاربة (بني حُنٍّ) سطر ٦

بـزاخـيَّـة ألـوتْ بـلـيـف كـأنّـه

عـفـاء قِـلاصٍ طـار عنـهـا تـواجِـرُ

الصحيح.............. تواجرِ (صفة لقلاص)

قصيدة رقم ٢٦ وفيها يتحدث عن وقعة عمرو بن الحارث الأصفر الغساني ببني مُرّة سطر ١٠

وإنـي عـدانـي عـن لـقـائـك حـادث

وهـم أتـى مـن دون هـمّـك شـاغِـلُ

الصحيح................ شاغلي

قصيدة رقم ١٥ وفيها يمدح غسان سطر ١

لا يـبـعـدِ اللهُ جـيـرانـاً تـركـتـهـم

مثـل المـصـابيـح تـجلو لـيلة الـظُّلَمِ

من خلال دراستنا لآراء القدماء، نستطيع أن نقول: بأن أحكامهم عن النابغة جعلت له ميزات فنية جيدة، مع بعض العيوب التي تؤخذ عليه هذا عن القدماء من النقاد، أما المحدثين، «فلم يتعرض أحد منهم لنقد شعر النابغة ومحاولة إبراز خصائصه إلا إذا استثنينا الدكتور طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي»[1] فهو يرى أن الناس يقدمون النابغة بقوله:

---

(١) النابغة الذبياني لمحمد زكي العشماوي ص ١٩٣.

فـإنـك كـالليـل الـذي هـو مـدركي
وإن خلت أن المنتـأى عـنـك واسـع

ويضع طه حسين يده على مواطن الإبداع عند النابغة في هذا البيت، فإذا هو التشبيه البديع، وجمال التشبيه جاء من «أنه مادي في جوهره معنوي في غايته»[٢] ويقول طه حسين أيضاً:

والناس يحمدون للنابغة قوله:

ألـم تـر أن الله أعـطاك سـورة
تـرى كـل مـلك دونـهـا يـتـذبـذبُ
بـأنـك شـمس والـمـلوكُ كـواكـب
إذا طـلعـت لـم يـبـد مـنـهـن كـوكـب

وأي شيء في هذين البيتين إلا هذا التشبيه المادي في جوهره، المعنوي في غايته.

وللنابغة في شعره صور جياد حسان لا أستطيع أن أهمل منها هذه الصورة البديعة في قوله:

والـخـيـل تـمـرع غـربـاً في أعـنـتـهـا
كـالطيـر تنجو من الشؤبـوب ذي البرد[١]

(١) في الأدب الجاهلي دار المعارف ص ٣٠٧.

ويحاول الدكتور طه حسين أن يقسم الشعر الجاهلي إلى مدارس لكل مدرسة خصائصها الفنية التي تتميز بها عن غيرها، فهناك مدرسة تجمع بين زهير وأوس بن حجر والحطيئة وكعب، والنابغة، وأن هؤلاء يأخذ بعضهم عن بعضهم الآخر[1].

(١) في الأدب الجاهلي ص ٣٠٢.

الفصل الرابع

دراسة تحليلية للعناصر الفنية في شعر النابغة

دراسة تحليلية للعناصر الفنية في شعر النابغة

درسنا شعر النابغة الذبياني، وتعرفنا على أهم الموضوعات الشعرية التي تناولها في ديوانه وهي المديح والاعتذار والرثاء والوصف، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: هل هذه الموضوعات كانت متعادلة في جودتها عند الشاعر، أم كانت متفاوتة بين موضوع وآخر، والجواب على السؤال يكون من خلال دراستنا للعناصر الفنية لكل موضوع من هذه الموضوعات.

فبالنسبة لموضوع المدح نجد أن من أبرز خصائصه المبالغة والتعظيم، وإكثاره من التشابيه المحسوسة، بأسلوب يغلب عليه السرد القصصي، ونحن نلمس هذه المميزات في تشبيهه النعمان، تارة بالملك سليمان في قوة سلطانه، وتارة بالشمس لعظمته بين الملوك، وطوراً بنهر الفرات في جوده وكرمه وعطائه.

وإذا كنا نحن نستحسن هذه التشبيهات لأنها في معظمها تدل على القوة والسيْطرة التي تجد عند الملوك الاستحسان، والصدى المؤثر في النفس، فسليمان ليست

قوته بشرية خالصة، بل هي مستمدة من قوة الله تعالى الذي وهبه هذا السلطان الواسع نتيجة لرغبة من سليمان، فسخر له كل شيء يجري برغبته، ويتحرك بالقدرة الإلهية، كذلك الشمس هي قوة نارية رهيبة سخرها الله لخدمة الإنسان، فالنعمان بن المنذر، يتمنى أن يكون كهذه القوى، يستمد عظمته من الله، كذلك الفرات ينعم على الناس بكرمه وعطائه لا بحركة منه، فهو شيء غير عاقل، بل من الذي سخره للقيام بهذا العمل.

إن هذه الأوصاف نظر إليها في غير معناها الحقيقي عند الباحثين، فجاءت «كلاماً ضعيف اللفظ، سخيف المعنى»[1].

وكما أهدى الله تعالى الريح لسليمان تجري بأمره، فكذلك أهدى الله تعالى للنعمان الغيوث تجري برغبته، فيكون خيرها على الناس جميعاً.

الكني إلى النعمان حيث لقيته
فأهدى له الله الغيوث البواكرا

ويستخرج النابغة من الاضداد معان ليدل بها على فكرة يريد التعبير عنها، فلنلاحظ ذلك في قوله:

---

(١) في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين ص ٣٠٤.

تبدو كواكبه والشمس طالعةً
لا النور نور ولا الإظلام إظلام

فهو يريد أن يقول مهدداً أعداءه، بأنه سيأتيهم يوم لا كنوره نور لمن ظفر، ولا كظلمته ظلمة لمن ظُفر به، فهو يوم طويل لما فيه من الحزن والغم، وتكبد للخسائر، مظلم حتى لكأن الكواكب لا تبدو فيه.

أو تزجروا مكفهراً لا كفاء له
كالليل يخلط أصراماً بأصرامِ

أي لا إظلام ليلٍ كإظلام هذا اليوم.

ولنحاول البحث عن أوصاف أخرى أجاد النابغة في استخدامها بالإضافة إلى ما ذكرناه، فسنجد منها الكثير، انظر إليه كيف جعل النعمان بن المنذر ربيع الناس، فالربيع مصدر الخصب والخير، لهذا يسر الناس لمجيئه ويحزنون لزواله، كذلك النعمان يسر الناس لبقائه على قيد الحياة، ويحزنون كثيراً عندما يسمعون بمرضه، كما جعله كالشهر الحرام، ففي هذا الشهر يحرم القتال، فيعم السلام فيه، وتركن النفوس إلى الهدوء والدعة، كذلك النعمان يبسط بين الناس السلام لأنهم يخافون منه، ولا يتجرأ أحد على مقاتلة آخر طالما هو حيّ.

فإن يهلك أبو قابوس يهلكْ
ربيع الناس والشهر الحرام

وقد عاب النقاد على النابغة هذا القول، وقالوا إنه رثاء للنعمان وهو حي، وفي رأيي أن العيب كان يجب أن يوجه للنابغة في غير هذه الصورة، فنحن كنا سنعجب برأيهم لو أعابوا قوله:

ونُمْسِكُ بعده بذناب عيش
أجبُّ الظُّهرِ ليس له سَنامُ

فقد جعل مصدر الرزق محصوراً بالنعمان، دون أن يدرك بأن هناك مصدراً للرزق فوق النعمان وهو الله تعالى. ثم خوف النابغة الغير مبرر على ما سيؤول إليه أمره وأمر الناس بعد موت النعمان من شظف العيش، والهزال من قلة الزاد.

والنابغة وإن كان في معانيه يستكين للممدوح، ويستذل له، ويتشبه بالعبد. مضائلاً من قدره للتعظيم من قدر الممدوح، اعترافاً منه بالجميل:

فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسعُ
خطاطيف حُجْنٌ في حبال متينة
تَمُدُّ بها أيدٍ إليك نوازع

أتــوعــد عبــداً لم يخنــك أمــانــة
وتتــرك عبــداً ظــالمـاً وهــو ضــالــع[1]

فإن هذه المعاني جاءت في معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل، ومن الصورة الموثقة الدقيقة[2].

والنابغة في مدحه يحشد الصور الخارقة التي تعزل ممدوحيه عن سائر البشر لنسمعه وهو يمدح عمرو بن الحارث الأصغر الغساني:

عتــاد امـرىء لا ينقص البعــد همــه
طلوب الأعــادي واضـــح غير خــاملِ
تــحيــن بكــفيــه المــنــايــا، وتــارة
تســحــان سحــاً من عــطاء وســائــلِ
إن حـــل بـالأرض البـــريـــة أصبحت
كئيبـــة وجـــه غيهـــا غيـــر طـــائـــلِ
يــؤم بـــربـــعـــي كـــأن زهـــاءه
إذا هبط الصحـــراء حرَّةَ راجـــلِ[3]

ولننظر إلى هذه اللوحة الزاهية التي رسمها النابغة للغساسنة، وكيف أظهر فيها بطولاتهم وشجاعتهم:

---

(1) الديوان ص ٣٨.
(2) العصر الجاهلي ص ٢٨٥.
(3) الديوان ص ١٨٧ ـ ١٤٨.

إذا ما غزوا في الجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهتدي بعصائب
يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم
من الضاريات بالدماء الدوارب
إذا استنزلوا عنهن للطعن ارقلوا
إلى الموت إرقال الجمال المصاعب
فهم يتساقون المنية بينهم
بأيديهم بيض رقاق المضارب[1]

ولننظر إلى لوحة أخرى من مدح النابغة للنعمان بن المنذر.

وَصَبَّحَهُ فَلْج ولا زال كعبه
على كل من عادى من الناس ظاهرا
ورب عليه الله أمن صنعه
وكان له على البرية ناصرا
فألفيته يوماً يبير عدوه
وبحر عطاء يستخف المعابرا[2]

أرأيت هذه الصورة الباهتة، الخالية من الألوان،

---

(١) الديوان ص ٤٣ - ٤٤.

(٢) الديوان ص ٧١.

الساكنة الحركات، لأن البرودة تغشاها، وعدم الانفعال ينعدم منها. فإذا ما قارنتها بسابقتيها لأدركت الفارق الكبير بينها، فاللوحتان السابقتان تضجان بالحركة، والروح، والانفعال، وما ذلك إلا لأن صاحبها يعايش الأجواء إن لم يكن بالجسد فبالروح، أما في لوحة النعمان فلا نجد لهذا أثراً، ونحن لا نكون مغالين إذا قلنا ان لوحات العطاء والسخاء والكرم التي صورها النابغة للنعمان، هي أفضل بكثير من لوحات البطولة والشجاعة التي ذكرها له.

وقد لفتت مدائح النابغة للغساسنة وتميزها نظر شوقي ضيف، فأشار إلى «أننا لا نلم بمديحه للغساسنة حتى نؤمن حقاً بأنه كان شاعراً تاريخياً، يعرف كيف يتخير ألفاظه، وكيف ينوع معانيه، وكيف يتمم صوره»[1].

والسؤال الذي نطرحه على أنفسنا هو؟ هل كان للتأثير الحضاري الذي رآه النابغة عند الغساسنة دور في إضفاء تلك الصورة البديعة على مدح الغساسنة، وانعدامها عن المناذرة الجاهليين.

الواقع أن العين لا تستطيع أن تصف إلا ما ترى، وإذا وصفت ما لم تره كان وصفها مشوشاً وغير واقعي.

---

(١) العصر الجاهلي ص ٢٨٢.

فالنابغة يمدح الغساسنة بما رآه عندهم، وقد اختار لأجل ذلك الألفاظ الملائمة كوصفهم بأن نعالهم رقيقة، أعفاء، مصونون، ذوو نعمة وسعة في الملك، تقوم على خدمتهم الإماء البيض الحسان، وأرديتهم من الخز الأحمر يعلقونها فوق المشاجب، وقد اعتادوا صيانة أجسادهم، وترفيهها، فملابسهم شديدة البياض، خضراء المناكب وهم على بسطة من العيش، ونعم الحياة.

رقاق النعال، طيب حجزاتهم
يحيون بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم
واكسية الإضريج فوق المشاجب
يصونون أجساداً قديماً نعيمها
وخالصة الأردان خضر المناكب

إن هذه الصورة التي يعرضها علينا النابغة للغساسنة، لا نراها في معرض مدحه للمناذرة فنحن نرى النعمان ذا فضل سباق إليه كسبق الجواد الأصيل إلى غايته.

إلا لمثلك أو من أنت سابقه
سبق الجواد إذا استولى على الأمدِ[1]

---

(١) الديوان ص ٢١.

أو هو ربيع يعيش الناس في خيره وعطائه.

وأنت ربيع ينعش الناس سيبه
وسيف أعيرته المنية قاطع[1]

أو أنه شمس والملوك كواكب:

بأنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[2]

وقد نتلمس صورة من صور الحضارة بادية عند النابغة، عندما يشبه النعمان بن المنذر بالفرات، فيصف اضطرابه، ومعه اضطراب الملاح وخوفه من الغرق، فاعتصم بالخيزرانة لينجي:

يظل من خوفه الملاح معتصماً
بالخيزرانة بعد الأين والنجد[3]

وقد فرق الدكتور شوقي ضيف، بين المعاني الحضارية التي جاء بها النابغة في مدح الغساسنة، وبين المعاني التي أتى بها شعراء البادية أمثال زهير في مديحه فقال: «هو في ذلك يختلف عن شعراء البادية، أمثال زهير

---

(١) الديوان ص ٣٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٧٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٧.

في مديحه، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعاني، ولا تلم في خواطرهم، أما هو فعاش أغلب أيامه في الحيرة، وفي بلاط الغساسنة، فكان طبيعياً أن يختلف في ذوقه عن ذوق البدو، وأن يأتي بمثل هذه المعاني التي تروق ممدوحيه من الأمراء»[1].

ولكن شوقي ضيف لم يشر إلى الطابع البدوي الذي كان مسيطراً عليه قبل مجيئه إلى الغساسنة كما سبق وذكرنا.

رأينا بعض مميزات المدح عند النابغة، أما ميزات الاعتذار فإنها جاءت مشتملة على ما يلي:

أولاً: ظاهرة استخدام العقل والحكمة والمنطق السديد من قبل النابغة ضد اتهام خطير موجه إليه، لهذا كان من الواجب عليه أن يعرف كيف يبدي القرائن، ويقارع البرهان بالبرهان، ويعرض حججه بروية، وأناة، وسلامة تفكير، ولئن بدا النابغة في استعطافه للملك على أنه شاعر، مظلوم، خائف من غضب ذلك الأسد المتربص به، الذي لا يفتأ يهدده بوعيده، فهو بأسلوبه المنطقي يكشف عن جانب آخر من شخصيته، هو ذلك الجانب الذي تتحفز فيه الحنكة، وتبرز من خلاله الحكمة.

---

(١) العصر الجاهلي ص ٢٥٨.

ثانياً: الصورة التي خرج فيها النابغة أمام النعمان بن المنذر، فقد نسي نفسه أنه شاعر وحسبها محامٍ بارع يقف أمام القضاء العادل، ليتنزع البراءة منه، وفي هذه الحال، عليه أن يستخدم أسلوب الاستعطاف تارة، وأسلوب الحجة والمنطق تارة أخرى، فيبرهن عن إبائه دون أن يتعرض للملك أو لأحد من المكرهين بتجريح في القول، أو فحش في الاتهام.

ولنسمعه كيف يعرض على النعمان بأن يكون حكيماً، عادلاً، غير متسرع في حكمه، غير مصغ للوشاة، ولا يجد من مثال يقرن النعمان به سوى زرقاء اليمامة فيطلب من النعمان أن يتشبه بها:

أُحكم كحكم فتاة الحي إذا نظرت
إلى حمام شراع وارد الثمد

ولا ينفك النابغة يستعرض دفاعه، ودحض مزاعم خصومه، فيستخدم لهذا الغرض حتى القسم، فيقسم برب الكعبة بأنه بريء من القول الذي قذف به، ثم يعود فيخبره بأنه ليس له بعد هذا القسم من مرجع يلوذ به غير الله تعالى، وهو أقسى ما يطلبه المرء في مثل هذا المجال، فحري بأبي قابوس بعد هذا كله أن يكون منصفاً، فينقذه من شر أعدائه، هؤلاء الذين تجلى فيهم الغش، وتجسد الكذب:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مطلب
لئن كنت قد بلغت عني خيانة
لمبلغك الواشي أغش وأكذب

ولئن كان النابغة قد فاز في دفاعه، وحصل على براءته، فإن ذلك لم يكن ليحصل لو لم يكن النابغة قد أحاط من فن الاعتذار بجميع جوانبه، وجعل الناس تشهد له بالريادة في هذا الموضوع، وأن يقال فيه: «لم يكن لأحد من الشعراء الجاهليين باع في الاعتذار إلا النابغة الذبياني، فقد أسهب فيه، فاشتهر به، حتى قيل عنه: إنه اضاف إلى الشعر فناً جديداً، ويقصد بذلك فن الاعتذار، وكأنه لم يكن موجوداً عند شعراء العرب قبل النابغة الذبياني. وحقيقة لقد أتى فيه النابغة بمعان رائعة، وصور شعرية جميلة، فقد كان ما وقع بينه وبين النعمان بن المنذر من سوء تفاهم وقطيعة سبباً في إثارة شاعرية الاعتذار عند النابغة، فقال، وأجاد، حتى اعتبره النقاد، مبدع هذا الفن»[1].

ويعيد البعض السبب في تفوق النابغة في هذا الفن

(١) ملحق تاريخ الأدب الجاهلي للدكتور علي الجندي مكتبة الجامعة العربية ١٩٦٦ ص ٣٦.

إلى الذوق الحضاري الذي اكتسبه من إقامته عند الغساسنة «إذ نحس فيه رقة في اللهجة وإلحاحاً في التلطف، محاولاً أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيء فيه، وقد استعان بموهبته في اختراع الصور والمعاني والتدقيق فيها، مدبجاً في ذلك قصائد طوالاً تعد من أروع ما خلفه العصر الجاهلي لا لطولها فحسب، بل لما فيها من صدق اللهجة، وسهولة اللفظ، وحسن ديباجته»[1].

وإذا كان النابغة فعلاً قد أثبت عن جدارة في الدفاع عن نفسه بأسلوبه المنطقي، لكن ذلك لا يكفي إذا لم يقترن «بصدق العاطفة التي كانت تربط النابغة بالنعمان، كما يظهر إلى جانب ولاء النابغة وخوفه وإشفاقه من بطش النعمان وسطوته، موقف الرجل الذائد عن نفسه، الراغب في دفع الأذى والتهمة عن ضميره المثقل بها في أسلوب قد يصل أحياناً إلى ثورة الشاعر لكرامته، وإظهار لشرفه، وإظهار خفايا نفسه المحبة للصداقة، المخلص للود.

وفوق فلسفة المعتذر صورة الفنان التي استطاعت أن تسير هذه القرون الطويلة فتؤثر في نفوس من يدرك جمالها،

(١) العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ٢٨٦.

وأن تظل حتى الآن لوحات من روعة الفن القديم تخلب نفوس المحدثين من متذوقي الأدب»[1].

وأما في مجال الوصف فإننا نجد النابغة قادراً على تصوير مشاعر الحزن والقلق، بارعاً في تصوير الطبيعة البدوية الساكنة بما يتراءى له من ليلها المظلم وأطلالها، والمتحركة بما فيها من حيوان، مفتن بعد ذلك في التعبير عن مظاهر الحضارة، والكشف عن محاسن المرأة.

وبراعة النابغة تتمثل خير تمثيل «في التصوير، سواء من حيث تمثيل المنظر وتجسيمه، أو من حيث التشبيهات وإدخالها في نسيج الأبيات»[2].

أية صورة شعرية تصور حالة الحزن والقلق، ترتفع فوق صورة النابغة أو تدانيها، وهو يصور نفسه متقلباً على فراشه، لا يدخل عينيه الوسن، ولا يعرف سبيلاً إلى الراحة والطمأنينة، مؤرق المقلة مغتم كقوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة
من الرقش، في أنيابها السم ناقع

(١) النابغة الذبياني للدكتور محمد زكي العشماوي، طبعة دار المعارف ١٩٧٩، ص ١٠٦، ١٠٧.

(٢) العصر الجاهلي لشوقي ضيف ص ٢٩٦.

وقوله:

فلا تتركني بالوعيد كأنني
إلى الناس مطلي به القار، أجرب

وأية صورة أخرى أروع من هذه التصاوير التي يصورها لنا النابغة للطبيعة البدوية المتمثلة في الليل والنجوم في الصحراء حيث السماء صافية فيكون للكواكب إشعاع مميز، والليل الهادىء الساكن، حيث لا ضجيج ولا حركة، مما يوقع في النفس الرهبة والخوف:

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذي يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب

فالشاعر محزون، ومما زاد في حزنه ذلك الجو الكئيب الذي يحيط به، ولننظر إلى لوحة الصحراء كما رسمها النابغة لنرى مكوناتها، وما يتحرك فيها:

تأبد لا ترى إلا صواراً
بمرقوم عليه العهد خالِ

تعاورها السواري والغوادي
وما تذري الرياح من الرمالِ
أثيث نبته جعد تراه
به عود المطافلِ والمتالِ
يكشفن الألاء مزينات
بغاب ردينة السحم الطوالِ
كأن كشوحهن مبطنات
إلى فوق الكعاب برود خالِ

أرأيت هذا المشهد الجميل للصحراء ولحيوانها ونبتها وتربتها، ثم ذلكِ الوصف للحيوان في لونه وفي حركاته، وصراعه مع الطبيعة ليستمر في الحياة.

إنه مشهد من المشاهد الكثيرة التي صورها لنا النابغة، وجعلنا نشعر وكأننا في الصحراء نراقب ونرى ما يحدث فيها.

ولننظر إلى لوحة أخرى ما كنا لنعجب فيها لو لم تكن في الصحراء، لأن المطر هناك عزيز وغالٍ. ولنر كيف يصور لنا النابغة هطول المطر هناك:

أصاح ترى برقاً أريك وميضه
يضيء سناه عن ركام منضَّدِ

أَجَشٌ سماكياً كأن ربابه
أراعيل شتى من قلائص أُبَّدِ
تكركره ريح يجورُ بصوتها
وتعدله أخرى شمال فيهتدي
سقى دار سعدى حيث حلت بها النوى
فأفعم منها كل ربع وفدفدِ

ومثل هذه الصورة والمشاهد كثيرة في شعر النابغة.

ولننظر إلى مظاهر الحضارة كيف يسوقها النابغة في شعره، ويسخرها لتحقيق غايته عندما يمدح الغساسنة:

رقاق النعال طيب حجزاتهم
يحيون بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم
وأكسية الأضريج فوق المشاجب
يصونون أجساداً قديماً نعيمها
بخالصة الأردان خضر المناكب

فهو يصف مظاهر العيش عند هؤلاء وأنها ليست مستحدثة، بل قديمة عندهم متوارثة ومن مظاهر الحضارة عند النابغة أيضاً تشبيه النعمان بن المنذر بالفرات، ثم وصف المراكب التي تمخر في هذا النهر:

فما الفرات إذا هب الرياح له
ترمي أواذيه العبرين بالزبد

يمده كل وادٍ مترع لجب
فيه ركام من الينبوت والخضدِ

يظل من خوفه الملاح معتصماً
بالخيزرانة بعد الأين والنجد

يوماً بأجود منه سيب نافلة
ولا يحول عطاء اليوم دون غدِ

وأما في وصف مفاتن المرأة فقد أتى بمعان أحاط فيها بكل ما يمكن أن تكون عليه المرأة الجميلة حتى غدت هذه المعاني متداولة على ألسنة الشعراء بعده، والتي كان هذا السباق إليها. فالمرأة التي يصفها كالشمس وهي في برج الحمل، أو درة صدفية أبهجت الغواص فسجد لها أو هي درة من مرمر وهي إذا نظرت إليك رأيت في نظرتها الضعف وعدم القدرة على الكلام، أو هي كولد الظبي المحبوس في البيت. إلى غير ذلك من الأوصاف، وكلها تدل على التذوق الجمالي عند النابغة، والإحساس بطعمه.

لاحظنا بإيجاز الصورة الخارجية التي رسمها النابغة لشعره، وتبين لنا من خلال قراءتنا لهذا الشعر، أنه لا يخرج

عن إطاره الجاهلي العام؛ وإن كان قد استفاد بعض الشيء من الحالة الحضارية التي عاينها خلال إقامته عند الغساسنة، فأدخل بعض الصيغ والتعابير الحضارية إلى شعره، وما عداها فإنه يندرج تحت الخصائص التالية:

أولاً: الوجود المادي والحسي في معالجة الموضوعات الشعرية، فنحن نجد أن معالجة هذه الموضوعات يدور حول النواحي الحسية، حتى ما كان منها معنوياً فهو يخضع لعامل الحس، بحيث أنك تراه بعينك أو تحسه بلمسك، فالمدح مثلاً يدور فيه الحديث عن قوة الممدوح، وكثرة جيشه، ومضاء سلاحه، وقتله لأعدائه، وأسره وسبيه لمن نجا من القتل، ثم كثرة عطائه للناس عامة وللمقربين خاصة، كذلك الوصف، والهجاء.

كما تظهر الناحية المادية بوضوح في الغزل، فالشاعر هنا يتحدث عن مفاتن الحبيبة الجسدية، وهو في غزله بين العذرية والإباحية إن صحت قصيدته في المتجردة نسبتها إليه. «فإذا وصلنا إلى نهاية هذه القصيدة، فإننا نجد نوعاً من الدعارة والمجون وصفاً حسياً جنسياً صريحاً، وقد يكون فيه شيء من الجمال الفني في التصوير»[1].

(١) النابغة الذبياني للدكتور محمد زكي العشماوي ص ٨٠.

ثانياً: بساطة التفكير، فالمعاني التي تضمنها شعر النابغة بسيطة لا نجد فيها تعقيداً، ولا غموضاً، فهي معالجة بطريقة لا تحتاج إلى الإغراق في التفكير، وقد يكون ذلك عائداً إلى طبيعة الحياة التي كان يحياها النابغة شأنه شأن سائر الشعراء الجاهليين. فقد كانت حياة فطرية بسيطة لا تشوبها شوائب المدنية التي تعقد حياة أهلها.

من هنا نرى أن هذه المعاني مفهومة من القارىء والسامع معاً، دون حاجة إلى اعمال العقل، وكد الذهن، وإذا ما وجدت هناك من معان غير مفهومة، فإن هذا يعود إلى الفارق الزمني الذي يفصلنا عن العصر الجاهلي، والذي حدث فيه تغيرات كثيرة كفيلة بأن توجد مثل هذه الحالة.

ثالثاً: الاتصال بالبيئة: إن الأفكار التي ساقها النابغة في شعره، أغلبها مستقاة من البيئة الصحراوية، فإنك لو نظرت إلى لوحات النابغة الشعرية، من مديح أو نسيب أو وصف، فإنك ستجد مظاهر الصحراء، والحياة الجاهلية ماثلة أمام عينيك فالصور الشعرية مأخوذة في معظمها من البيئة الصحراوية، إما من ظواهر الطبيعة الصامتة كدمن الآثار للقبائل المرتحلة، أو بعض مظاهر الطبيعة الحية كالأشجار والينابيع، وإما من مظاهر الحياة التي تجري أمامه،

كالحيوانات المتوحشة، أو الرمال المتحركة، أو الأمطار المتساقطة على تلك الربوع. وإما من صنع الخيال النابعة من البيئة الصحراوية.

رابعاً: الصدق في الشعور، ودقة الأحاسيس، فالنابغة في شعره شأنه شأن شعراء الجاهلية، لا ينظمون قصائدهم إلا بدافع العاطفة، وقوة الشعور، لا تكلف فيه ولا تصنع، فهو أصيل وصادق نابع من النفس، والذات، لا من عوامل خارجية، تملي عليه فعل ما يفعل. والدليل على صدق الشعور، ذلك الصدى النفسي الذي يحسه كل من يقرأ، أو يسمع ذلك الشعر. ومع طول العهد به، والفارق الزمني الطويل بيننا وبينه. لا زلنا نهتز، وننفعل عندما نسمعه، رغم اختلاف الظروف والعوامل التي ساعدت على نظمه.

والسبب في ذلك لا يحتاج إلى كبير عناء لمعرفته، فالشاعر الجاهلي خبير بالنفس الإنسانية، مما جعله يصورها بصدق وإبداع، ويجعل جميع النفوس البشرية تتجاوب معها.

كما أن النابغة برع إلى حد كبير في رسم صورة دقيقة لكل ما يتحدث عنه، وقد توسع في ذلك الرسم حتى تعرض بشكل دقيق إلى الجزئيات الكبير منها والصغير، كما رأينا ذلك في وصفه للناقة:

وأقـطع الخرق بـالخـرقـاء قـد جعلتْ
بعـد الكَـلالِ تشكي الأين والسـأمـا
كـادت تـسـاقـطني رحـلي وميـثـرتي
بـذي المجـاز ولم تحسس بـه نعـمـا
فـانشق عنهـا عمـود الصبـح جـافلة
عـدو النحـوص تخـاف القـانص اللحمـا

فالناقة خرقاء تشكو من الإعياء لطول السفر، تنفر من كل شيء، تعدو من خوفها لسماع أي شيء، عدو الأتان التي لا لبن لها. وهكذا.

خامساً: الحياة والحركة: ففي الصور الشعرية عند النابغة نلمس سرعة جريان الأشياء المتحركة في الصحراء وهذه الحركة تظهر في الفرِّ والكر، والتعارك، والتكلم بكلمات على ألسنة البشر والحيوان.

إن أروعَ ما يمثل ذلك مشهد الثور الوحشي وهو يقاتل الكلاب الصائدة دفاعاً عن نفسه، ومن قبله وصف الحالة النفسية التي كان يعيشها ذلك الثور قبل أن تهتدي إليه الكلاب وتطارده، فالأمطار تنهمر عليه، ولا يجد شيئاً يحتمي به، وفجأة يسمع أصوات الكلاب تنبح من بعيد بعد أن أحست بوجوده فارتاع لسماع تلك الأصوات، وحاول الهرب

مستخدماً كل طاقته الجسدية دون جدوى، إذ أدركته الكلاب، فلم يجد بدأ من قتالها، فتنشب معركة حامية بين الطرفين، وتنجلي المعركة عن مقتل أحد الكلاب، ولما رأى الثاني ما أصاب رفيقه حدثته نفسه بالعدول عن مقاتلة ذلك الثور، وأن يرضى من المعركة بالسلامة.

أرأيت هذه الصورة كيف تزخر بالحياة والحركة، والصراع من أجل[1] البقاء.

ولننظر إلى الشاعر كيف يهب الحياة والحركة حتى للرياح وللأمطار، وكيف يخلق التعاون بين هذه العناصر من الطبيعة لتزيل رسم المنازل التي تركها أهل الأحبة:

أربت بها الأرواحُ حتى كأنما
تهادين أعلى تُرْبها بالمناخِلِ
وكل ملث مكفهر سحابه
كَمِيشِ التوالي مرتِعِنٌ الأسافلِ
إذا رجفت فيه رحاً مُرْجَحِنةٌ
تبَعَّق ثجاجٌ غزير الحوافلِ

فالرياح تهدي بعضها إلى بعض التراب المنخل لتهيله

---

(١) انظر الديوان ص ٩٨.

(٢) انظر الديوان ص ٥٤.

على بقايا المنازل، ثم الرعد المدوي الذي يعقبه المطر الغزير يحاول أن يجرف هو الآخر بسيوله تلك الآثار.

سادساً: السرد القصصي: وهو في هذا الجانب، يعرض علينا صوره بطريقة قصصية مشوقة، توفرت فيها عناصر السرد والحكاية، فإذا المشهد مليء بالحركة والحياة، كما رأينا مشهد الصراع بين الثور الوحشي والكلاب، ففي المشهد نرى العناصر المكونة للقصة، من تمهيد وهو تفرد الثور عن قطيعة وتعرضه للبرد القارص، إلى سياق وهو اكتشاف الكلاب لمكان وجوده ومحاولة الإمساك به، إلى ذروة، وهو الصراع بين الكلاب والثور. إلى خاتمة وهي مقتل أحد الكلاب، وتخلي الآخر عن المعركة طلباً للنجاة والسلامة.

سابعاً: شاعر القبيلة: لقد حاول النابغة لا أن يكون شاعراً مداحاً، أو هجاءاً، أو اعتذارياً، يلمع صيته في الآفاق، بقدر ما كان يريد أن يكون اللسان الناطق بصدق عن هموم قبيلته، والمعبر عن حاجاتها ومشاكلها، بل قل المحامي البارع المدافع عن حقوقها، كما رأينا ذلك في كثير من المناسبات، كتحذيره للنعمان بن الحارث الغساني من غزو بني (حُنٍّ) وهم من عذرة أقارب النابغة، وتهديده إياه بسوء العاقبة، إن فعل، ثم هجاءه لزرعة بن عمرو بن خويلد لأنه

طلب من بني ذبيان التخلي عن حلفهم مع بني أسد، وتحذيره له بالتخلي عن هذا العمل لأن فيه السفه والجهل، إلى حزنه على بني عبس حين فارقوا بني ذبيان وانطلقوا إلى بني عامر[1] إلى مدحه النعمان بن وائل بن الجُلاح الكلبي ليطلق سبي غطفان وأسراهم ومنهم عقرباً ابنة النابغة[2].

هذه المواقف التي وقفها النابغة من قومه، إما محذراً أو مدافعاً جعلته سفيراً ناجحاً لقومه سواء في بلاط الحيرة، أم في بلاط الغساسنة، وما زال يرعى مصالحهم حتى آخر أيامه.

رأينا فيما سبق صورة عن مضمون الشعر عند النابغة، بقي علينا أن نتحدث عن الشكل في ذلك الشعر.

من دراستنا لشعر النابغة نرى أنه من حيث الشكل حافظ كغيره من الشعراء الجاهليين على التقاليد الشعرية من حيث الوقوف على الأطلال كمقدمات لسائر الأغراض الشعرية، فقد وقف واستوقف، وبكى على الرسوم والآثار، ولكن النابغة في وقوفه، وبكائه لم يكن مؤثراً في النفس، بل نلمس فيه شيئاً من التصنع في ذلك الوقوف أو البكاء، ونحن

(١) انظر الديوان ص ١٠٤.
(٢) انظر الديوان ص ١٣٧.

إذا أردنا أن نشهد له في إثارتنا فمن النواحي التي وصف فيها تعاون عوامل الطبيعة على تلك الأثار لإزالة معالمها، أما هو فمشاعره كانت فاترة بالنسبة للتأثر بتلك المشاهد. ولعل ذلك يعود إلى كونه لم يمارس فعلاً الحب، أو يقيم علاقة محبة مع إحدى فتيات تلك الربوع.

ونحن لا ننكر أنه وصف موكب الحبيبة، حينما بدأ قومها الارتحال، ثم وصفه لجمال من يحب وهي محتجبة عنه في الهودج، وأخيراً وصف مشاعره تجاه ذلك الموقف. وكيف يتابع الشاعر تحركاتهم وسيرهم، وسط الوديان، وفي منعرجات الطرق، وهكذا حتى يغيب الموكب عن ناظريه.

وبعد الحديث عن الحبيبة، وجمالها، وأثر فراقها في نفسه، ينتقل النابغة للحديث عن الغرض الشعري الذي يريد الحديث عنه، فقد يكون مدحاً، أو وصفاً، أو هجاء الخ.

وقد تضم القصيدة الواحدة أكثر من موضوع، فتتجلى مهارة الشاعر الفنية في حسن الربط بين هذه الموضوعات، وجودة الانتقال من موضوع لآخر، كحديث النابغة عن النعمان بن المنذر بعد أن سمع بمرضه، فهو يبدأ قصيدته بمحادثة نفسه أو شخصاً آخر عن سبب سهره وقلقه، ثم وصفه لطول الليل، كمقدمة للانتقال في الحديث عن

الممدوح ووصفه وهو محمول على نعش ويطاف به على الأحياء ليدعى له بالشفاء، ثم حديثه عن صفات الممدوح من كرم وشجاعة، ثم اعتذاره له، هذه الموضوعات ترد في سياق القصيدة متتابعة بشكل لا يشعر أحد بوجودها، لقدرة الشاعر الفنية في صهرها بعضها مع البعض الآخر.

أما من ناحية العناية بالألفاظ والعبارات، «فإنك لا تقع منها على لفظة نابية، إنما تقع على الألفاظ المحكمة المستخدمة في دلالاتها الدقيقة، ولعل ذلك ما جعله يلتزم الألفاظ البدوية الغريبة حين يصف الديار والصحراء، والحيوان الوحشي، أما حين يمدح الملوك، أو يرثيهم، أو يعتذر إليهم، فإنه يستخدم الألفاظ المأنوسة الجزلة الناعمة»[1].

وهذه البراعة عنده هي التي جعلت نقاد العصر العباسي يقولون عنه: انه «كان أحسن الجاهليين ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً»[2].

والنابغة في إتيانه بالألفاظ والعبارات، فإنه يأتي بها على قدر المعاني المقصودة فنحن قلما نجد عنده الحشو، أو

---

(١) العصر الجاهلي لشوقي ضيف ص ٢٩٧.

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٤٦ والشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ١٠٨.

الزخارف المصطنعة، فالأسلوب عنده قوي رصين، كل ما فيه لازم وضروري، لتكميل الصورة، فليس فيه نقص يخله، ولا زيادة تشوهه، أو تقلل من حسن العرض وجمال التصوير.

قد نجد في بعض ألفاظ النابغة الغرابة، لكن هذه الغرابة طبيعية غير مصطنعة فالشاعر عندما يختار الألفاظ، فإنما يختار منها ما يتناسب مع الأدب، والمعروفة لدى الجميع حتى تجري على ألسنة الناس، وتشيع بينهم، مما يكسب صاحبها الشهرة، وإذا كنا نعجز في بعض الأحيان عن فهم هذه الألفاظ الغريبة، فإن السبب في ذلك يعود لطول العهد بيننا وبين الوقت الذي كانت شائعة ومستعملة فيه.

ولما كان الشاعر الجاهلي مضطراً إلى التزام وحدة القافية في جميع القصيدة من أولها إلى آخرها مهما بلغت من الطول، فإنه مضطر أيضاً إلى أن يأتي بمئات من الألفاظ تتفق كلها في الحرف الأخير منها، وفي النغم الإيقاعي، والجرس الموسيقي، وهذا ما نجده بأوضح صورة عند النابغة «فإنك تحس في جزالة اللفظ، ورونقه بجمال الإيقاع، وحسن السبك والصياغة عنده»[1].

وأما المحسنات البديعية عند النابغة فقد اختلفت آراء

---

(١) النابغة الذبياني لمحمد زكي العشماوي ص ١٩٢.

النقـاد حولهـا، فمنهم من يبرأه من الصنعـة في الشعـر كالأصمعي الذي قال: ان النابغة لا يتكلف في شعره، وأما صاحب العقد الفريد فيرى أن النابغة «كان عديم الدقة في استعمال الفاظه»[1] وأما ابن قتيبة فيقول عنه أنه «لا يهتم بالتعبير ولهذا فهو لم يتكلف الصنعة والزخرف والتأنق في اللفظ»[2].

والحقيقة هي أن البلاغة كانت فطرية لدى الشعراء الجاهليين، فكانت الأشعـار تنثال على ألسنتهم انثيـالاً، وتتوارد على خواطرهم الألفاظ والتراكيب الموسيقية من تلقاء نفسها، فلا نكاد نجد في ألفاظهم أو عباراتهم ما هو متكلف أو مصطنع، إنما يبدو عليها كلها أنها تأتي طبيعية، وعلى السجية، فالمحسنات البلاغية من تشبيه، أو استعـارة أو كناية، أو طبـاق، أو جناس، لم تكن معروفة عند الجاهليين بأسمائها، وإنما جاءت على ألسنتهم طبيعية في غير ما تكلف أو جهد.

وكان الشاعر العربي - إلى عصر متأخر - يصنع مجده، ويجذب الأنظار إليه بالملاحظة الصائبة أو التشبيه القوي، وكذلك لم تزل مدارس النقد الفني المتأخرة تربط أحكامها

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٨٣ وج ٥ ص ٣٥٨.
(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٧.

بالبيت الواحد، لا بنظام القصيدة العام[1]، فأبو هلال العسكري مثلاً يمتدح بيت امرىء القيس:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة
وإرخاء سرحال وتقريب تتفل

لأنه اشتمل على أربعة تشبيهات[2] ومن هنا يندر في الشعر القديم وقوع التضمين أي تعليق القافية أو لفظة مما قبلها بما بعدها كبيتي النابغة الذبياني:

وهم وردوا الجفار على تميم
وهم أصحاب يوم عكاظ إني
شهدت لهم مواطن صالحات
وثقن لهم بحسن الظن مني

ويأخذ بروكلمان وجهة نظر معاكسة لما قلناه من أن المحسنات البديعية كانت فطرية لدى الشعراء الجاهليين، وأن ما جاء على ألسنتهم منها، كانت في غير ما تكلف أو جهد، يرى بروكلمان أن الشاعر الجاهلي لم يكتف، من أجل التأثير على سامعيه، بالتوسع في استخدام الثروة

(١) انظر طبقات الشعراء للجمحي ص ٨٤ والارشاد لياقوت ج ٧ ص ٢٦٠ وخزانة الأدب للبغدادي ج ١ ص ٢٨٣.
(٢) انظر الصناعتين ص ١٨٩.

اللغوية، التي يكثر أن تكون من الغريب؛ أو الإبعاد في التشبيهات بانتقاء الصور التي لا تتبادر إلى الأذهان، بل كان لا يستهين أيضاً باستعمال المؤثرات السطحية المعتمدة على الرنين والموسيقى اللفظية، إلى جانب ما يلتزمه من وحدة القافية[1].

---

(١) تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٥٨.

خاتمة البحث

بعد دراستنا للنابغة وشعره، تبين لنا أن النابغة قد كان في بداية حياته مغموراً، لم يعرف عنه شيء، وأن ظهوره على مسرح الأحداث ابتدأ مع ظهور المشاكل التي تعرضت لها قبيلته مع القبائل الأخرى وخاصة قبيلة عبس أبناء عمومتها وأحلافها، في حرب البسوس، ولعله كان في هذه الفترة قد تقدم في العمر، والذي يدلنا على ذلك كلمته المسموعة عند قبيلته، وموقفه المدافع عنها من جهة، والوسيط بينها وبين أعدائها من جهة أخرى ليضيق هوة الشقاق والخلاف بينها، فهو ما كان يرضى أصلاً بتلك الحرب، ولا بما توصلت إليه من خراب، وزهق للأرواح البريئة، ولما أصبح الأمر واقعاً لا مفر منه، ورأى أن قبيلته مهددة بالأخطار، راح يعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، كبني أسد وبين (حُنٌ) ليدعم موقف قبيلته، ويعز جانبها، ورأينا كم كان يقلق، ويتألم أمام كل حادثة، أو دعوة للتفرقة بين ذبيان وأحلافها، وكيف راح يهجو أصحاب تلك الدعوات، كزرعة بن عمرو، وعامر بن الطفيل وغيرهما. هذا دور، ودور آخر لعبه النابغة عندما

جعل نفسه وسيطاً أيضاً بين قومه وبين الغساسنة من جهة، ثم بين قومه وبين المناذرة من جهة أخرى، عندما حصلت الغزوات بين هؤلاء وبين الذبيانيين وأحلافهم، وكيف راح يسترحم الغساسنة والمناذرة ليعفوا عن قومه.

وأما من زاوية الشعر فإننا نرى النابغة قد برع أيما براعة في موضوعاته الشعرية، حتى لنكاد نعجز عن المفاضلة بينها؛ فهو في المدح نجح نجاحاً حسده عليه فحول الشعراء، وجعله يكسب من ورائه الأموال الطائلة، والغنائم الكثيرة، حتى بات كما يقول النقاد لا يأكل إلا بآنية من الفضة أو الذهب.

وأما في الاعتذاريات، فقد كان رائداً في هذا المجال حسده أيضاً عليه الشعراء وبات علماً من الأعلام يقتدى به في شعر الاعتذار.

والدليل على نجاحه في هذا المضمار ذلك العفو الذي حصل عليه من النعمان بن المنذر حتى بعد تعرضه، أو اتهامه بالتعرض لأقدس شيء عنده وهو عرضه.

وأما في مجال الوصف، فإنه صور لنا الصحراء العربية، وما فيها من دِمَنٍ وآثار، وما يتحرك فيها من حيوانات

على اختلاف أنواعها، وما ينبت فيها من نبات، فقد رسمها لنا النابغة في صور بديعة قربها إلى أنظارنا ومسامعنا، حتى كدنا نشعر بأننا نراها ماثلة أمام أعيننا، وأننا نعيش معها لا في الخيال، بل في الواقع.

وكذلك في محال الرثاء، كان للنابغة باع طويل في هذا المجال لا يقل عن المدح. هذه بصورة موجزة بعض الموضوعات التي عالجها النابغة، وأما إذا انتقلنا إلى المجال الفني لشعر النابغة، فإننا نجد النقاد قد انقسموا حول هذا الموضوع إلى قسمين، فمنهم من سجل عليه بعض التقصير في بعض الأمـاكن، ومنهم من أعطاه الحـد الأعلى من الإجادة، ولكل براهينه وحججه، وقد أبدينا رأينا في هذا المجال، ورأينا أن النابغة كان مجلاً في شعره في بعض المواطن، وخاصة في اعتذارياته، وبعض مدحه. أما في مجال الوقوف على الأطلال، وبكائه على الأحبة، ووصفه للدمن والآثار، وفي رثائه نجد البرودة واضحة في شعـر الشاعر، فهو لم يتأثر بهذه المواقف، حتى يُجل ويبدع في التعبير عنها، وكأنه أراد أن يؤيد صدق من قال عنه: أشعر الشعراء النابغة إذا رهب.

وأخيراً نستطيع أن نقول: اننا قد قمنا ببعض الجهد في

إضفاء صورة جديدة على واقع الحال عند النابغة وشعره، لعلنا نكون بذلك قد أضفنا لوناً جديداً، إلى الألوان التي رسمت منها لوحة شخصية النابغة.

د. علي نجيب عطوي

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١ ـ الأغاني: لأبي الفرج علي بن الحسين
طبعات (بولاق، وساسي، ودار الكتب)

٢ ـ أخبار الشعراء للصولي أبي بكر محمد بن يحيى عني بجمعه هوارت د، بغداد بيروت بدون طبعة وتاريخ

٣ ـ جمهرة أشعار العرب للقرشي: أبي زيد محمد بن أبي الخطاب.
دار بيروت للطباعة والنشر سنة ١٩٨٤

٤ ـ خزانة الأدب للبغدادي. عبد القاهر بن عمر البغدادي
الطبعة الأميرية، بولاق سنة ٢٩٩هـ.

٥ ـ ديوان النابغة. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر دون طبعة وتاريخ.

٦ ـ زهر الآداب: للقيرواني: أبي إسحاق ابراهيم بن علي الحصري
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٦٣م

٧ ـ شرح شواهد المغني للسيوطي جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.
مطبعة مكتبة الحياة.
٨ ـ كتاب الصناعتين: لأبي هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل
تحقيق محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم، منشورات البابي الحلبي بمصر دون تاريخ
٩ ـ طبقات الشعراء: لمحمد بن سلام الجمحي،
دار النهضة العربية، بيروت
١٠ ـ العقد الفريد: لابن عبد ربه أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة طبعة ثالثة سنة ١٩٦٥م
١١ ـ الشعر والشعراء للدينوري عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر بدون طبعة وتاريخ
١٢ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٣

١٣ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير، عز الدين علي بن محمد
ليدن سنة ١٨٦٧م
١٤ ـ مروج الذهب للمسعودي أبي الحسن علي بن الحسين
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،
المكتبة التجارية الكبرى بمصر طبعة رابعة سنة ١٩٦٤
١٥ ـ المزهر للسيوطي عبد الرحمن جلال الدين، تحقيق علي محمد البجاوي وزملاؤه دار إحياء الكتب العربية
١٦ ـ معجم الشعراء للمرزباني أبي عبد الله محمد بن عمران
تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر طبعة ثانية بدون تاريخ
١٧ ـ الموشح للمرزباني أبي عبد الله محمد بن عمران
المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٣هـ
١٨ ـ المؤتلف والمختلف للآمدي أبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى.
تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب سنة ١٩٦١.
١٩ ـ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي يوسف الأتابكي.
دار الكتب المصرية، بدون طبعة وتاريخ

٢٠ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري.
مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩١٤ م.

ثانياً: المراجع:

١ ـ تاريخ الأدب الجاهلي لعلي الجندي
دار النهضة العربية ١٩٦١م

٢ ـ تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر طبعة ثانية دون تاريخ

٤ ـ الصور البيانية بين النظرية والتطبيق لمحمد شرف حنفي
دار نهضة مصر للطباعة والنشر، طبعة أولى سنة ١٩٦٥م

٣ ـ شعراء النصرانية قبل الإسلام للأب لويس شيخو اليسوعي
دار المشرق، بيروت طبعة ثانية بدون تاريخ

٥ ـ العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م

٦ ـ في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥م

٧ ـ قضية الأدب بين اللفظ والمعنى لعنبر أحمد محمد
دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٤م.
٨ ـ موسيقى الشعر لابراهيم أنيس
دار الفكر للطبع والنشر، القاهرة بدون طبعة
وتاريخ
٩ ـ النابغة الذبياني لإيليا سليم الخوري.
بيروت دار الكتاب اللبناني د.ت
ـ النابغة الذبياني لعمر الدسوقي، القاهرة دار الفكر العربي
د.ت
١١ ـ النابغة الذبياني للدكتور محمد زكي العشماوي
طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩.

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع